

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر 2

كلية اللغة العربية و آدابها و اللغات الشرقية

قسم اللغة العربية و آدابها

صورة المرأة الغربية في الرواية العربية
نماذج مختارة

اطروحة مقدمة لنيل دكتوراه الطور الثالث

تخصص: الأدب المقارن

إعداد الطالبة:

تيسمبال شهنياز

إشراف الأستاذ :

د. علاوي حميد

السنة الجامعية: 2018-2019



اهداء

إلى اللذين قال الله تعالى فيهما:

{ و قضي ربك ألا تعبدوا إلا إياه و بالوالدين إحسانا }

إلى من علماني معنى الحياة و الكفاح

إلى عنواني المحبة و الحنان

إلى بسمه الحياة و سر الوجود

إلى أغلى الأحبة «أمي» الغالية

إلى من أحبه و أفقده كثيرا «والدي» الحبيب رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه

إلى أختي العزيزة الحبيبة «حسنية»

إلى أخواي العزيزين «فؤاد و رمزي»

إلى أستاذي المشرف الذي كان نعم الموجه «د. حميد علاوي»

إلى استاذتي العزيزة القديرة " د. مليكة بن بوزة "

إلى كل من أعانني على إنجاز هذا البحث

أهدي هذا الجهد وفاء و تقديرا

شهيناز تيسمبال

شكر و عرفان

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، الحمد لله المنان، الملك القدوس السلام، مدبر الليالي و الأيام، مصرف الشهور و الأعوام، قدر الأعوام فأجراها على أحسن نظام، ما شاء الله كان و ما لم يشأ لم يكن، الحمد لله على ما أنعم به علي من فضله الخير الكثير، و العلم الوفير، و أعانني على إنجاز هذا العمل الذي أحسبته عبادة من العبادات جعلتها لله خالصة لوجهه الكريم .

و بعد حمد الله تعالى و شكره على إنهاء هذه الرسالة، أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ المشرف د. حميد علاوي الذي سار معي إلى آخر المطاف، و لم يبخل علي بنصائحه القيمة، و أقدم شكري و إمتناني إلى الأساتذة أعضاء اللجنة المناقشة الذين تكبدوا عناء تصحيح ما ورد في هذا البحث من قضايا مختلفة، كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من ساهم و مد بيد العون و لم يبخل بكلمة طيبة في إتمام هذه الرسالة . ولكم مني جميعا فائق الإحترام و التقدير .

مقدمة

في عصر أصبح فيه الإنفتاح على الأمم ضروريا، سعت الدراسات الأدبية المقارنة

المعاصرة لإستكناه طبيعة العلاقات التي تجمع بين الشعوب، و توضيح الرؤى و الأفكار الفاسدة التي أطلقتها بعض المؤسسات العنصرية عن بعضها البعض بغية تشويه صورة الآخر و إلغاء وجوده. و لعل الرواية العربية كانت أفضل مجسد لطبيعة هذه الأحداث والعلاقات التي جمعت بين الشعوب.

لطالما عبرت الرواية العربية عن هموم الفرد العربي و اهتمت بانشغالاته، و حاولت دائما إيجاد الحلول المناسبة له و لوضع الشعب كله، ذلك أن الروائي العربي همه الوحيد هو الإصلاح و التغيير و مساندة شعبه في مواجهة الآخر الذي يريد أن يلغي الذات العربية، مستغلا ضعفنا و تشتتنا و حاجتنا إلى علمه و إنتاجاته. لذلك أثارت هذه المسألة مسألة، مواجهة الآخر جدلا و نقاشا كبيرين بين الأدباء قديما و حديثا.

إن مواجهة الآخر تتطلب منا معرفته، و هذه المعرفة لن تكون عن بعد بل بالإحتكاك به عن قرب، لذلك فضل الروائي العربي أن يخوض المغامرة و يشد رحاله إلى الغرب حتى يكون تصوير العلاقة بيننا و بين الآخر قريبا من الحقيقة و الواقع و ليس مجرد صورة وليدة للمخيال فقط.

يسعى هذا البحث إلى تتبع طبيعة حضور المرأة الغربية في الرواية العربية، هذه المرأة الشقراء التي كانت صورة للغرب و رمزا لطبيعة اللقاء الحضاري بين الشرق و الغرب، و لطالما عرف هذا اللقاء بأنه لقاء عدائي، و هنا سنرى كيف ستتحرك المشاعر العدائية للروائي العربي، و كيف سيستغل حقه الدفين الذي يكنه للغرب الذي استعمره قديما و مازال يستعمره الآن لكن بأساليب حديثة مختلفة، فيسعى للانتقام منه في عقر داره و تكون المرأة الغربية وسيلته في هذا الانتقام.

و لعل الغاية من إقتراح هذا الموضوع ترجع لعدة مبررات منها :

* المبرر الأول : يتناول الموضوع قضية المرأة الغربية، و هي قضية حساسة نظرا للدور المهم و الخطير الذي تؤديه المرأة في المجتمع الغربي.

* المبرر الثاني : إن الغزو الذي عرفناه سابقا من قبل الغرب كان على مستوى جغرافية الوطن فحسب، لكن اليوم قد تعدى ذلك و أصبح غزوا من نوع آخر، فقد تجاوز غزو الوطن إلى غزو عقول و أفكار الشرق، حتى أصبح الشرق يتنفس بالغرب و يموت بالغرب، فهو يترأى له في كل شيء من حوله، و لعل هذا ما أثار فضولي في البحث عن سبب هذه التبعية و الإنقياد للغرب.

* المبرر الثالث: و هذا يعود لذاتية الباحث و رغبته الملحة لتقصي منظور الذات العربية من خلال هذه المتون الروائية التي تصور "الآخر" و هنا ستكتشف الذات العربية نفسها من خلال خروجها إلى الآخر، و ستجد نقائصها في مرآته.

* المبرر الرابع :قلة الدراسات الأكاديمية التي تناولت صورة المرأة الغربية في الرواية العربية فقد تطرق معظم الباحثين في دراساتهم إلى موضوع صورة الغرب فقط، متجاهلين موضوع المرأة الغربية،و من بين تلك الدراسات (صورة اليهودي في الرواية الفلسطينية)لحسين أبو النجا، و دراسة عبد المجيد حنون في (صورة الفرنسي في الرواية المغربية)، و دراسة (صورة الجزائر في الأدب الفرنسي لأمنية سوفلان)، و (صورة الغرب في الأدب العربي) لغسان السيد .

اشكالية البحث: يثير هذا البحث مجموعة من التساؤلات منها :

كيف تتجلى صورة المرأة الغربية في السرد الروائي العربي؟ و ينبثق عن هذا السؤال المحوري مجموعة من التساؤلات هي كالآتي:

* لماذا استعمل الكتاب المرأة كرمز للتعبير عن الغرب؟ هل لأن المرأة الغربية قادرة على تمثيل كل القيم الموجودة في المجتمع الغربي؟ أم أنها وضعت أداة للتأثر من الغرب؟
* ما هو سر هجرة معظم الأدباء إلى الغرب، هل هو الإنبهار بالغرب و حضارته، أم للانتقام منه؟ .

كيف تصور العرب الغرب؟ و ما هي ظروف إحتكاك الشرق بالغرب ؟ .

* إن الغرب أصبح هاجس و حلم كل شاب عربي فما سر ذلك، هل السر هو في الفتاة الشقراء التي يمتلكها الغرب، فصارت تستخدم كطعم لصيد الشرقي من أجل إفراغ مكبوتاته الجنسية، أم هناك سر و سبب آخر سنكتشفه في هذا البحث، و لعل هذا ما فتح لنا بابا آخر لمعالجة مشكلة من نوع آخر صارت تشكل أزمة عند الرجل الشرقي و هي أزمة الجنس، و سبب هروبه من المرأة العربية ليرتمي في أحضان المرأة الغربية و بالتالي صار الغرب مركزا للجنس.

* و في الأخير هل يمكن الخروج بصورة واحدة للمرأة الغربية، يشترك فيها جميع الروائيين العرب على مستوى نصوصهم الروائية....؟.

كل هذه الأسئلة المطروحة سنجيب عنها في هذا البحث المكون من ثلاثة فصول، يتقدمها تمهيد و مذيلة بخاتمة ، ثم قائمة للمصادر و المراجع.

التمهيد : تطرقت فيه إلى تحديد مفهوم علم الصورة و أنواعها، و أهم مكوناتها و في

الآخير الهدف من دراسة الصورة، و المشاكل المنهجية التي يجدها الباحث في دراسته لعلم

الصورة .

الفصل الأول : إختص هذا الفصل بتناول الجوانب النظرية و يندرج ضمنه مبحثين،

كل مبحث مقسم إلى عدد من المطالب. إهتم المبحث الأول بتحديد بعض المفاهيم كمصطلحي الشرق و الغرب، و من ثم مفهوم الحروب الصليبية، ثم حاولت بعدها أن أتتبع طبيعة العلاقة بين الشرق و الغرب، و الظروف التي جمعت بينهما خلال سنوات طويلة مضت، فلاحظت أن هذه العلاقة يغلب عليها العداء و تصادم عنيف بين الحضارتين الشرقية و الغربية وقد اتضح ذلك أكثر من خلال الحروب الصليبية بين المسلمين و الغرب المسيحي الذي كان سببه طمع و جشع الصليبيين في أرض المسلمين، فالشرق كان جنة بالنسبة لهم لما يتمتع به من خيرات، و القوي كان يريد أن يأكل و ينهب و يستولي على ممتلكاته، ثم أشرت بعد ذلك إشارة خفيفة إلى دور المرأة الأوروبية في الحروب الصليبية لأن المرأة الغربية هي مظهر من مظاهر هذا الصراع، وقد كان حضورها فعالا في كل مجالات الحياة اليومية.

أما المبحث الثاني: فقد عرف تواصلا و تبادلا ثقافيا بين الشرق و الغرب، هذا التواصل حقيقته كانت تخفي إستعمار من نوع آخر عرف بإسم "الإستشراق" الذي ظاهره طلب العلم بالشرق و جوهره السيطرة على الشرق بطريقة جديدة غير مباشرة. و هنا يمكن أن نقول أن الحرب لم تنته بينهما، بل اتخذت مجرى آخر تحت عنوان الإستشراق، فبعدها كان السلاح السيف وسيلة للحرب صار اليوم العلم وسيلة أخرى فريدة من نوعها تناسب العصر الحالي .

إن الغرب يبحث عن أي سبب بسيط و هين حتى يغزو و ينهب الأراضي العربية، ولعل هذا ما قامت به فرنسا في حملة نابليون بونابرت على مصر عام 1798م عندما إستغلت تخلف الشعب المصري و تدهور أوضاعه، فهبت بجيوشها مسارعة لإحتلال مصر، مدعية أن غايتها تحسين أوضاع الشعب المصري و تثقيفه، لكن الحقيقة هي عكس ذلك، ومع ذلك نحن لانكر أن هذه الحملة الفرنسية وضعت البذور الأولى للنهضة العربية، ونورت عقول الكثير من المصريين بالوسائل العلمية التكنولوجية التي جلبتها معها، فاستيقظت هذه الأنا الشرقية و أحست بضعفها و نقصها عندما تصادمت مع الآخر القوي، فعزمت على مجاراته و مواكبة هذا التطور، الذي كنا نحن قادرين على تحقيقه من دون إستعمار، لأن الإستعمار لا تهمة ثقافتنا و تطورنا، بل غايته الخفية الحقيقية هو كسرنا واستعبادنا و إلغاء هويتنا الشرقية بكل مقوماتها.

الفصل الثاني: تم تخصيصه للجانب التطبيقي و دراسة صورة المرأة الغربية في

الرواية العربية، وقد جاء مقسما إلى مبحثين، كل مبحث يحتوي عددا من المطالب.

أما المبحث الأول: فقد تطرقت فيه إلى إختلاف القيم بين الحضارتين الشرقية والغربية إزاء الجنس و حرية المرأة الغربية، و سبب إقبال الرجل العربي إلى أروبا، و سر بحثه الدائم عن المرأة الغربية.

و في المبحث الثاني: درست الصورة التي رسمها الأدباء للمرأة الغربية عبر نصوصهم الروائية، من خلال نماذج نسائية متباينة، بين الجرأة و التحرر، التسلط والتعالي، الخداع و المكر و الأنانية، العاملة و المثقفة، ولكل شخصية تحليل لسماتها الجسدية و المعنوية، و في نهاية هذا التحليل جدول تلخيصي يوضح صورتين متناقضتين سلبية و ايجابية للمرأة الغربية، و أنهيت المبحث بمقارنة بسيطة بين المرأة الشرقية و المرأة الغربية و الوضع الإجتماعي لكل منهما.

الفصل الثالث: سبق و أن أشرنا إلى أن المرأة الغربية كانت مظهرها و صورة للقاء الحضاري العدائي بين الشرق و الغرب، لذلك سنحاول في هذا الفصل أن نبين الحقد والضعينة التي يكنها الرجل الشرقي للغرب، و كيف سينتقم من الرجل الغربي من خلال امراته الشقراء، و قد جاء هذا الفصل في مبحثين، في المبحث الأول سندرس الوسيلة التي وظفها الرجل الشرقي في إنتقامه من المرأة الغربية و كيف صب جم حقه و غضبه في أحشائها، فقد مثل هو دور الأسد الشرس و هي الفريسة الضعيفة، أي أن العلاقة بينهما علاقة فحولة قاهرة و أنوثة مقهورة تنتهي بالقتل أحيانا، فيتهياً للبطل أو الرجل الشرقي أنه إنتصر و رد الإعتبار لذاته و شرقه من خلال إمتلاكه و إستهلاكه للفتاة الشقراء .

أما في المبحث الثاني: لقد حاولنا أن ندرس في هذا المبحث نسبة نجاح أو فشل الحوار بين الشرق و الغرب، من خلال العلاقة التي جمعت بين البطل الشرقي و المرأة الغربية، ثم نبحت في الأسباب التي أدت إلى ذلك، ثم البحت في الحلول التي تمكن من خلق حوار إيجابي سلمي مبني على التفاهم و إحترام الآخر.

و في نهاية البحث خاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها بعد دراسة الموضوع.

تحديد منهجي:

استعنت في هذا البحث بعدة مناهج في دراسة الموضوع، و أول منهج بدأت به هو المنهج التاريخي و ذلك في الفصل الأول لتتبع ظروف لقاء و احتكاك الشرق بالغرب عبر التاريخ، أما في الفصول التطبيقية فقد اعتمدت على المنهج المقارن و هو أكثر المناهج حضورا في هذه الدراسة، لما يمكنه من تحليل و فرز مكونات كل شخصية في كل رواية، و من ثم إستخراج صورة كل شخصية في ذلك المتن الروائي .

أهم المصادر و المراجع المعتمدة:

اعتمدت في هذا البحث على مصادر و مراجع متنوعة و متعددة و هذا لتشعب عناصر البحث و تعددها، و يمكن تقسيمها إلى ما يلي:

المصادر:

و هي تتمثل في خمس روايات عربية تم إختيارها وفقا لتعبيرها عن المرأة الغربية، من ملامح و صفات و سلوك و وفقا لعلاقتها بالرجل العربي "الأنا" فقد كانت المرأة الغربية موضوعا مركزيا فيها.

المراجع:

منها ما يخص حقل الصورائية و تتمثل في الأدب العام و المقارن لدانييل هنري باجو ترجمة غسان السيد، و فصول في الأدب المقارن لمديحة عتيق، أما في ما يخص اللقاء التاريخي بين الشرق و الغرب إستعنت ببعض الدراسات التاريخية من بينها مفيد الزيدي في تاريخ الحروب الصليبية، و سعيد عبد الفتاح عاشور في الحركة الصليبية، و جوزيف نسيم يوسف دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب، كما إستعنت بمراجع أخرى تفيد الموضوع و تمسه بصفة عامة مثل الرحالون العرب لنازك يارد سابا، و الغرب في فكر هشام شرابي لزهرة بلحاج، و محمد عابد الجابري في إشكاليات الفكر العربي المعاصر، و لا ننسى أهم كتاب متخصص في هذه الدراسة شرق و غرب، رجولة و أنوثة لجورج طرابيشي.

المقالات:

اعتمدت في هذا البحث على عدد من المقالات و الدراسات من بينها صورة المرأة الأوروبية في روايات شكيب الجابري لأحمد سيف الدين، و صورة الغرب في الأدب العربي، رواية فياض نموذجا لخيري الذهبي .

ولا يخلو أي بحث من صعوبات قد تعرقل رحلة البحث، و تقف حاجزا أمام الباحث فيحس الباحث للوهلة الأولى أن أمامه صخرة كبيرة تعترض طريقه و هو لا يستطيع زحزحتها عن مكانها، لكن بفضل المثابرة و الإرادة القوية و الصبر الحثيث يتمكن الباحث من مواصلة مشوار بحثه، و لعل من أهم الصعوبات التي واجهتها ما تتعلق باتساع الموضوع و عمقه، فموضوع صورة المرأة الغربية في الرواية العربية موضوع واسع و عام يحتار فيه الباحث في إختيار الرواية العربية المناسبة للموضوع لأن هذا الموضوع تناوله الكثير من الأدباء عبر نصوصهم الروائية، و هذا ما تطلب مني أيضا البحث و توظيف عدة مراجع.

على الرغم من كل الصعوبات التي واجهناها إلا أن هذا البحث أنجز و أتم بفضل من الله و عونهِ و تقديرهِ، فألف حمد و شكر لله عز وجل على ذلك. و شكر و تقدير للأستاذ المشرف الدكتور "حميد علاوي" على كل نصائحه و توجيهاته، و الشكر موصول أيضا إلى لجنة المناقشة التي تشرفت بقراءتها لهذا البحث.

مدخل

1 - مفهوم علم الصورة

2 - أنواع الصورة

3 - مكونات الصورة

4 - الهدف من دراسة علم الصورة

5 - المشاكل المنهجية لعلم الصورة

1/ مفهوم الصورة:

تعتبر دراسة الصورة جزءا هاما و جوهريا في الأدب المقارن، إنه الجزء الذي أثار النقاش الواسع لدى مناصريه و معارضيه لا سيما في سنوات الستينات، بيد أنها تعتبر في أيامنا هذه بمثابة أرضية مميّزة لدراسات الأدب المقارن، فدراسة الصورة الأدبية تعد بالمرّة منهجية النقد في الأدب المقارن¹.

إذا تمعنا قليلا في مفهوم كلمة الصورة نجدها ترتبط إرتباطا وثيقا بمفهوم كلمة المرأة التي تعرف بأنها: « سطح يعكس كل ما يقوم أمامه فأى شئ يمتلك خاصية السطح العاكس فهو مرآة و هذا الذي يقوم أمام المرأة يعرف باسم الأصل و أما الذي تعكسه فهو يعرف بالصورة أو الإنعكاس، و تدور الصورة مع أصلها وجودا و عدما فإن وجدت كان الأصل موجودا و إن إنعدمت كان الأصل منعدما أو غائبا² ». .

وإذا أسقطنا هذا التعريف العام للمرأة على الصورة نقول إن الصورة هي إنعكاس لأصل سابق لها أي أن « ذات الآخر هي مرآة نرى فيها ذاتنا التي تعمل بدورها كمرآة تساعد الآخر على رؤية ذاته³ », و يعتبر هذا العلم « علم الصورة » من أحدث المجالات في الأدب المقارن و أهمها، يتحدث محمد غنيمي هلال عنه قائلا « هذا أحدث ميدان من ميادين البحث في الأدب المقارن لا ترجع أقدم البحوث فيه إلى أكثر من ثلاثين عاما و لكنه مع حداثة نشأته غني بالبحوث التي تبشر بأنه سيكون من أوسع ميادين الأدب المقارن و أكثرها رواجاً في المستقبل⁴ ». .

¹ –BahmanNamvarnotlgh, les Stéréotypes à traver le prisme de l’imagologie, Recherche en langue et littérature française, Revue de la Faculté des littres année N° 7,paris, page 70.

² – محمد رجب، فلسفة المرأة، دار المعارف، مصر، ط 1، 1994، ص 15.

³ – ميخائيل ابراهيم أسعد، شخصيتي كيف اعرفها؟ دار الآفاق الجديدة، لبنان، ط 3، 1987، ص 72.

⁴ – محمد غنيمي بلال، الأدب المقارن، نهضة مصر، مصر، ط 3، 2003، م، ص 19.

لقد كان لجون ماري كاريه z m carre و ماريوس فرانسوا غويارد m f guyard الأسبقية في دراسة هذا العلم « علم الصورة »، فدافعا عنها بقوة و نشرها غويارد في الفصل الأخير من كتابه الصغير سلسلة (كوسيج ماذا أعرف) عام 1951م الأجنبي مثلما نراه¹، و قد أحدث هذا النوع من الدراسات ضجة كبيرة فاهتم به جماعة من الباحثين و خصصوا له سلسلة من الرسائل وضعت قاعدة و منهجا لدراسة الصورة الأدبية imagologie من بينها رسالة أندريه مونشو ألمانيا أمام الآداب الفرنسية من عام 1814 الى عام 1835 م تولوز 1953 م و رسالة ماريو فرانسوا غويارد (صورة بريطانيا العظمى في الرواية الفرنسية 1914-1940م ديديه 1954 م) و رسالة رينيه شوفال (ألمانيا و الحرب 1963puf) و رسالة ميشيل كادو (صورة روسيا في الحياة العقلية الفرنسية 1839-1856مفايارد 1967 و غيرها من الرسائل الاخرى.....)².

كما ينبغي أن نشير أيضا إلى العمل المتميز الذي قدمته مدام "دي ستال" من خلال كتابها "ألمانيا"، و قد حاولت به أن تعرف الشعب الفرنسي بالشعب الألماني و أهمية التبادل الثقافي بين الشعوب فقالت: « إن الأمم ينبغي أن تستهدي كل واحد منها بالأخرى و من الخطأ الفاحش أن تبتعد أمة عن مصدر ضوء يمكن أن تستعيره³ ». و في النهاية تبقى هذه الدراسات التي أعدها هؤلاء الباحثين الأرضية المرجعية الأساس التي يعود إليها أي باحث فيما بعد، كان الهدف منها هو توضيح الصور المشوهة للبلدان الأوروبية في آداب غيرها.

تعدّ الصورة " رؤية فردية أو جماعية، تمتزج فيها عناصر فكرية أو عاطفية في الوقت نفسه، موضوعية و ذاتية، فلا يمكن لأي أجنبي أن يرى بلده كما يحلو لسكانه

¹ - ينظر دانييل هنري باجو، ترجمة غسان السيد، الأدب العام المقارن، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د ط، 1997م، ص 92.

² - ينظر المرجع نفسه، ص 89.

³ - مدام ديستال، نقلا عن أحمد درويش، نظرية الادب المقارن و تجلياتها في الأدب العربي، دار غريب للطباعة، القاهرة، د ط، 2002م، ص 22.

الأصليين، و مردّ ذلك أن العناصر العاطفية تغطي على العناصر الموضوعية، فالأخطاء تنتقل أسرع و أحسن من الحقائق"¹.

للمخيال الجماعي دور في تكوين صورة شعب ما فهو عنصر ضروري، ينبغي على الباحث أن يتتبعه عبر التاريخ حتى يتمكن من الوصول إلى الظاهرة الأدبية المطلوبة، و بما أنّ للإنسان ذاكرة تعمل على حفظ المعلومات فإنها أيضا تعمل على نقلها و نشرها بين جميع الأفراد و ذلك بغية تكوين ذاكرة جماعية عن ظواهر معينة، و ينتج عن ذلك تكوين أفكار و انطباعات عن الشعوب قد تكون حقيقية أو العكس. و هذا أمر لا يهملنا بقدر ما يهملنا إكتشاف القيمة المعيارية لهذه الصورة و أهم عناصرها و أفكارها التي ساهمت في تكوينها في أدب ما.² و قد قسم الباحثون المخيال إلى ثلاثة أقسام هي :

المخيال التمثيلي: و هو الذي يساعدنا على الإحتفاظ بالصور لفترة زمنية طويلة، وكذلك يساعدنا على استرجاعها في حالة ما إذا شاهدنا أو تعرضنا ل (مثير) يثير فينا الدهول، ثم ما نلبث أن نقرر بأنه سبق لنا و أن شاهدنا تلك الصور من قبل.³

المخيال المبدع : "وهو المخيال الذي تنتقل فيه الصور من الذاكرة الحافظة إلى الذاكرة المبدعة بواسطة قوة تركيب، أو قوة فعل الرابط بينها من خلال الإشارات، إذ أن كل إشارة لها قدرات متفاوتة لخلق رابط و في نفس الوقت إعطاء معنى معين له"⁴.

¹. مديحة عتيق، فصول في الأدب المقارن، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2011م، ص 44.

². ينظر أمينة سوفلان، صورة الجزائر في الأدب الفرنسي، ديموباسان و البير كامو نموذجا، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2008-2009م، ص 15.

³. ينظر د. قحطان عدنان زغير، المخيال الاجتماعي و تمثلاته في مهارات التمثيل المسرحي، مجلة لارك للفلسفة و اللسانيات و العلوم الاجتماعية، كلية الفنون الجميلة جامعة واسط، العراق ، العدد الخامس و العشرين ، 2017م، ص315.

⁴. دكتور قحطان عدنان، المرجع نفسه، ص 315.

المخيال الوهمي: "و هو يستمد عناصره من خلال نسيج الرؤى و الأحلام نسجا خياليا لا صلة له بالوجود الحقيقي، فالوهم عند فرويد (freud) "إنشاء نفسي يرتبط بالرغبة، ولا يشير إلى شيء لا وجود له أو إلى تخطيطات ذهنية سرابية لا صلة لها بالواقع و لا إلى الخطأ أو الكذب، بل يشير إلى المتخيل الحي الذي يشد الفرد و الجماعة"¹.

إن الشرط الأساسي في إنشاء الصورة هو "الوعي"، و حتى يتم هذا الوعي لا بدّ له من عنصرين ضروريين هما "الأنا" و "الآخر"، بمعنى وعي الذات للآخر²، فهي "تعبير أدبي أو غيره يشير إلى تباعد ذي دلالة بين نظامين من الواقع الثقافي"³، و " الصورة أيضا هي إعادة تقديم لواقع ثقافي مغاير يكشف فيه الفرد أو الجماعة الذين شكلوه أو الذي يتقاسمونه أو ينشرونه عن تأويل لفضائهم الاجتماعي، و الثقافي و الإيديولوجي الخاص الذي يتموضعون داخله عند عملية تقديم الآخر"⁴.

إذن من خلال هذا المفهوم الأخير للصورة نستنتج أن الصورة هي عملية إزدواجية بين ثقافة " الأنا " و ثقافة " الآخر"، تأخذ طابع التبادل و التناظر. و نقصد " بالتناظر" أنّ " الأنا" الناضرة إلى " الآخر" لا تنقل ما تلتقطه الحواس و ما تطبعه النفس فقط ، و إنّما تنقل في الوقت نفسه صورة أخرى عن نفسها تنعكس في مرآة " الآخر"، أما عن " التبادل"، فيكون نتيجة الإحتكاك "بالآخر"، و هذا الإحتكاك هو الذي يخلق فيما بعد عملية التأثير و التأثير و به تتأثر الأنا بالآخر، و تأخذ الصورة هنا " شكل الثقافة التي تنتقل عبر التاريخ و تدخل ضمن مجتمعات و شعوب مختلفة كاللباس ، و اللغة و الدين و العادات ، و مختلف

¹. المرجع نفسه، ص 315.

². ينظر ماجدة حمودة ، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، د ط، 2000م، ص 110.

³. د. أحمد سيف الدين، صورة المرأة الأوروبية في روايات شكيب الجابري، مجلة دمشق، المجلد 18، العدد الأول 2002م، ص 4.

⁴. أمينة سوافلان، المرجع السابق ص 15.

الممارسات الأخرى، و تنتقل هذه العناصر الثقافية في مخيلة الجماعات و الأفراد ثم يعاد تقديمها بشكل ثقافي مغاير وفق منظومة ثقافية و فكرية أخرى تختلف عن الأولى التي نشأت فيها¹، و بهذا نخلص إلى ثنائيتين تمثلان قطبي الصورة و هي " الهوية" التي تمثل الثقافة الناعمة و " الغريبة" التي تمثل الثقافة المنظورة إليها.²

إن تمثيل الآخر ليس بالأمر السهل، بل هي مهمة شاقة تتطلب منا درجة من التقدم في الوعي و الماديات معا، و لهذا ليس بإمكان أية ثقافة تمثيل الآخرين إلا إذا وصلت إلى مستوى عال في المستويين السياسي و الاجتماعي . و "بين الأنا و الآخر علاقة جدلية لا ينبغي إلغاؤها أو تجاهلها و السكوت عنها . فعلاقة كل واحد منها بالآخر هي ثنائية قائمة في طبيعة الحياة يعد كل شطر منها شرطا لوجود الشطر الآخر و فهمه ووعيه و الإعراف به"³. فماذا نعني " بالأنا " و ماذا نقصد "بالآخر" .

يقول سليمان أحمد ياسين : "الأنا في المعجم العربي هو ضمير متكلم قائم بذاته و لذاته ، لا يناعه أو يشاركه في ذاتيته و بصفته، فهو مستقل من غيره و إن كان منتجا له و ناتجا من علاقته به، و الأنا في هذه الحالة متقلص في مساحته مسكون بنزعته الفردية"⁴.

ما يقابل الذات هو "الآخر" فإن غاب هو لا نستطيع أن نحكم على "الأنا" بالوجود، فالآخر هو "الكائن المختلف عن الذات و هو مفهوم نسبي و متحرك، ذلك أن الآخر لا يتحدد إلا بالقياس إلى نقطة مركزية و هي الذات، و هذه النقطة المركزية ليست ثابتة بصورة

¹ . أمينة سوافلان، المرجع السابق ص 15، 16.

² . ينظر المرجع نفسه، ص 16.

³ . حسين العودات ، الآخر في الثقافة العربية نقلا عن د. ليلا قاسمي ، صورة الذات و الآخر في رواية " سوشون"، مجلة دراسات في اللغة العربية و آدابها، جامعة طهران ، إيران، العدد 19، 2014م، ص 127.

⁴ . السليمان أحمد ياسين، التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر، نقلا عن بهاء طاهر ، تقابل الحضارات بين الأنا و الآخر في رواية " واحة الغروب " ، مجلة إضاءات نقدية ، طهران ، إيران، العدد 23 ، 2016م، ص 34.

مطلقة فقد يتحدد الآخر بالقياس إلى الذات كفرد، أو إلى جماعة معينة قد تكون داخلية كالنساء بالقياس إلى الرجال و الفقراء بالقياس إلى الأغنياء، أو خارجية بالقياس إلى مجتمع بصورة أعم ¹. و يمكن أن نقول إن الذات و الآخر هما توأم لا يمكن فصلهما عن بعضهما البعض، فكل منهما مكمل للآخر يقول محمد الخباز: "من الصعب فصل الآخر كمفهوم في تعريفه من مفهوم الذات ذلك أنهما دائرتان متداخلتان جدا، و هذا التداخل راجع في أساسه إلى أن المفهومين يساهمان في تكوين بعضهما البعض، أي أن التداخل ناتج من طبيعة التعلق بكل منهما، إنهما يلدان بعضهما البعض و ينميان بعضهما البعض، فبقدر ما يتضح مفهوم الذات و ترسم حدوده فإن مفهوم الآخر في الجهة المقابلة تتضح بنفس المقدار و ترسم حدوده" ².

تعتبر الصورة لغة ثانية فهي تحمل كل سمات اللغة، إذ أنها " تعبير عن شيء معين ضمن وحدات متميزة، كل واحدة منها هي إشارة و مرجع بالنسبة لكل أعضاء الجماعة البشرية الواحدة" ³، إذا يمكن أن نقول أن وظيفة الصورة هي التعبير عن العلاقات القائمة بين كل الشعوب، و ثقافتهم المختلفة، و هي في معظمها علاقات معقدة مضطربة بين المجتمع الناظر و المجتمع المنظور إليه ⁴. و بهذا تصبح الصورة " فعلا ثقافيا و ممارسة إنسانية لها وظيفتها و مكانتها في عالم الرموز الذي سمي هنا مخيالا" ⁵.

إن علم الصورة يتقاطع مع العديد من البحوث التي يقوم بها علماء السلالات البشرية و علماء الاجتماع، و مؤرخو العقلية، الذين يهتمون بمعالجة قضية الهوية و الغيرية، لذلك يجب على كل مقارن أن يأخذ بعين الاعتبار التساؤلات التي يمارسها باحثون متقاربون في

¹. كاظم نادر ، تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، نقلا عن بهاء طاهر ، المرجع نفسه، ص 35.

². الخباز محمد، صورة الآخر في شعر المتنبي، نقلا عن بهاء طاهر، المرجع نفسه، ص 35.

³. دانييل هنري باجو، ترجمة غسان السيد، الأدب العام المقارن، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، 1997م، ص 92.

⁴. ينظر المرجع نفسه، ص 93.

⁵. أمينة سوفلان، المرجع السابق ص 18.

الحقول المعرفية، و هذا ليس بغرض الإبتعاد عن الدراسة الأدبية و إنما لمقابلة و مقارنة طرائقه ومناهجه بطرائق و مناهج أخرى، و يكون ذلك مثلا بمقابلة الصورة الأدبية بشهادات أخرى موازية و معاصرة للنص الأدبي (الإعلام، السينما، الفنون) ¹.

إنّ الأمر إذن مرتبط بإدماج التأمل الأدبي ضمن تحليل عام يعنى بثقافة أو ثقافات عديدة تعود لمجتمعات معينة²، و من هنا فالصورة الأدبية هي " عبارة عن مجموعة من الأفكار حول الأجنبي صيغت أدبيا Littérisation و إجتماعيا Socialisation"،³ و هذا ما يجبر الباحث المقارن على الإهتمام بالنصوص الأدبية، و الأهم من ذلك معرفة شروط إبداعها و توزيعها، و كل أداة ثقافية إستعملت في الكتابة و التفكير أو حتى الحلم⁴، و بذلك تصبح الصورة " أداة كاشفة للكيفية التي تشغل بها الإيديولوجيا، و لا يعني هذا طبعا إنكار خصوصية الحدث الأدبي"⁵.

¹. ينظر رعاش مبخوتة، صورة الجزائر في روايات ألبير كامو، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر 2007، 2008م، ص 20.

². ينظر هنري باجو، المرجع السابق، ص 90 .

³. رعاش مبخوتة، المرجع السابق، ص 20.

⁴. ينظر هنري باجو، المرجع السابق، ص 90.

⁵. رعاش مبخوتة، المرجع السابق، ص 20.

2- أنواع الصورة :

ينتمي موضوع الصورة الأدبية إلى الدراسات الأدبية المقارنة، و هي من أحدث المواضيع و الدراسات في الأدب المقارن، و يمكن تقسيمها إلى قسمين أساسيين:

الأول: صورة شعب في أدبه: و هذا الصنف من الدراسات لا يتجاوز إطار قوميته و لغته، بل هدفه الوحيد هو البحث في فنيات الأديب في طرق موضوعة بالوصف و التحليل، مثل صورة المرأة المصرية في روايات نجيب محفوظ.

الثاني: صورة شعب في أدب شعب آخر: يعتمد هذا النوع من الموضوعات على إختلاف الإطار اللغوي و الاجتماعي و الثقافي¹، كما يتطلب هذا النوع وجود نسبة من الإهتمام المشترك بين شعبين، حتى يكون أحدهم صورة في أدبه عن شعب آخر فالأمم " لا تهتم إلا بالشعوب المجاورة لها أو التي تشترك معها في مسألة، أو أن يكون لها معها مصالح إقتصادية أو تريد كسب ودّها أو تخشى بأسها".² فاهتمام شعب بآخر، يتيح الفرصة للشعب المهتم بالتقاط معلومات عن الشعب المهتم به، و تلك المعلومات هي التي تساعد في تكوين صورة عن ذلك الشعب.³

إن ظاهرة التأثير و التأثير المتبادلة بين شعبين مختلفين عامل ضروري و مهم لتشكيل تلك الصور، لأن التأثير هو العمود الفقري في هذا النوع من الدراسات⁴.

¹. ينظر عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، د.ت. ص 61، 62.

². المرجع نفسه، ص 68.

³. ينظر المرجع نفسه ص 68.

⁴. ينظر المرجع نفسه، ص 69.

يرى البعض أن هناك فرق بين دراسة صورة شعب من الشعوب في أدبه القومي " صورة الأنا"، و بين ذلك الشعب المتناول في الآداب الأجنبية "صورة الآخر"، و قد ردّوا هذا الاختلاف إلى أسباب أهمها:

1. أن الأديب الذي يقوم بتصوير شعبه و المجتمع الذي نشأ فيه لديه معرفة عميقة و شاملة بالمجتمع الذي يصوّره، و هذا ما جعل الصورة المرسومة في أدبه غنية و تفصيلية، فصورة " الأنا" هنا مؤسسة على تجارب و خبرات غنية قام بها الأديب، و هذا على عكس الصورة التي يقدمها أديب ما لشعب أجنبي لا يدري عنه شيئاً " أهل مكة أدرى بشعابها"¹.

2. إذا كان الأديب من صلب ذلك المجتمع فهو مرتبط به ماديا و إجتماعيا و نفسيا و أخلاقيا، و الذي نعرفه جيدا أن الأديب الحق حريص على حمل هموم مجتمعه و معالجتها، لأن ذلك المجتمع يمثل ذاكرة الماضي و تطلعات المستقبل، و عليه فإن الصورة التي سيقدمها عنه تكون منطقيا مطبوعة بطابع العلاقة الإجتماعية و النفسية و الأخلاقية التي تشكل هويته. و قد نجد بعض الأدباء من يرسم صورة سلبية لمجتمع رغبة منه في إصلاحه و تغييره نحو الأفضل و ليس للإساءة إلى مجتمعه أو هدمه، و هذا ما لا نجده عند أديب لا تربطه بمجتمع ما علاقة توحد قومي.²

3. إن الصورة التي يرسمها الأديب لمجتمع أجنبي لا تعبّر عن هموم ذلك المجتمع و مشاكله، فالأديب هنا يكون آخر همه هو مشاكل شعب آخر، و إنما تعبّر أولا عن مشكلات الأديب نفسه و مشكلات قومه في مواجهة الآخر.³

¹. ينظر ماجدة حمود ، المرجع السابق، ص 111.

². ينظر المرجع نفسه ص 111.

³. ينظر المرجع نفسه، ص 112.

و حتى تستطيع الشعوب تكوين صور لبعضها البعض لابد لها من وسائل مساعدة من بينها:

أ. الرحلات أو الأسفار: فالأديب عندما يسافر إلى بلد أجنبي يكون على صلة مباشرة بذلك المجتمع، فيستطيع أن يكون و يرسم صورة عنه، فكثيرا من الأدباء سافروا و عندما عادوا حملوا معهم أخبار و نوادر و إنطباعات ذلك المجتمع الأجنبي، و عملوا فيما بعد على ترقية و تحسين أوضاع وطنهم، و من بين هؤلاء الأدباء مثلا "رفاعة الطهطاوي"، و "يوسف إدريسي"، كما نجد "أندري جيد" الذي زار بلدان شمال إفريقيا، و يعتبر كتابه " الأغذية الأرضية" دعوة إلى السياحة و التجوال، و نجد أيضا "أرنست همنغواي" الذي جال مختلف البلدان، حتى وصل إلى أدغال إفريقيا.¹

ب. الكتب: تعد الكتب وسيلة هامة من وسائل الإتصال بين الشعوب، فالصورة التي يرسمها الأديب للبلد الأجنبي لا تعني أن له معرفة مباشرة به، بل كثيرا ما ترجع تلك الصورة إلى مطالعات الأديب أو أحاديث سمعها حوله، فكثير من الأدباء قدموا صورة لبلد أجنبي دون أن تطأ أقدامهم ذلك البلد و نجد منهم، الأديب الألماني "غوته" الذي عرف و صور الشرق من خلال مطالعته لكتاب " ألف ليلة و ليلة"، و من "القرآن الكريم"²، كما نجد أيضا الكاتب الألماني الشهير "كارل ماي" صاحب قصص المغامرات، يقدم في رواياته لليافعين صورة مليئة بالغرائبية لشعوب الشرق، و قد استند في نسجه لتلك الصور إلى المطالعة و الخيال الواسع، و ليس إلى المعرفة المباشرة بذلك البلد³، كما يمكن أن نعتبر السينما إحدى هذه الوسائل الهامة، فالأفلام الأمريكية و الإنجليزية و الفرنسية و المصرية و الهندية أصبحت تعرض في الكثير من الدول، و في هذه الأفلام نجد وصفا لمناظر طبيعية تخص بلدا ما،

¹. ينظر عبد المجيد حنون، المرجع السابق ص 76، 77.

². ينظر ماجدة حمود، المرجع السابق، ص 112.

³. ينظر المرجع نفسه، ص 112.

كما نجد أبطالاً لهذا الفيلم الذي يمثلون نماذج بشرية خاصة ببلد معين، و هذا كله يستطيع أن يكون لنا في الأخير فكرة أو صورة و لو جزئية عن ذلك البلد المراد معرفته.¹

ت. الحروب: لقد كانت الحروب قديماً من أهم الوسائل المساعدة في تكوين صورة الشعوب لبعضها البعض، و ذلك رغم بشاعتها و فضاقتها، فمثلاً الجزائريون الذين شاركوا في الحربين العالميتين نقلوا و حكو كل ما رأوه عن فرنسا و إيطاليا و ألمانيا، و عندما جندتهم فرنسا لمحاربة الفيتناميين حكو عن الهند الصينية و أدغالها، فمن خلال هذه الحروب البشعة استطاع الشعب الجزائري أن يكون صورة عن شعوب أخرى، كما أن هناك وسيلة أخرى دامغة و قوية، و هي أقوى من كل الوسائل التي ذكرناها و هي: " فرض الوجود" و ذلك مثلما قامت به فرنسا في المغرب العربي، حيث نهبته نهبا، و شردت أهله، و فرضت نفسها عليهم بالقوة، و بذلك فالصورة التي كونوها عن فرنسا كانت نتيجة الإحتكاك اليومي و المعاشية و التجربة و "أغلب الظن أن الصورة المبنية على المعاشية و التجربة و الممارسة أشمل و أوضح و أقرب إلى الواقع لأن الشعب المتأثر يتحدث عن تجربة معاشة مارسها زمنا مهما تكن ظروفها الخاصة بها".²

كانت هذه إذاً أهم الوسائل المساعدة في تكوين صور الشعوب عن بعضها البعض لكن السؤال الذي طرح و مازال مطروحا هو ما مدى صدق الصورة في تمثيلها للشعوب أو في تمثيلها للواقع؟ .

إن لكل إنسان صورة أو فكرة معينة حول غيره، و لكل أمة صورة عن الأمم الأخرى، فقد تكون هذه الصور قريبة من الواقع و قد تكون بعيدة كل البعد عن الواقع و هي من نسج الخيال فقط، و هذا البعد هو الذي سبب لها إشكالا حول مصداقيتها، خاصة و أنها تعدّ مصدرا من مصادر المعرفة، قد تكون هذه المعرفة صحيحة و قد تكون خاطئة، و لذلك فليس غريبا أن يعرف مفهوم علم الصورة في العصر الحديث " أنه إصطلاح ظهر في

¹. ينظر عبد المجيد حنون، المرجع السابق، ص 77 .

². المرجع نفسه، ص 78.

الأدب المقارن، يشير إلى دراسة صورة شعب عند آخر باعتبارها صورة خاطئة..... أو هو حقل لدراسة تكوّن الصورة الخاطئة في شهادات أدب الرحلات"،¹ و ما يجعل هذه الصور خاطئة هو تدخل وطغيان العناصر الذاتية و العاطفية في صياغة صورة الآخر و تلوينها، و ابتعادها عن الحقائق الموضوعية، و هذا ما جعل الشعوب المصورة نادرا ما ترضى عن الصورة المقدمة عنها.²

تقول سيلفان ماراندون: " أن أي شعب لا يمكن أن يرى الشعب الآخر كما هو في الواقع لأن هناك فارق بين الصورة و الواقع"³.

و يذكر بيار ماشري في كتابه «Pour une théorie de la production littéraire»، أن " إنعكاس الصورة لا يتم أبدا كالصورة الفوتوغرافية، و إنما الصورة صورة لمنظور مكوّن في إطار رؤية العالم مرتبطة بإيديولوجية الكاتب و ذاتيته في النهاية"،⁴ و من ثم فلا توجد أبدا صورة تعكس الواقع، و يقول باجو في ذلك " لإعداد صورة الأجنبي لم ينقل الكاتب الواقع، بل إنتقى بعض العناصر التي وجدها مناسبة لتمثيل الأجنبي".⁵

إن مطابقة الصورة للواقع كما هو أمر مستحيل و هذا يرجع لأسباب كثيرة ردّها الباحث عبد المجيد حنون الى :

أ. **عدم ثبات الصورة:** من المعروف أنّ الإنسان دائم التغير، فقد إعتاد على تغيير شكله وفق ما يتناسب مع نمط الحياة و الموضة، فهو يغير ملابسه و طريقته في الحياة اليومية، كما يتغير كذلك في باطنه، و ذلك من خلال إيمانه و تسليمه بأفكار و معتقدات جديدة و تخليه عن أفكار أخرى، فالإنسان كائن غير جامد معروف بحركته و نشاطه و تطوره، و

¹. مصطفى فاسي، البطل المغترب في الرواية العربية، موفم للنشر، الجزائر د.ط، 2008م، ص 46.

². ينظر المرجع نفسه ص 46.

³. سيلفان ماراندون صورة فرنسا في مخيلة الانجليز، نقلا عن رعاش مبخوثة، المرجع السابق، ص 21.

⁴. بيار ماشري، نقلا عن المرجع نفسه، ص 21.

⁵. هنري باجو، نقلا عن المرجع نفسه، ص 21.

هذا التطور هو الذي يحدث تغييرا في حياته، و بطبيعة الحال إذا تغير شخص واحد فالشعب كله يتغير.¹

ب. **إختلاف وجهة النظر:** لكل إنسان وجهة نظر، و هي تختلف من شخص لآخر، و ذلك حسب المزاج و المستوى الفكري و المادي و الاجتماعي، فإذا نظر مثلا شخصان إلى شيء واحد فلا بد من وجود بعض الاختلاف بينهما لأنّ نظرتهما إلى الحياة مختلفة، فإذا كان هذا الإختلاف بين شخصين نظرا إلى شيء واحد فما بالك بالاختلافات التي ستكون بين مجموعة أشخاص تنظر إلى شعب بأكمله.²

إذن إن تمثيل حقيقة شعب ما أمر مستحيل و هذا ما أكده لنا "ماريوس فرنسوا غويار" حين قال: " إن البحث عن مطابقة صورة شعب بالواقع ذلك الشعب و حقيقته أمر مستحيل، و كلما إتسعت المجموعة زاد خطر التجريد لدى من يحاول ضبط الصورة".³

إنّ عدم الوصول إلى حقيقة شعب ما من خلال الصورة المكوّنة له، لا يعني خلو تلك الصورة تماما من أي عنصر حقيقي، فالخيال ينطلق دائما من واقع ما، و كل صورة خيالية تستند إلى القليل من الواقعية، " فالعقل البشري يلتقط أشياء من واقعه المعاش أو المسموع أو المرئي، ثم يحلل ذلك الواقع إلى جزئيات، تلك الجزئيات يعيد بنائها و تركيبها من خلال نظرة معينة، و بذلك يأتي بشيء جديد شيء غير مطابق للواقع، و غير منفصل عنه تماما".⁴

و خلاصة القول إن عدم مطابقة الصورة للواقع لا يعني عدم مصداقية الصورة، بل صدق الصورة يكمن في دقتها، في تعبير الأديب عن أحاسيسه و تصوراته نحو موضوع

¹. ينظر عبد المجيد حنون، المرجع السابق، ص 79، 80.

². ينظر المرجع نفسه، ص 80.

³. ماريوس فرونسوا غويار ، نقلا عن رعاش مبخوتة، المرجع السابق، ص 21.

⁴. عبد المجيد حنون، المرجع السابق، ص 80.

الصورة بأسلوب لا يخلو من التأثير و صدق المشاعر، فمقياس مصداقية الصورة هو صدق التعبير عن الأحاسيس لا المطابقة الدقيقة للواقع.¹

3/ مكونات الصورة:

أ. النمط: يعتبر النمط أحد العناصر الأولية و الأساسية المكونة للصورة الأدبية، فهو يشكل جزءا هاما من بنيتها، إذ تكمن فائدته في أنه يقدم عددا قليلا من المعلومات من أجل إتصال أشمل و أوسع،² فهو إذا " شكل موجز و ملخص لتعبير شعاري عن ثقافة أو نظام إيديولوجي، يطرح للمعارضة و يثبت أنه إضمار للروح و التفكير العقلاني، مما يستبعد كل مقارنة نقدية من شأنها تطوير العلاقات الإيجابية بين الشعوب و المجتمعات"³. أو هو " تعبير ثقافي مبسط أي مسطح دون عمق يحمل دائما صورة ثابتة عن الآخر تكون إيجابية أو سلبية"⁴.

تظهر الصورة النمطية بكثرة في النصوص الأدبية حول الأجنبي و غالبا في مستوى الوصف، فإذا عدنا مثلا إلى الصور المخترنة في الذاكرة الشعبية للعرب عن الغرب نجد صفات لم تتغير مثل الكفر، و الإنحلال الأخلاقي و شرب الكحول، بينما الصورة التي رسخت في ذهن الغربي عن العرب و الإسلام هي صورة الصحراء و الجمل، و الجهل و التخلف.⁵ و من هنا يمكن القول أن النمط هو دليل على ثقافة متجمدة ضعيفة تكرارية⁶، فعلى الرغم من سهولة التواصل و الإنتقال في العصر الحديث، فهذه الصور الذهنية لم تتجدد بل بقيت مخزنة كما هي، و لعل هذا راجع إلى الحروب التي منعت الشعوب من التواصل مع شعوب أخرى بشكل صحيح، فتشكلت الصورة النمطية المشوهة، و صارت

¹. ينظر المرجع نفسه، ص 81.

². ينظر هنري باجو، ترجمة غسان السيد، المرجع السابق ص 95.

³. أمينة سوفلان، المرجع السابق، ص 20.

⁴. عيسى عطاشي، صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2005م، ص 36.

⁵. ينظر د. غسان السيد، صورة الغرب في الأدب العربي، المرجع السابق، ص 90.

⁶. ينظر هنري باجو، المرجع السابق ص 96.

وسما في ذاكرة الشعب¹. كما أن البعض يردّ سبب بروز الصور النمطية بكثرة إلى إضطرار الإنسان إلى وضع الأحداث و الأفكار في تصنيف جاهز مسبقاً، و هذا راجع إلى ضغط الوقت و اتساع العالم، و كثرة المعلومات، و في ذلك يقول ليبمان: " كبر العالم، و عجز الإنسان عن الإحاطة بمحتوياته، و تكوين أفكار دقيقة مسوغ يدفع كل فرد منا لشرح خبرته و يفسرها في ضوء تجاربه الماضية".²

لم تقصر وسائل الإعلام في تزيف بعض الحقائق و التعتيم على بعض الأفكار و ذلك حتى تتطابق مع الصور المخزنة في الذاكرة و تتوافق مع سياستها المنتهجة،³ و هذا ما نلاحظه في الوقت الحالي مع السياسة الأمريكية التي استطاعت أن تزرع صورة نمطية في عقول الأمريكيين قوامها أن المسلمين إرهاب، و من هنا نمت صورة سلبية مشوّهة عن الإسلام، مثلما تنمو الفطور و تتكاثر بشكل مرضي، فتمسك الأمريكيون بهذه الصورة أو الفكرة على أنها الأصل، و رفضوا تغييرها، و بقيت هذه الصورة إلى يومنا هذا، خاصة في الأحداث الأخيرة التي كانت في فرنسا.⁴

إذن من خلال كل هذا نستنتج أن شيوع النمط في الصورة الأدبية يجعلها بعيدة كل البعد عن التجدد و التغير، فهي صورة أولى و أخيرة للآخر، أي جامدة، تصلح لكل زمان دون أن يطرأ عليها أي تغيير و هذا ما يفسح المجال لتشويهها.⁵

يتميز باجو بين ثلاث عناصر أساسية مكوّنة للصورة هي: "الكلمة، العلاقة التراتبية أو الطبقية، السيناريو".

¹. ينظر د. غسان السيد، صورة الغرب في الأدب العربي، المرجع السابق، ص 90.

². المرجع نفسه، ص 91.

⁴. ينظر المرجع نفسه، ص 92.

⁵. ينظر ماجدة حمود، المرجع السابق، ص 115.

ب. الكلمة:

تشكل الكلمة عنصرا هاما من عناصر الصورة، فهي تعتبر مفتاحا أوليا للتعبير و تكوين صورة عن الآخر و لذلك يجب علينا " أن نجمع مخزوننا واسعا من الكلمات التي تسمح في عصر و ثقافة معينين بالنشر الفوري لصورة الآخر"¹ و بفضل هذا الكلمات أو الحقول المعجمية تتكون مفاهيم و مشاعر متشابهة من حيث المبدأ مع الكاتب و جمهوره القارئ،² و لذلك ينبغي على الباحث أن يميز بين الكلمات الأساسية أو الأصلية و بين الكلمات المبتكرة أو الخيالية، و بين منظومتين معجميتين هما:

الأولى: كلمات نابعة من لغة البلد الناظر، و بها نستطيع تحديد و وصف البلد المنظور إليه، و **الثانية** هي كلمات مأخوذة من لغة البلد المنظور إليه، و نقلت دون ترجمة إلى لغة البلد الناظر.³

ت. العلاقة التراتبية:

حتى يتمكن الباحث من تحليل النص الصوري تحليلًا دقيقًا و معرفة طبيعة العلاقة الموجودة بين "الأنا" و "الآخر" في ذلك النص، لابد له من عزل العناصر التي يتركب منها النص الصوري، و دراسة كل واحد منها على حدى، و أول عنصر يقف عنده الباحث هو دراسة الكلمات و المفردات المتحركة في النص الصوري و علاقتها ببعضها البعض ثم ربطها بسياق النص كله، لأن كل من هذه الكلمات تعنى بمشهد معين و تعبر عن موضوع معين، و لذلك وجب على الباحث هنا إتباع المنهج البنوي الذي يهتم بوظائف الكلمات ومدى تقديمها للمعاني وتبدأ هنا "عملية تفكيك النص الصوري إلى وحدات جزئية من أجل معرفة العلاقات التي تربط "الأنا" " بالآخر"، و كيف تتحول هذه الأخيرة إلى شعور

¹. ينظر هنري باجو، المرجع السابق، ص 97.

². ينظر ماجدة حمودة، المرجع السابق ص 114-115.

³. ينظر أمينة سوفلان، المرجع السابق، ص 21.

موجه¹، و تهدف دراسة العلاقات الموجودة بين "الأنا" و "الآخر" إلى إستخراج التقابلات الموجودة بين الثقافتين، و تحديد موضع كل منهما في حركية النص و نظامه، و بالتالي " تفسر العلاقات التي تحكم " الأنا" و "الآخر" و المرتبة الإجتماعية و الثقافية التي يحتلها هذا الآخر، "كالحالة الاجتماعية، الانتماء الحضاري، المستوى الثقافي، المظهر الفيزيولوجي".² عندما يصل الباحث إلى هذا المستوى من التحليل، يستطيع تحديد الإطارين الفضائي و الزماني لكلا الطرفين (الآنا و الآخر)، و لا يعني بهذا الإطار مجرد الوصف الخارجي، بل هو جزء من عناصر سردية متشابكة " الشخصيات، الراوي"،³ لذلك وجب على الباحث فهم هذه المسارات السردية التي يسلكها الحيزان الزماني و المكاني في النص و هذا " من أجل وضع إتصال دائم مع نظام الشخصيات، و الراوي"،⁴ كما عليه أن يركز إنتباهه على الإشارات التاريخية (التواريخ، الأحداث، الحقب الزمنية) التي تساعده في إعطاء صورة دقيقة للأجنبي⁵. و كثيرا ما يغيب الزمن الحقيقي في النصوص التي تصور الأجنبي فيعاد خلق زمن أسطوري، و لذلك وجب على الباحث أن يكون حذرا إزاء كل ما يبدو أسطورة للزمن التاريخي و السردية⁶.

ث. السيناريو:

يلعب السيناريو دورا هاما في توضيح صورة الآخر، خاصة إذا استفاد الباحث من علم الدلالة " الذي هو حقل معرفي يدرس حياة الرموز ضمن الحياة الإجتماعية، كما يدرس تطور التواصل بين الأمم"⁷، فالمظاهر الثقافية و الإجتماعية الموظفة في النصوص التصويرية تعتبر عناصر مهمة جدا، لأنها سمات مميزة لكلا الثقافتين، و بفضلها يتمكن

¹. أمينة سوفلان، المرجع السابق، ص 22، 23.

². المرجع نفسه، ص 23.

³. ينظر ماجدة حمود، المرجع السابق، ص 116.

⁴. أمينة سوفلان، المرجع السابق، ص 23.

⁵. ينظر ماجدة حمودة، المرجع السابق، ص 117.

⁶. ينظر أمينة سوفلان، المرجع السابق، ص 23.

⁷. ماجدة حمودة، المرجع السابق، ص 117.

الباحث من إستخلاص أهم القيم الجمالية أو السلبية لكليهما و من هنا " تنتقل العلاقة بين "الآنا" و "الآخر" من مجرد كونها تراتبية إلى حوار بين منظومتين ثقافيتين و يخلق هنا ما يسمى السيناريو داخل النص"¹.

4/ الهدف من دراسة الصورة:

يحتل علم الصورة اليوم مكانة هامة في الأدب المقارن، و ذلك للدور الهام و الفعال الذي بات يلعبه، فهو شكل من أشكال الحوار المثمر الذي يساعد الشعوب في التعرف و التقارب مع بعضها البعض، يقول غويار في ذلك: " إنّ دراسة الصورة تعلم الشعوب التعرف أكثر بمعرفة أوهامها حول بعضها البعض"²، كما أنها تهدف إلى تطهير عقلية الجماعة من بعض الأحكام المسبقة، يقول كلود بيشوا و أندري روسو: " مثل هذه الدراسة- إذا درست بعقل نقدي متسامح- يمكن أن تساعد شعبين على تحليل نفسيتهما بمعرفة مصدر أحكامها المسبقة نحو بعضها البعض، و بذلك سيتعرف كل واحد على نفسيته أكثر و سيحتاط أكثر في الحكم على الآخر"³.

إذن إنّ دراسة صور الشعوب تساعد على فهم العقليات، و لعل أهم ميزة تتميز بها هذه الدراسة هي أنها تعطي لكل أمة فرصة رؤية نفسها في مرآة الآخر، و هذا حتى تتمكن من معرفة مكانتها عند الشعوب الأخرى و تعمل على تصحيح و تحسين صورتها المشوهة و توعية مصورها.⁴

¹. أمينة سوفلان، المرجع السابق، ص 24.

². ماريوس غويار، الأدب المقارن، نقلا عن عبد المجيد حنون المرجع السابق، ص 75.

³. كلود بيشوا و روسو ، الأدب المقارن، نقلا عن عبد المجيد حنون المرجع السابق، ص 75.

⁴. ينظر زبير دراقي، محاضرات في الأدب المقارن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، د.ت ص 43.

يقول لهجومري عبد الجليل: " إنَّ دراسة الصورة تؤدي إلى توعية الشعب المتصور بما يحمل من أوهام تشوب معرفته بحاضره المعيش و بأحداث الآخر الذي يتصوره".¹

5/ المشاكل المنهجية:

إنَّ عدم وجود منهج محدد لدراسة الصورة الأدبية، سبَّب مشاكل منهجية كثيرة للباحث، فحتى يرصد الباحث صورة شعب في أدب شعب آخر لابد له من منهج و خطوات ثابتة يعتمد عليها، لكن غياب المنهج في هذه الدراسة « Imagologie » جعل الباحث يمتنع عنها، لأن كل ما هناك هو مجرد جماعات تعمل بإستمرار على تحسين وسائلها في هذه الدراسة، و قد أكد لهجومري عبد الجليل: "أنه لا توجد طريقة علمية ثابتة، لأن كل صورة و كل شعب و كل فترة معينة تقتضي منهجية خاصة"،² أما سيلفان ماراندون فأكدت " أن طريقة العمل في مثل هذه الدراسة تقوم على منهج تحليل المحتوى مع الإعتماد على الإحصاء".³

أما هنري باجو فيري أن المنهج الذي تقوم عليه هذه الدراسة يتلخص في النقاط التالية: " إحصاء و تحليل كل الخطابات عن الآخر تحليلا تعاقبيا و تزامنيا، و إدماج المعطيات التاريخية و الاجتماعية، و المعطيات التي تنظم العلاقات بين الثقافات تدريجيا، و هذا يعني التركيب مع الارتباط بالنصوص أكثر من البحث عن التساؤلات الاجتماعية و الثقافية، و أخيرا مواجهة النتائج بالتحاليل التي أجريت على نفس المواضيع من طرق الباحثين في العلوم الاجتماعية و الانسانية".⁴

¹. لهجومري عبد الجليل ، صورة المغرب في الأدب الفرنسي، نقلا عن رعاش مبخوتة، المرجع السابق ص 25.

². ². لهجومري عبد الجليل، و سيلفان ماراندون، نقلا عن زهرة مزوني، صورة اليهودي في الشعر العربي، رسالة ماجستير، الجزائر 2000-2001م، ص 7.

⁴. المرجع نفسه، ص 7 - 8.

الفصل الأول

الصراع بين الشرق و الغرب و العلاقة بينهما

المبحث الأول: إرتباط و تفاعل عدائي بين الشرق و الغرب

المطلب الأول: مفهوم الشرق و الغرب و العلاقة بينهما

المطلب الثاني: الحروب الصليبية

المطلب الثالث: المرأة الأوروبية في المجتمع الصليبي

المبحث الثاني: إرتباط و تفاعل ثقافي بين الشرق و الغرب

المطلب الأول: الإستشراق

المطلب الثاني: الحملة الفرنسية و دورها في النهضة العربية .

المبحث الأول: إرتباط و تفاعل عدائي بين الشرق و الغرب

المطلب الأول: مفهوم الشرق و الغرب و العلاقة بينهما

قبل الولوج الى العلاقة التصادمية بين الشرق و الغرب ، اود ان اعرج اولا على مفهوم هاذين المصطلحين لاحدهما بدقة ، و ذلك لما يعتريهما من غموض و ضبابية و شساعة تجعل تحديد مفهومهما صعبا و شائكا ، خاصة و أن الباحثين إختلفوا في تحديدهما ، فهناك من يرى أن التحديد يكون على المستوى الجغرافي ، و هناك من أشار الى أن التحديد يكون على المستوى الثقافي ، أما البعض الآخر فيرى أن تحديد هذا المصطلح يكون حسب خصائص و ميزات كل منهما¹ ، فماذا نعني بمصطلحي الشرق و الغرب يا ترى؟.

يرى الاوروبيون ان كلمة "orient" تدل على كل " ما يقع في اتجاه الشرق"² لأن الشرق هو مركز الإشعاع الذي تسطع و تشرق منه الشمس خلال سنة كاملة³ يقال " أشرقت الشمس طلعت و أضاءت، و المشرق هو مكان شروق الشمس و جمعها مشارق ، و المشرق و المشرق هو موضع القعود في الشمس بالشتاء،

¹ ينظر جمال مباركي ، الغرب في الرواية العربية الحديثة ، رسالة دكتوراه العلوم ، باتنة 2008 - 2009م ص 11 .

² - ياروسلاف سيزار و جوزيف ترجمة د.جوزيف نسيم يوسف دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب د.ط.د.ت.ص138.

³ - ينظر جمعة طيبي صورة المرأة الغربية في الرواية الجزائرية، رسالة دكتوراه العلوم العلوم الجزائر 2015-2016م

و الشرقي هو المنسوب إلى الشرق من الإنسان و الحيوان و سائر الأشياء و كل مكان في جهة الشرق"¹ و أثناء إتصال الشرق بأروبا في الحروب الصليبية سمي المسلمون بالشرقيين، و حددوا الشرق العربي بالبلاد العربية التي تمتد حدودها من مصر إلى إيران، و قد يزداد الشرق توسعا حسب رأي أحمد أمين ليشمل الهند و الصين و اليابان و الإتحاد السوفياتي و إيران و العالم العربي و مصر، أما الغرب فيشمل كلا من أروبا و أمريكا².

إن الجهود التي بذلها الباحثون في تحديدهم لمفهوم الشرق و الغرب تحديدا جغرافيا، هي جهود قيمة، لكن تحديدهم هذا يبقى تحديدا نسبيا، لأنه ليس بالضرورة أن نعتبر الأماكن الموجودة في الشرق شرقا فقط، بل العكس هناك بعض المناطق موجودة في الشرق و نعتبرها غربا و الأمر نفسه بالنسبة لأروبا هناك بعض المناطق نعتبرها شرقا، و بناء على ذلك فالتحديد الجغرافي ليس مقياسا صحيحا كل الصحة للحكم على المناطق بأنها تنتمي إلى الشرق أو الغرب، لذلك فضل بعض الباحثين الإعتماد على مقياس آخر هو " الزمن "، أي " التحديد الزمني"³، و قد ميزوا بين الشرق و الغرب على أساس أن: " الغرب يدل على معنى المدنية الحديثة بأساليبها الخاصة، كالإعتماد على العلم في كل مرفق من مرافق الحياة من تربية و زراعية و

¹ - بطرس البستاني، قطر المحيط، قاموس لغوي ميسر، أطلس البلاد العربية و القارات، مكتبة ناشيون، ط2، 1995، ص 290.

² -ينظر جمال مباركي، المرجع السابق، ص12 .

³ -ينظر المرجع نفسه ، ص 12.

صناعة و إقتصاد و نحو ذلك، و يقابل هذه المدنات غير الحديثة من مدينة مصرية و رومانية و عربية و غير ذلك، فالعنصر الأساسي في التقسيم هو الزمن"¹.

أما أحمد أمين فيميز بين الشرق و الغرب حسب الخصائص " فالغرب يختص بالتقدم الميكانيكي، و الحركات الصناعية و الديمقراطية، و تلون أدبه و فنه بلون خاص، لون عملي أكثر منه نظرياً، و تقدير النساء و منحهن كثيراً من الحرية، والشرق يتصف بالتواكل و الخضوع للإستبداد، و التقليل من حرية النساء، و كثرة الإعتقاد بالخرافات و نحو ذلك"²، و هذا ليس رأي أحمد أمين فقط، بل حتى الغرب يرى أن الشرق شعب مقهور مظلوم يرضى بالذل الذي يفرضه عليه حكامه، و لعل رضوخ الشرق المستمر هو ما أدى به إلى التخلف و الهمجية فأصبح ينعت بالأمة الشرقية الهمجية.³

إن التحديد الذي إعتده أحمد أمين هو تحديد نسبي، لأنه إبتعد فيه كل البعد عن الموضوعية ، فلم يجد صفة دونية إلا و ألصقها بالشرق، و كأن كل المساوئ موجودة في الشرق، و كل المحاسن موجودة في الغرب، لذلك فإن هذا التحديد لا يعتد به كثيراً، و وجب التفكير في تحديد آخر يكون أكثر موضوعية، فمثلاً زكي نجيب محمود ميز بين هاذين المصطلحين على أساس الجانبين " المادي و الروحي " ، فهو

¹ - المرجع نفسه، ص 13.

² - المرجع نفسه، ص 13 .

³ - ينظر جمعة طيبي، المرجع السابق، ص 16.

يرى أن " نظرة الشرق إلى الوجود نظرة الفنان، في حين كانت نظرة الغرب إلى الوجود نظرة العالم، حتى لتستطيع أن تعد الشرق معرضا كبيرا من معارض الفن و أن تعد الغرب معملا كبيرا من معامل العلم، فما من شك في أن للشرق لون ثقافي واحد تتحدد فيه أقطاره جميعا و هو الروحانية التي ظهرت في أرضه دينا وفنا"¹.

إذا قلنا أن الشرق هو مركز الإشعاع الذي تسطع و تشرق منه الشمس، فإن الغرب هو الوجهة التي تغيب منها الشمس²، و " المغرب بكسر الراء على الأكثر هو مكان غروب الشمس و يقابله المشرق، نقول لقيته مغرب الشمس أي عند غروبها، وغرب فلان أي بعد و نزح عن الوطن و أغرب القوم أي أتبو الغرب"³، و قد ساهمت في تبلور مفهومه عوامل كثيرة منها عاملان أساسيا:

الأول: هو الكشوفات الجغرافية، فقد عدها " تزفتان تودوروف" عاملا قويا في تكوين هوية الغرب، حيث قال: " لا يوجد تاريخ أنسب لتمييز بداية العصر الحديث من عام 1492م، العام الذي عبر فيه كولومبوس المحيط الأطلسي"⁴.

أما العامل الثاني: الذي كون هوية الغرب و مقوماته، هو عامل الثورة الفكرية و الصناعية، و هو عامل رئيسي، إعتبره الكثيرون مبلورا هاما لمفهوم الغرب لأنه جعل

¹ - جمال مبارك، المرجع السابق، ص 13.

² - ينظر جمعة طيبي، المرجع السابق، ص 17.

³ - بطرس البستاني، المصدر السابق، ص 419.

⁴ - تزفتان تودوروف، فتح أمريكا و مسألة الآخر، تر بشير السباعي نقلا عن جمعة طيبي، المرجع السابق، ص 18.

من الغرب قوة و مصدرا للقارات الأخرى . و ها هو كمال عبد اللطيف يعرف الغرب بـ: " الغرب فضاء جغرافي مشحون بدلالة حضارية تسند إلى التراث الإغريقي الروماني المسيحي، ثم تراث النهضة الأوروبية، و مختلف مكتسبات الحضارة التي تولدت في قلب الجغرافيا الأوروبية منذ ما يزيد عن الأربعة قرون، ثم شملت قارات أخرى تعربت بفعل تاريخي قسري، تمثل في الهيمنة الامبريالية بمختلف النتائج التي ترتبت عنها"¹ و الغرب نوعان:

غرب قديم: إن تحديد اللحظة التي ولد و ظهر فيها مفهوم كل من الغرب و أوروبا أمر صعب و شائك يحتاج إلى دراسة متأنية و عميقة للتاريخ الأروبي الغربي، و قد إعترف عبد الله إبراهيم بذلك قائلا أنهما: " من تمخضات تلك الحقبة الطويلة والمتقلبة التي يصطلح عليها " العصر الوسيط " الحقبة التي طورت جملة من العناصر الإجتماعية و الدينية و السياسية و الثقافية، فاندمجت لتشكل " هوية " أوروبا، و بانتهاء تلك الحقبة، ظهر إلى العيان مفهوم " الغرب " بأبعاده الدلالية الأولية، و سرعان ما ركب من المفهومين المذكورين مفهوم جديد هو " أروبا الغربية ". هذا المفهوم ذو الدلالات المتموجة، لم يمتثل أبدا للمعنى الجغرافي الذي يوحي به ، فقد راهن منذ البدء على المقاصد الثقافية و السياسية و الدينية، و من ثم ثبت مجموعة

¹ - كمال عبد اللطيف، الإسلام و الغرب صعوبات الحوار، مجلة فكر و نقد، نقلا عن جمعة طيبي، المرجع السابق

من الصفات و الخصائص العرقية و الحضارية و الدينية على أنها ركائز قارة، تشكل أسس هويته"¹.

غرب حديث: بقيام الثورة الصناعية خطى الغرب خطوة جديدة كلها تألق و حداثة و سيادة، و كل هذه المؤهلات حفزته ليمارس سيادته على الدول الأقل قوة منه، دولا لا تملك إلا لقمة عيشها فلم يتردد في ممارسة كل أساليب القمع على هذه الدول، لأن مصالح و طبيعة الحياة الحديثة تتطلب ذلك، خاصة إذا رأى أن هذا الآخر سيكون عائقا على مستقبله لذلك " شحن الإحساس الغربي، بأكثر صور التعصب عنفا، تجاه الشرق، و بدأ الشرقي و بخاصة العربي يظهر في الخطاب العربي، كائنا ما كان نوعه بصور تخالف حقيقته، و لكنها تطبق ما يريد الغرب له"².

إن إنقسام العالم إلى شرق و غرب قضية تاريخية قديمة تعود جذورها إلى الحروب الميمنية بين الفرس و اليونان التي دامت آلاف السنين و مثلت الصراع المحتدم بين أوروبا و آسيا، فقد مثلت " إنتصار الذكاء و الحرية في الغرب على المادية و الاستبداد في الشرق"³، و في ذلك قال أيضا أندريه زيغفويد في 1943م: "في زمن حضارة اليونان الكبرى، كان مركز الكون يقع في جهة المتوسط الشرقي

¹ - عبد الله ابراهيم، المطابقة و الاختلاف، بحث في نقد المركزية الثقافية، دار الفارس للتوزيع و النشر، الأردن، ط 1، 2004م، ص 22 .

² - المرجع نفسه، ص 600.

³ - جمال مبارك، المرجع السابق، ص 19.

باتصال وثيق مع آسيا، لكن الغرب كان بادئاً بتمييزه عن الشرق، و الحضارة اليونانية كانت غريبة"¹.

لم ينته الصراع بين الشرق و الغرب بل مازال قائماً إلى يومنا هذا، و هذا بسبب أطماع أوروبا في الشرق و نواياها السيئة المضمرة تجاهه، فبعدما كان العالم منقسماً إلى شرق و غرب، زاد إنقسامه توسعه اليوم ليصبح غرباً متقدماً و شرقاً متأخراً، فالغرب يرى أن الشرق هو رمز التخلف و الإنحطاط، لكن هذا ليس صحيحاً، لأن الشرق هو المصدر الرئيسي الخفي للعلوم التي يحتكرها و يتباهى بها الغرب اليوم مدعياً أنها له بعد تعديلها و تطويرها، فتفوق على حسابنا لكن هذا التفوق لا أهمية له لأن كل ما توصل إليه الغرب من علم «الطب خاصة» موجود في القرآن الكريم " والحق يقال إن العلم العربي قد نشأ إستجابة لما يدعو إليه القرآن من وجوب معرفة الإنسان نفسه و الكون من حوله، و وجوب التدبر في كل أمر "².

للغرب هدف واحد ووحيد هو تشويه صورة الإسلام أو الآخر و التحريض ضد مبادئه، لذلك شرع الغرب " يرتب العالم حول مركز يشكل هو جوهره و كل من يبتعد عن المدار المتصل بذلك المركز، يكون قد هوى إلى الحضيض، لأنه فقد اتصاله بالمركز الذي يمنح الأشياء أهميتها، و البحث في شأن الآخر وجوداً و ثقافة، يتحول

¹ - اندريه زيغفويد نقلاً عن جمال مباركى ، المرجع السابق ص 19.

² - د. سالم المعوش، صورة الغرب في الرواية العربية، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، ط 1، 1998م، ص71.

بالنسبة للمركزية الغربية إلى نوع من البحث عن صدى تلك المركزية في الآخر،
فدراسة الآخر لا شأن لها بخصائصه الذاتية، إنما بإعادة إنتاج لمركزية الغرب، مقابل
تهميش الآخر¹.

إن المتتبع لتاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب يرى أن العلاقة بينهما هي علاقة
متشابكة يسودها التصادم و التصارع، فكل له منظومته الخاصة، و لو افترضنا و قلنا أن
فترة الإحتلال إنتهت و أصبح هناك حد للإصطدام بينهما سنكون مخطئين، لأن أساليب
الإستعمار الآن أصبحت مختلفة و حديثة تجاري العصر الحالي، و لعل هذا ما نلاحظه
اليوم،² و اذا أردنا أن نتعمق أكثر في تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب لن نجد أحسن
من عرض تاريخ الحروب الصليبية التي توضح العلاقة توضيحا جيدا.

¹ - عبد الله ابراهيم، المرجع السابق، ص 601.

² -ينظر عادل الجبوري، الاسلام و الغرب، قراءات معاصرة، دار النهضة للطباعة و النشر، ط 1، 2003م، ص 5، 6.

المطلب الثاني: الحروب الصليبية

تعتبر الحروب الصليبية تجربة من أخطر و أكبر التجارب التي مر بها المشرق العربي، فهي أول بصمة للعداء في تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب، و قد دام هذا العداء زمنا طويلا تسبب في خسائر كثيرة للبلدان العربية، فقد كانت هذه الحروب السبب الرئيسي في إنهيار البلدان العربية و ركودها لوقت طويل، و لعل سبب هذا الإنهيار راجع إلى إستغلال و إستنفاد التتين الصليبي للجهود الجبارة التي قامت بها البلدان العربية في الدفاع عن أملاكها و أراضيها، فقد إستخدمت كل مواردها مقابل النيل من ذلك التتين الصليبي الذي أراد الإستيلاء على بلاد الشرق و مواردها.¹ و لذلك فالسؤال الذي يتبادر إلى ذهننا هو ماذا نقصد بالحروب الصليبية؟، ماهي أسباب إندلاعها و قيامها؟ و ما هي نتائج نهايتها؟ .

لقد تعددت آراء المؤرخين حول مفهوم الحركة الصليبية، فكل مؤرخ كانت له وجهة نظر، فهناك من يرى أن الحروب الصليبية هي " حلقة من حلقات الصراع بين الشرق و الغرب، و هو الصراع التقليدي القديم الذي ظهر بوضوح في النزاع بين الفرس و اليونانيين، ثم بين الفرس و الروم"² ، و تجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الصراع لم يكن مرتبط بأي عامل ديني، و لذلك ربط هذا الصراع بالعامل الحضاري فعرف بأنه " مواجهة حضارية طويلة بين الشرق العربي الإسلامي و الغرب الأوروبي

¹ - ينظر سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، الجزء الأول، ط 1، 1963م، ص 3.

² - المرجع نفسه، ص 21.

الكاثوليكي، و قد بدأت هذه المواجهة في وقت كانت فيه الحضارة الاسلامية قد وصلت إلى أقصى مراحل نضجها و تطورها ثم بدأت تخبو و تخفت¹.

ان الصراع بين الشرق و الغرب كان و مازال كالبركان يخمد حينا و يثور أحيانا أخرى ويكون ثورانه و هيجانه قويا و عنيفا إذا تعلق الأمر بمسألة الدين "بين الإسلام والمسيحية"، هذه المسألة التي إتخذتها الحروب الصليبية فيما بعد دافعا لها في خلاف جديد، و من هنا أصبح للحروب الصليبية مفهوم آخر هو " ذلك الصراع الديني و السياسي الذي قادته البابوية لتحقيق أطماعها بالهيمنة على العالم الإسلامي، و نشر المسيحية، و السيطرة على بيت المقدس"².

فالحروب الصليبية هنا إذن ما هي إلا عملية " إستمرار لحركة الحج الجماعي إلى بيت المقدس، مع حدوث تطور في الأسلوب، و هو أن الحج الجماعي صار حربيا بعدما كان سلميا"³، و سمي المشاركون في الحملة الصليبية بالحجاج، و أطلق على الحركة الصليبية عبارة رحلة الحج أو الرحلة إلى الأرض المقدسة أو حملة الحج المسلحة،⁴ فعندما شعرت أوروبا ببعض القوة سعت جاهدة لتخليص أرض المسيح من أيدي المسلمين لأنها ترى أن "الأرض التي شهدت قصة المسيح و فيها ضريحه لابد

¹ - جمال مبارك، المرجع السابق، ص 34.

² - الزيدي مفيد، تاريخ الحروب الصليبية، دار أسامة للنشر، الأردن، عمان، د.ط، 2011م، ص 3.

³ - سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق ص 23.

⁴ - د. قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية، دار روتا برنيت للطباعة، د.ط، ص 14.

من أن تكون تحت سيطرة أتباعه"¹، لذلك شنت هجوما على المسلمين لإسترجاع ما تعتبره ملكا وحقا لها.

إن أهم عنصر إرتكزت عليه الحروب المقدسة هو عنصر " الغفران " فحتى ينضم إلى الحروب الصليبية عدد كبير من المشاركين، قامت البابوية بخطط دعائية لإغراء شباب أوروبا بالمشاركة في حريهم هذه ضد المسلمين، و ذلك مقابل منحهم الغفران الكامل لذنوبهم و خطاياهم، و ها هو البابا يخطب في الناس قائلا: " يا شعب الفرنجةلقد جاءت من تخوم فلسطين، و من مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنسا لعينا قد طغىفي تلك البلاد، بلاد المسيحيين في الشرق.....على من إذن تقع تبعة الإنتقام لهذه المظالم، و إستعادة تلك الأصقاع إذا لم تقع عليكم أنتم؟فليشر همتمكم ضريح المسيح المقدسطهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد.....و اتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس، و انتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنسو تملكوها أنتم، إن المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم و ثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجدا لا يفنى في ملكوت السموات"²، ثم يضيف قائلا "

¹ - المرجع نفسه، ص 32.

² - علي محمد محمد الصلابي، الجذور التاريخية للحروب الصليبية، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ط1، 2008م، ص 45، 46.

فلتجر مراعاة هدنة الله في أرض الوطن، و ينبغي تجريد جيوش المسيحيين في حملة لقهر المسلمين، إبتغاء الحصول على التوبة الكاملة التامة".¹

إن هذه الخطبة المغرية التي ألقاها البابا في كليرمونت كانت عاملا أساسيا في تحضير و تحفيز الناس للانضمام إلى صفوف الجيش الصليبي، فاستجاب الشعب لهذه الخطبة و لقيت إقبالا كبيرا منهم، و نظرا لنجاحها ألفت دعايات أخرى في ق 12م، و لكن هذه المرة كانت من خلال قصائد و أغاني تحمل الهدف نفسه و قد قيل فيها:

لقد سمعت مثلا سائرا يقول:

التاجر العاقل يتفق المال من حافظته

و صاحب القلب الطائش

هو الذي يرى الحسن فيختار القبيح

هل تعرفون بما وعد الرب

أولئك الذين سيأخذون صليبه؟

إنه لثواب حسن بالتأكيد

¹ - أرنست باركر و السيد الباز العريني، الحروب الصليبية، دار النهضة العربية، بيروت، ط 2، د.ت، ص 23.

الفردوس، و كان وعده صدقا

إن من يمكنه أن يربح مكافأته

أحمق إذا إنتظر إلى الغد¹

إن إن الحصول على الغفران كان له مقابل و ثمن باهض، و هذا المقابل وضعت شروطه الكنيسة البابوية، فهي ترى أن " الاشتراك في الحملات الصليبية والذهاب إلى الشرق ما هو إلا رحلة حج إلى الأراضي المقدسة، و عمل تكفيري تغفر في مقابله كل الذنوب"²، و لذلك إنغمس كثير من الناس في عدة مسالك إنحرافية معتقدين أنهم بمجرد مشاركتهم في هذه الحرب فإن الله سيغفر لهم كل ذنوبهم وخطاياهم³، و لعل هذا ما زاد من حدة بربريتهم و قسوتهم، و ها هي الأميرة أن كومنين تصفهم بأنهم " قبيحون و قساة، يغلب عليهم حب المال، عديمي الإحترام، كثيري الثثرة، متقلبين و عديمي الثبات على مبدأ"⁴.

أما الفريق الثالث فيرى أن الحروب الصليبية هي المتنافس الوحيد الذي أوجده الغرب الأوروبي آنذاك وسيلة للخروج من أوضاع عصوره الوسطى التي فرضتها عليهم

¹ - قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 36.

² - د. حسين محمد عطية، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، الأزهرية، د.ط، 2002م، ص 15.

³ - ينظر المرجع نفسه، ص 15.

⁴ - المرجع نفسه، ص 17.

الكنيسة، للتطلع إلى حياة أوسع و أفضل¹، و في الأخير خلص المؤرخون على أن الحروب الصليبية هي تلك " الحركة الاستعمارية الصليبية التي ولدت في غرب أوروبا و اتخذت شكل هجوم مسلح على بلاد المسلمين لاستئصال شأفة الإسلام و المسلمين و القضاء عليهم و استرجاع بيت المقدس، و جذور هذه الحركة نابع من الأوضاع الدينية و الاجتماعية و الفكرية و الاقتصادية و السياسية التي سرت في غرب أوروبا في القرن الحادي عشر و اتخذت من الدين وقودا لتحقيق أهدافها"².

إن الأسباب التي دفعت بأوروبا إلى إعلان الحروب الصليبية ضد العالم الإسلامي كثيرة و متنوعة، و لعل معظمها مرتبط بالأحوال التاريخية التي سادت في أوروبا آنذاك، و لذلك رأينا أنه من الأفضل أن نلقي نظرة عامة على الأحوال و الظروف أولاً³، ومنها نستنتج تلك الدوافع التي حركت الغرب الأوروبي لشن حروب صليبية.

إن المتأمل في أوضاع أوروبا عشية الحروب الصليبية يتعجب لما كان عليه حال هذه المنطقة التي لم تعرف إلا الجهل و التخلف آنذاك و ما تعرفه اليوم من تطور وإزدهار، فأوروبا حتى القرن الحادي عشر كان لا يزال يسيطر عليها الفقر و التخلف

¹ - ينظر سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 24.

² - علي محمد محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 22.

³ - ينظر الزيدي مفيد، المرجع السابق، ص 22- 23.

بالمقارنة إلى العالم الإسلامي¹، فقد غلب على أوروبا آنذاك الطابع الريفي القاسي الذي جعل الناس يعيشون تحت رحمة الطبيعة، فالفلاح الأروبي مثلاً لا يعرف طعم اللحم الطازج إلا مرة واحدة في الأعياد²، و ليس هذا فقط بل كان كل سكان أوروبا يعيشون في رعب دائم بسبب الفياضانات و المجاعة التي خيمت عليهم آنذاك و ما تبعها من وباء فتاك قضى على أغلبية سكان أوروبا³، كما إنتشرت الخرافات و طغى النظام الإقطاعي الذي إستولى على حقوق و منتج الفلاح⁴.

لقد عانى سكان أوروبا من ظروف قاهرة و مزرية كانت سببا في بحثهم عن أرض أخرى غنية و ثرية، و لعل هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل معظم سكان أوروبا يسارعون للانضمام إلى صفوف جيش الحروب الصليبية، آملين أن يجدوا حياة أفضل في بلاد و أرض أخرى أفضل من أرضهم، لكن هذه الظروف الصعبة التي مروا بها لا تعطيهم الحق في أن يستعمروا و يذهبوا و يتعدوا على حقوق و أراضي الآخرين مقابل حصولهم على حياة أفضل، لأن الحصول على السعادة لا يكون على حساب تعاسة و مأساة الآخرين، و لو أردنا حصر هذه الدوافع التي حملتها على شن حروبها الصليبية فسنحصرها فيما يلي:

¹ -ينظر قاسم عبد قاسم، المرجع السابق، ص 56.

² -ينظر الزيدي مفيد، المرجع السابق، ص 25-26.

³ -ينظر قاسم عبده، المرجع السابق، ص 61.

⁴ -ينظر المرجع نفسه، ص 62.

أ- الدافع السياسي:

حتى تتخلص الكنيسة من مشاكل النظام الإقطاعي و الحروب الأهلية ، وجهت أنظار الأمراء إلى الأراضي الإسلامية و الخيرات التي تتمتع بها، و قد وجد فيها الأمراء و الملوك فرصة ثمينة للحصول على ثروات أكثر، و تعويض ما فقدوه من أملاك في بلادهم، لأن قوانين النظام الإقطاعي كانت صارمة، و من قواعدها أن الابن الأكبر هو الوريث الوحيد لصاحب الإقطاع، أما بقية الأبناء فلا يرثون شيئاً، ولذلك فالحروب الصليبية كانت فرصة لا تعوض للأمراء، فهبوا جميعاً للانضمام إليها، و ما أن وصلوا إلى البلاد الإسلامية حتى بدأت النزاعات بينهم حول السلطة و الزعامة، فاقسموا المدن فيما بينهم و اقتسموا الغنائم في الطريق، و ما أن حققوا كل أهدافهم و أطماعهم، حتى انسحبوا من المشاركة في الحرب و عادوا أدرجهم¹.

ب - الدافع الاجتماعي:

إن الحياة الشاقة التي كان يعيشها سكان أوروبا هي التي فرضت عليهم المشاركة في هذه الحروب، هروبا من ظروف مجتمعهم القاسية، فقد سادت في المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى العنصرية و التمايز الطبقي التي عانى منها الكثيرون، و كان الفلاح صاحب النصيب الأكبر من هذه المعاناة، فقد عاش حياة تعيسة و مرة تابعا لسيده الإقطاعي، و حتى يتخلص و يتحرر هذا الفلاح المسكين من الإلتزامات

¹ - ينظر سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 41 - 42.

التي كان مطالباً بها أمام سيده الإقطاعي، شارك في الحروب، فأخطار الحروب كانت بالنسبة لهم أهون من حياة الذل و القسوة التي كانوا يعيشونها.¹

ج - الدافع الإقتصادي:

إن الخيرات التي يتمتع بها المشرق الإسلامي هي التي جعلته محط أنظار أوروبا و أطماعها، و لعل هذا الدافع هو من أهم الدوافع التي حركت الجيوش الصليبية صوب الأراضي الإسلامية، و قد عبر البابا أوربان الثاني عن مدى أهمية و قوة هذا العامل الإقتصادي في قوله " لا تدعوا شيئاً يقعد بكم ذلك أن الأرض التي تسكنونها الآن، و التي تحيط بها البحار، و قمم الجبال ضيقة على سكانها و تكاد تعجز عن كفايتهم من الطعام، و من أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً، و يلتهم بعضكم بعضاً، و يلتهم بعضكم بعضاً إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها بل هي فردوس المباهج"². كما أن تدهور الأحوال الإقتصادية في أواخر ق 11م، و ظهور المجاعة كانت سبباً فعالاً في هذه الحروب، فالحروب الصليبية فتحت لسكان أوروبا الجائعين باباً للخيرات و النعيم في البلدان العربية، لذلك لم يترددوا في المشاركة مقابل التخلص من أوضاعهم القاسية المزرية³.

¹ - ينظر علي محمد محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 34-35.

² - المرجع نفسه، ص 35-36.

³ - ينظر المرجع نفسه، ص 36.

د - إستغاثة البيزنطيين بالبابا أوربان الثاني:

يرجع بعض المؤرخين سبب قيام الحروب الصليبية إلى الإمبراطور ألكسيوس كومنين، و قد إستدلوا على ذلك بالخطاب الذي ألقاه ألكسيوس¹ ، و فحواه طلب المساعدة من البابا أوربان الثاني و إغرائه بالكنوز و الأموال التي سيجنيها شعبه مقابل مساعدته له، فهو يعلم جيدا شدة طمع و جشع اللاتنيين، مؤكدا أن كل هذه الخيرات ستكون تحت تصرفهم، و في الختام دعاهم إلى التوجه إلى إسترجاع بيت المقدس و قبر المسيح².

لقد أثرت الحروب الصليبية على المجتمع الاسلامي تأثيرا سلبيا كبيرا، فمن جرائها عانى المجتمع العربي من زيادة سكانية مذهلة آنذاك، و قد بدت مظاهر هذه الزيادة واضحة أكثر في بلاد الشام، و ذلك للموقع الإستراتيجي الذي كانت تحتله، فقد ضمت عدة أجناس مختلفة³، من بينها الصليبيون الذي جلبوا معهم عناصر جديدة أحدثت خلا في التركيبة السكانية الشامية، فأصبح هناك ما يسمى بالفائض السكاني، لكن سرعان ما نقص عدد السكان بسبب المذابح الصليبية و تهجير السكان إلى مناطق و بلدان أخرى⁴.

¹ - ينظر د. جوزيف نسيم يوسف، دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى، مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية للنشر، د.ط، 1983، ص 12.

² - ينظر المرجع نفسه، ص 13 - 14.

³ - ينظر قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 193.

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص 195.

أما تأثير الحروب الصليبية على الصعيد الاقتصادي فلم يكن أحسن حالا من الصعيد الاجتماعي، فقد عرفت الزراعة تدهورا كبيرا بسبب ما لحق بها من تخريب للأراضي، و لعل هذا الخراب يرجع إلى تلك الجيوش و العمليات العسكرية التي نهبت و دمرت الأراضي الزراعية، و جعلت الفلاح يضطر للنزوح إلى المدن بحثا عن لقمة عيشه و هو ما أدى في النهاية إلى تدهور الإنتاج الزراعي للمجتمع العربي و ظهور المجاعة و بالتالي تراجع الإقتصاد العربي، لكن بفضل الصناعة إنتعش الإقتصاد العربي مرة أخرى، فقد عرفت الصناعة و الحرف نوعا من التطور و الازدهار أكسبت بلاد الشام شهرة كبيرة في العالم، و من مثل هذه المنتجات نجد صناعة الأثاث، الزجاج، الورق و السكر، صناعة النسيج، العطور، الخمور و النبيذ، و قد إزداد إنتعاش هذا الإنتاج عندما فتحت له أبواب أسواق جديدة في القرن الثاني عشر، كما كان لنشاط التجارة الإيطالية آنذاك دور كبير في توسيع الأسواق¹.

للسياسة أيضا نصيب من النتائج السلبية التي أفرزتها الحروب الصليبية، من بينها سقوط و إنتهاء عهد الخلافة و حلول محلها الدولة العسكرية التي يتولى قيادتها الملك المحارب، فبتأزم الأوضاع السياسية و فشل الخليفة في تسيير الدولة سياسيا تحرك الشعب العربي و رأى أنه من الضروري تعيين ملك مسلم شجاع قادر على تسيير شؤون الدولة التي فشل الخليفة في تسييرها، و من هنا سقطت الخلافة

¹ -ينظر الزبيدي مفيد، المرجع السابق، ص 274.

الفاطمية و تلتها الخلافة العباسية التي عجزت على التصدي للجيوش الصليبية و مواجهتها¹.

لقد كانت الحروب الصليبية من أشد و أعنف المواجهات التي جمعت بين الشرق الإسلامي و الغرب المسيحي، فعلى الرغم مما خلفته هذه الحروب من دمار و هلاك للمسلمين إلا أنه يمكن أن نعتبر هذه الحروب بمثابة جسر الإتصال بين الطرفين المتصارعين، لأن فترة الحروب الصليبية كانت فرصة لتعارف الطرفين معرفة حقيقية و عن قرب، و بفضل هذا التعارف إنتقلت الآثار الفنية الشرقية إلى عدة بلدان أوروبية، و عرفت تجارتها رواجاً كبيراً، و بها ذاع سيط الفن العربي².

و كخلاصة لما سبق، يمكن أن نقول أن هذا الصراع دام حوالي مائتي عام والنار مشتعلة بين الشرق و الغرب، لينتهي بانتصار الشرق على الغرب، إلا أن الشرق لم يستقد و لم يجن شيئاً من إنتصاره، " فعند نهاية الحروب الصليبية قامت النهضة الأوروبية، و أخذت تخلع ثوب القرون الوسطى، و توقف النمو أو كاد في الشرق، وانتهى بالسيطرة الكاملة للغرب على الشرق، و بزوغ الظاهرة الاستعمارية"³، و الفضل كل الفضل في هذه النهضة الأوروبية يرجع إلى الحضارة العربية التي ساهمت في تغذية بذور النهضة الأوروبية و نموها و أفادتها بمختلف العلوم و الدراسات و الفنون

¹ -ينظر المرجع نفسه، ص 259.

² -ينظر جمال مباركي، المرجع السابق، ص 40.

³ - المرجع نفسه، ص 42.

و المناهج التي إفتقرت إليها¹، و لعل أول بلد إستقاد من الحركة الصليبية و بذور نهضتها هي فرنسا، فقد زادت هيبتها بعد الحروب الصليبية، و صارت من أكبر الدول في أوروبا، و هذه القوة و النفوذ هما اللذان ساعداها على إستعمار الشرق الأدنى فيما بعد².

¹ - ينظر سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق ص 5.

² - ينظر أرنست باركر، الحروب الصليبية المرجع السابق، ص 148.

المطلب الثالث: المرأة الأوروبية في المجتمع الصليبي

على الرغم من أن البابا أوربان الثاني قد منع مشاركة النساء في الحروب الصليبية منعاً باتاً¹، إلا أن المرأة الأوروبية استطاعت أن تفرض نفسها و تنظم إلى الجيوش الصليبية، و تثبت جدارتها و كفاءتها من خلال الأدوار التي قامت بها، ولعل سبب مشاركة المرأة الأوروبية في هذه الحروب راجع إلى الوضع المزري الذي عانت منه، و هي على كل حال نفس الظروف القاسية و القاهرة التي كانت سبباً في إنضمام الرجال إلى الجيوش الصليبية، و هجرتهم إلى المشرق الإسلامي بحثاً عن حياة أفضل، خاصة أن بلاد الشام هي بلاد الخيرات و الأرزاق، و هذا ما زاد في سيلان لعاب الصليبيين، فهبوا إليها جميعاً نساء و رجالاً خوفاً من ذوبانهم و اضمحلالهم².

لم تقتصر الحروب الصليبية على مشاركة الرجال فقط، بل ضمت جيوشها عدة نساء و هبنا أنفسهن لهذه الحروب، و كل واحدة منهن لها دورها، فهناك المرأة المحاربة سواء في المجال السياسي أو العسكري و هناك المرأة المتزوجة التي رافقت زوجها

¹ - ينظر حسن عبد الوهاب حسن، مقالات و بحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، دار المعرفة، الأزاريطة، د. ط، 1979م، ص 172.

² - ينظر د. ابراهيم القادري بوتشيش، بين أخلاقيات العرب و ذهنيات الغرب، رؤية للنشر و الطباعة، القاهرة، ط 1، 2005م، ص 62.

لرعايته، و هناك الراهبات، " ¹ و لعل أهم دور قامت به المرأة الصليبية هنا و تميزت به كعضو فعال هو دورها في المجال السياسي و العسكري .

إن أهم ما تميزت به المرأة الأوروبية في المجال السياسي هو القوة و النفوذ و الحنكة السياسية، و لعل هذه الأمور هي التي أوصلت المرأة الأوروبية إلى الحكم و استلام كرسي العرش، فقد كانت سند الرجل الغربي خاصة في حالة غياب الوريث الشرعي، فاستطاعت أن تسد هذه الثغرة و تؤدي واجبها بكل براعة و جدارة، و من مثل هؤلاء النساء نذكر الأميرة " سيلا " ² التي تولت الحكم بعد وفاة بودان الرابع، فنظرا لعدم وجود وريث استلمت هي كرسي العرش، و بعد وفاتها إستلمته أختها إيزابيلا، و على الرغم من زواج هذه الأخيرة من ثلاث رجال، إلا أن السلطة بقيت في يدها، و لم يستطع أحد منهم إنتزاعها منها، و هذا خير دليل على نفوذ المرأة الأوروبية و حنكتها السياسية، و قد قال ابن الأثير في ذلك : " و إن الإفرنج لهم ملك يجمعهم، و أن أمرهم إلى امرأة و هي الملكة " ³، كما تحدث الأصفهاني عن المكانة السياسية العظيمة التي بلغت المرأة الأوروبية فيقول: " إنها امرأة كبيرة القدر و افرة الوفر و هي في بلدها مالكة الأمر، و في جملتها خمسمائة فارس بخيولهم و أتباعهم،

¹ - ينظر حسن عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 173.

² - ينظر د. ابراهيم بوتشيش، المرجع السابق، ص 67.

³ - ابن الاثير الكامل نقلا عن ابراهيم بوتشيش المرجع نفسه، ص 68.

وغلمانهم و أشياءهم، و هي كافلة كل ما يحتاجونه من المؤونة، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة¹

أما في المجال العسكري فلم تكن المرأة الصليبية أقل قوة و حنكة مما كانت عليه في المجال السياسي، فقد إزدادت قوة و شجاعة و بطولة في الساحة العسكرية، و قد لفت دور المرأة الصليبية الكثيرين فنوها بشجاعتها، و من بينهم المؤرخ ابن الأثير الذي قال عنها في كتابه الكامل " من جملة الأسرى الذين أسرههم المسلمون، ثلاث نسوة يقاتلن في زي الرجال، و لم يعرفن إلا بعد أسرهن، و تجريدهن من السلاح"² كما أفرد لها المؤرخ الأصفهاني عدة فقرات أشار فيها إلى بسالتها في القتال فيقول عنها في إحدى المواضع: " و في الفرنج نساء فوارس لهن دروع و قوائس، كن في زي الرجال، و يبرزن في حومة القتال و كل هذا يعتقده عبادة، و يخلن أنهن يعقدن به سعادة، و يجعلنه لهن عادة"³، ثم يضيف قائلاً: " و في يوم الوقعة قلعت منهن نسوة لهن بالفرسان أسوة، و فيهن مع لينهن قسوة، و أما العجائز فقد إمتلأت بهن المراكز و هن يشددن ثارة و يرخين، و يحرضن، و ينخين و يقلن: إن

¹ - أبي عبد الله محمد بن محمد بن حامد، الفتح الفشي في الفتح القدسي، دار المنار، د. ط، د. ت، ص 188.

² - ابن الأثير الكامل نقلا عن د. ابراهيم بوتشيش، المرجع السابق، ص 74-75.

³ - أبي عبد الله محمد بن محمد بن حامد، المرجع السابق، ص 188.

الصليب لا يرضى إلا بالإباء، و أنه لا بقاء له إلا بالفناء، و أن قبر معبودهم تحت إستيلاء الأعداء¹.

إن أهم ميزة إتسمت بها المرأة الصليبية خاصة و الإفرنجية عامة هي الميوعة والغنج و التبرج، فقد تمتعت بقدر كبير من الحرية خاصة الحرية الجنسية، و لعل أول شيء لفت إنتباه المؤرخين في المرأة الصليبية هو حريتها الجنسية و قلة حشمتها²، فقد أطنب الأصفهاني في وصفها قائلاً: " عجاء، هيفاء، غناء، لفاء تسحر بنظرتها و تنتني كأنها غصن و تتجلى كأنها حصن³ "، و دورها وجد للفساد فقط.

و خلاصة لما سبق يمكن أن نقول أن المرأة الأوروبية شخصية غنية بمحاسنها و مساوئها، فقوتها و شجاعتها و حضورها الفعال في كل مجالات الحياة اليومية وتحملها كل المسؤوليات المفروضة عليها هو الذي جعلنا ترى هذه المحاسن، أما ميوعتها الأخلاقية و تحررها الزائد هو الذي جعلنا نرى هذه المساوئ، خاصة إذا كنا نرى ذلك بأعين شرقية لأن تقاليدنا و أعرافنا الخاصة بنا تمنع ذلك. و ينبغي أن نشير هنا أننا تحدثنا عن الحروب الصليبية و المرأة الصليبية حتى نبين أن الصراع بين

¹ - المرجع نفسه ، ص 188.

² -ينظر د. ابراهيم بوتشيش، المرجع السابق، ص 79-80.

³ - ابي عبد الله محمد بن محمد بن حامد، المرجع السابق، ص 187.

الشرق و الغرب صراع قديم جدا و مستمر إلى الآن لكن بطرق و أساليب مختلفة و قد كانت المرأة الغربية مظهرا من مظاهر هذا الصراع .

المبحث الثاني: إرتباط و تبادل ثقافي بين الشرق و الغرب

المطلب الأول: الإستشراق l'orientalisme:

إن شعور أوروبا بالنقص و الخوف من هيمنة الشرق على العالم و السيطرة عليه، هو الذي جعلها تضطر لمعرفة و تتعلم لغته إحتراسا منه، خاصة أن ذلك الشرق في وقت مضى كان له الفضل و الأسبقية في العلوم التي تتمتع بها الآن، بعد أن طورتها اليوم و أصبحت أم التكنولوجيا. و الشعور بالخوف صحبه شعور آخر هو الشعور بالإعجاب بذلك الشرق الغني بثرواته، و لذلك فحتى يسلم الغرب من شر الشرق الذي إنتابه الخوف منه من جهة، و يحقق أطماعه و نواياه السيئة إتجاه الشرق الغني الذي أعجب به من جهة أخرى، قام بتعلم لغته و أرسل باحثين متخصصين إلى الشرق ليتعرفوا على كل شيء يخص الشرق و يفيد الغرب. و سمي هؤلاء الباحثين فيما بعد " بالمستشرقين"، و سمي مجالهم " بعلم الإستشراق"، فماذا نعني بهاذين المصطلحين؟ .

إن الإستشراق هو كلمة مشتقة من فعل سداسي هو "إستشرق" و أصل الفعل هو (ش، ر، ق)، و " الألف و السين و الثاء اذا سبقت الفعل الثلاثي أفادت الطلب، وعلى هذا فاستشرق: طلب الشرق"¹، فالإستشراق إذن " تعبير يدل على طلب العلم

¹ - محمد مكاوي، مجلة إشكالات في اللغة و الأدب، منشورات المركز الجامعي لتامنغست، الجزائر، العدد الثاني، ماي 2013م، ص 45.

بالشرق و الاتجاه نحوه، و يطلق على كل ما يبحث في أمور الشرقيين و ثقافتهم و تاريخهم¹. كما يقصد به " ذلك التيار الفكري الذي يتمثل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، و التي تشمل حضارته و أديانه ، و آدابه، و لغاته و ثقافته. و لقد أسهم التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق الإسلامي بصورة خاصة، معبرا عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما"².

لقد وضعت عدة تعريفات للإستشراق، وكل باحث كان له هدفه الخاص لذلك، فهناك آخرون عرفوا الإستشراق تعريفا أكاديميا فقالوا: " الإستشراق عبارة عن دراسات (أكاديمية) يقوم بها غربيون في الدول الإستعمارية للشرق بشتى جوانبه، تاريخه و ثقافته و أديانه ولغاته ونظمه الاجتماعية و السياسية و ثرواته وإمكانيته، من منطلق التفوق العنصري والثقافي على الشرق، ويهدف السيطرة عليه لمصلحة الغرب، وتبرير هذه السيطرة بدراسات وبحوث ونظريات تتظاهر بالعملية والموضوعية"³.

أما ادوارد سعيد فقد أوضح في كتابه الدائع الصيت " الإستشراق المفاهيم الغربية للشرق" ثلاث دلالات للإستشراق هي:

¹ - جمال مباركي، المرجع السابق، ص 50.

² - محمد مكاي، المرجع السابق، ص 46.

³ - سعدون محمود الساموك، الوجيز في علم الإستشراق، دار المناهج للنشر، عمان، الأردن ط 1، 2003م، ص 15.

الأولى: جامعية أكاديمية، فهو يرى أن كل شخص يقدم دروس أو محاضرات عن الشرق ، أو يكتب عنه، أو يبحث فيه و في موضوعاته فهو مستشرق، ويسمى العمل الذي يقوم به بالاستشراق¹.

الثانية: الإستشراق "هو أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يسمى (الشرق) وبين ما يسمى (الغرب)"².

الثالثة: "هو أسلوب غربي للهيمنة على الشرق وإعادة بنائه والتسلط عليه"³.
فحسب رأي إدوارد سعيد الإستشراق ما هو إلا إستراتيجية سياسية خططت لها القوى الأوروبية لتحقيق غاياتها و مصالحها السياسية قبل الثقافية في الشرق، ولعل أول هدف سعت إليه الدراسات الإستشراقية هو تجريد العرب من مقوماتهم وهوياتهم الشرقية الإسلامية، ومن ثم التكفل بهم ووضعهم تحت وصايتهم، وهذا النوع من الوصاية هو ما يسمى بالإنّداب، ويعني تكفل دولة كبرى بتسيير شؤون دولة صغرى، وهو إستعمار بطريقة غير مباشرة، وبالتالي فالإستشراق هو: "إستعمار ذهني فكري يجرد الشرق من إنسانيته و يصوره مجرد كائن عضوي أشبه بالكائنات الطبيعية الجامدة أو الحية على أكثر تقدير، ليس به فكر أو علم، إنسانية مجردة مثل الأحجار"⁴ ، وهذا يعني أن

¹ - ينظر إدوارد سعيد، ترجمة د. محمد عناني، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، رؤية للنشر و التوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص 44.

² - المرجع نفسه، ص 45-46.

³ - المرجع نفسه، ص 45-46.

⁴ - الزهرة بلحاج، الغرب في فكر هشام شرابي، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2004م، ص 128.

العداء بين الشرق و الغرب لم ينته، بل إتخذ الصراع بينهما لونا آخر، وهو " الإستشراق "، لأن " الحرب لا تكون فقط بالسيف وإنما تكون أيضا بالفتاوى وسرد الأخبار والخطابات بشتى أنواعها"¹.

إن الذي يتولى مهمة البحث في الشرق يسمى "مستشرق" ويحدد مالك ابن نبي هذا المصطلح تحديدا دقيقا فيقول: "المستشرق يعني الكاتب الغربي الذي يكتب عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية"²، أما عند فرانسيسكو غابرييلي: " فهو يعتبر باحث اختار بمحض إرادته أن يركز همه العلمي على أحد قطاعات المعرفة الأبعد عنه من حيث المكان و الزمان"³، أما المعنى العام الشائع الذي إتفق عليه معظم الباحثين والدارسين فهو "يطلق على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله: أقصاه ووسطه، وادناه، في لغاته وادابه وحضارته وأديانه..."⁴، وقد نوه بعض الباحثين إلى أن مصطلح مستشرق كان له الأسبقية في الظهور قبل مصطلح إستشراق، وذلك من خلال بحث قام به " آربري" أشار فيه إلى أن "المدلول الأصلي لمصطلح (مستشرق) كان في سنة 1638م"⁵، ثم لحقتها بعد ذلك عدة بحوث ودراسات ففي

¹ - المرجع نفسه، ص 129.

² - مالك ابن نبي نقلا عن جمال مباركي، المرجع السابق، ص 53.

³ - فرانسيسكو غابرييلي نقلا عن المرجع نفسه، ص 53.

⁴ - جمال مباركي، المرجع نفسه ص 54.

⁵ - أ. نبيل حويلي، مجلة اشكالات في اللغة و الأدب، المرجع السابق، ص 59.

سنة 1691م قام "أنثوني وود" بوصف "صمويل كلارك" ونعته " بالإستشراقي النابه" ويقصد بها أنه كان على إضطلاع ومعرفة باللغات الشرقية¹.

لقد حدد الباحثون أهم الملامح التي تتسم بها شخصية المستشرق فيما يلي:

1- أن يكون منتميا إلى الغرب.

2- ينبغي أن يكون هذا الشخص من أهل الذمة (اليهود والنصارى).

3- أن يولي هذا الباحث كل إهتمامه بالشرق.

4- أن يكون من أهل العلم وهذا أمر مفروغ منه².

لقد تعددت آراء الباحثين وتباينت في التاريخ لعلم الإستشراق وبدايته، فهناك من يرجع الإنطلاقة والبداية الحقيقية لعلم الإستشراق إلى القرن التاسع عشر، أي مع ظهور الإستعمار الغربي، وهناك من يرى أن بدايته تعود إلى فترات أعمق من ذلك، فنسبوا هذه البداية إلى فترة الحروب الصليبية، وبذلك فإن علم الإستشراق مر بمرحلتين هما:

الأولى: وتعتبر هذه المرحلة مرحلة أساسية ومهمة بالنسبة للغرب لأنها ساعدتهم كثيرا على النهوض من سبات فكري كبير جعلهم يحتضرون لوقت طويل، إلى أن بدأت معالم الإستشراق بالظهور، فأخذ علماء الكنيسة كل ما وجدوه من علوم و فلسفة

¹- ينظر أ. نبيل حويلي، المرجع نفسه، ص 59.

²- ينظر جمال مباركي، المرجع السابق، ص 54.

يونانية من حاضرة العرب (بغداد) وغيرها ونقلوها إلى روما¹، وما ساعدها أكثر هو تلك الترجمات التي قام بها العرب لآداب وفلسفات العالم خاصة فلسفة اليونان، فلولاها لما استطاعت الكنيسة في روما أن تترجم آثارها اليونانية و الرومانية، خاصة أن شعبها كان شعبا جاهلا، وحتى تستفيد أوروبا أكثر من تلك العلوم، قامت بإرسال كتاب الكنيسة ليطلعوا على مختلف علوم الإسلام ويضعوا يدهم على تلك المؤلفات اليونانية، ثم يقومون هم بعد ذلك بترجمتها إلى لغتهم اللاتينية، واعتبرت هذه الرحلات أول موجة إستشرافية قام بها الغرب²، وبفضلها تنبهوا لقيمة التراث العلمي الذي تتمتع به الحضارة الإسلامية، فازدادت دراساتهم وإهتماماتهم بالشرق وازدهرت هذه الحركة الإستشرافية أكثر مع الحروب الصليبية³ وذلك بحكم الإحتكاك بين الشرق و الغرب.

المرحلة الثانية:

وفي هذه المرحلة أجمع المؤرخون على أن هذه المرحلة هي مرحلة البزوغ و النمو الكامل لحركة الإستشراق بالمعنى العلمي، وأرخوا لهذه البداية بنهاية القرن السابع عشر، وفيها خدم المستشرقون أغراضا كثيرة منها:

¹ - ينظر سعدون محمود الساموك، المرجع السابق، ص 19.

² - ينظر المرجع نفسه، ص 20.

³ - ينظر جمال مباركي، المرجع السابق، ص 55.

1- التبشير:

لقد سارعت الكنيسة في إرسال بعثاتها إلى مختلف المناطق العربية¹ قصد إستكشافها ونقل كل أخبارها، فلم يتوانى هؤلاء المبشرين بتقديم كل الخدمات الممكنة التي تسهل للغرب عملية غزو وإستعمار هذه البلدان، وذلك من خلال نقل كل ما إطلعوا عليه في الشرق، و ما عرفوه ولاحظوه عن العرب وحياتهم سواء السياسية أو الثقافية أو الإقتصادية ومن ثم إكتشاف وإستنتاج أهم الثغرات ونقاط الضعف التي من خلالها يستطيعون ضرب ضربتهم القاضية على هذه البلدان العربية، بنهبها وإحتلالها و هذا معناه أن "إستشراق المبشرين كان عاملا مهما لدراسة الطبيعة التي يحتاج الإستعمار لمعرفة عن الوطن العربي،... كما أن إلتصاقهم بالشعب العربي قد فتح الأذهان على الغرب مما جعل لوجودهم بين العرب أثرا في تغلغل الثقافة الغربية وإنتشارها و هي من العوامل المساعدة على دخول الغرب"².

2- الإستعمار:

بمجرد أن شعرت أوروبا بالقوة وصارت لها عدة وسائل حربية بدأت بإرسال الباحثين والعلماء إلى الشرق قصد دراسة أحواله، ونادت و حثت على تعلم اللغة

¹ - ينظر سعدون محمد الساموك، المرجع السابق، ص 23.

² - المرجع نفسه، ص 24.

العربية، ففتحت عدة مراكز لتعليم العربية في مختلف الجامعات الأوروبية¹، فنصب في كل جامعة أوروبية أستاذين لتدريس اللغة العربية ولغات أخرى، كالعبرية و اليونانية و غيرها، وهذا وفقا لقرار مؤتمر فيينا الذي إستوعب أهمية تعلم اللغات لتسهيل عملية البحث والتنقيب في علوم الكتاب المقدس²، وكل هذه الأمور طبعا تخدم الأغراض الإستعمارية، فبفضل كل هذه العوامل إستطاع الغرب أن يهيمن على الشرق، ويفرض سيطرته عليه بخلق إستعمار جديد خفي من خلال علم جديد هو علم الإستشراق أو علم الإستعمار، لأن الإستعمار الحديث أصبح علما، يقول حسن حنفي: "تكلمت روح الشرق في الوعي الأروبي وتحولت إلى صورة من صنعه، ثم سهل عليه بعدها تحويلها الى شعوب يستعمرها، ومواد أولية ينهاها، ومناطق شاسعة يحتلها، و إلى قوى بشرية يستبدها وينقلها... أصبح الشرق في الوعي الأروبي في ذروة المد الإستعماري مادة بلا روح"³.

ولعل أكثر شخص إستفاد من الإستشراق والدراسات والبحوث التي قام بها علماء الغرب في الشرق هو "نابليون بونابرت"، فغزوه لمصر عام 1798م كان مدروسا بإتقان، وذلك من خلال النصوص والكتب التي قرأها عنها، فعرف إستراتيجيتها و تاريخها، أي أن نابليون "كان يعتبر مصر مشروعا إكتسب طابع الحقيقة الواقعة في

¹ - ينظر المرجع نفسه، ص 26.

² - ينظر يوهان فوك، ترجمة عمر لطفي العالم، تاريخ حركة الاستشراق، دار المدار الاسلامي، بيروت، ط 2، 2001م، ص 36.

³ - حسن الحنفي، مقدمة في علم الاستغراب، مجد المؤسسة الجامعية للنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ط 3، 2006م، ص 546-547.

ذهنه، ثم في إستعداداته لفتحها فيما بعد، خلال خبرات تنتمي إلى مجال الأفكار و الأساطير المأخوذة من النصوص لا من الواقع التجريبي"¹، ولعل أكثر كتاب خدم نابليون في إستعمار مصر واستفاد منه كثيرا هو الكتاب الذي ألفه الكونت "دي قوليني"، وهو رحلة فرنسي له كتابين قيمين هما رحلة في مصر وفي سوريا، في مجلدين عام 1787م وكتاب تأملات في الحرب 1788م²، و قد وجد نابليون إرشادات قيمة في كتب قوليني ساعدته على رسم خطته الإستعمارية ضد مصر، وساعدت كل أروبي يريد أن يظفر بالشرق وكأن اطروحة قوليني كانت تقول "اقرأ الكتابين، وبدلاً من أن يصيبك الشرق بالحيرة و الإرتباك، سوف تخضع الشرق لك"³.

إذن بعدما كانت مصر تحفة ولؤلؤة غامضة يحلم بها كل غريب ويهاب لمسها والإقتراب منها، أصبحت مستيسرة وفي متناول كل من يريد لها ويطلبها ليقم تجاربه عليها. لقد كان الشرق " بالنسبة للغربي كيان مشكل ومكون في الوعي، في الذاكرة و في المخيلة"⁴، ولذلك فإن أول ما أحسه فلوبير عند ذهابه إلى مصر ووصله إليها، هو أنه

¹ - إدوارد سعيد، المرجع السابق، ص 152-153.

² - ينظر المرجع نفسه، ص 153.

³ - المرجع نفسه، ص 154.

⁴ - جمال مبارك، المرجع السابق، ص 58.

قد سبقت له رؤيتها من قبل، وهو الآن يلتقيها مرة أخرى¹، وكان ذلك طبعا من خلال ما قرأه عنها في الكتب.

و ما لوحظ في هذا الإستشراق الحديث أنه "يظهر الشرقيون والعرب سذجا، غافلين، محرومين من الحيوية والقدرة على المبادرة"²، فالذاكرة الغربية مازالت تختزن بصورة قديمة للعرب، وتوظفها الآن لا ترى فيها إلا ذلك العربي الذي لا يمكنه العيش من دون خيمة، يعيش في أرض قاحلة، ووسيلته في التنقل هي الجمل³، فهو إنسان بدائي متخلف يحتاج لمن يساعده وينير دربه.

للبحث الإستشراقي أسس خاصة إعتدها المستشرق في بحوثه ودراساته الإستشراقية، وتميز بها على الباحث الشرقي، ويمكن تلخيص هذه الأسس التي يركز عليها المستشرق فيما يلي:

1- البحث على نقاط الضعف عند العرب⁴.

2- إعتمادهم و تركيزهم على أهوائهم، وميولهم دون الحقائق العلمية، وكمثال على

ذلك تلك الصور المشوهة عن العرب التي إدعاها الغرب عنا مع أن الحقيقة

العلمية تقول غير ذلك، وفي هذا الصدد يقول "مونتكومري واط" وهو باحث

¹-ينظر المرجع نفسه، ص 58.

²- المرجع نفسه، ص 59.

³- ينظر نجيب بوطالب، صورة الآخر ناظرا و منظورا اليه مركز دراسات الوحدة العربية ط 2 2008 م ، ص 433.

⁴-ينظر سعدون الساموك، الوجيز في علم الاستشراق المرجع السابق، ص 69.

متعاطف مع الشرق "جد الباحثون من القرن الثامن عشر في تعديل الصورة المشوهة التي ولدت في أوروبا عن الإسلام، وعلى الرغم من الجهد العلمي الذي بذل في هذا السبيل، فإن آثار هذا الموقف المجافي للحقيقة التي أحدثتها كتابات القرون الوسطى في أوروبا لا تزال قائمة، البحوث والدراسات الموضوعية لم تقدر بعد على إجتناؤها"¹.

3- التشكيك في كل ما يتعلق بحقيقة تراثنا يقول الدكتور "عماد الدين خليل" : "يكاد يكون هذا الملمح الأساس في مناهج المستشرقين قاسما مشتركا أعظم بينهم جميعا، انهم يمشون مع شكوكهم الى المدى وي طرحون افتراضات لا رصيد لها من الواقع التاريخي، بل انهم ينفون العديد من الروايات لهذا السبب أو ذلك، بينما تجددهم يتشبثون في المقابل بكل ما هو ضعيف و شاذ"².

4- إعتمادهم على الميكافيلي، و أساس هذا المبدأ هو الغاية تبرر الوسيلة، وقد رأينا أن أوروبا إستخدمت كل الوسائل و الإجراءات اللازمة كالتزوير والدس والإحتيال مقابل بسط سيطرتها على البلدان العربية، يقول محمد أسد : "إن أبرز المستشرقين الأوروبيين جعلوا من أنفسهم فريسة التخرّب العلمي"³.

¹ - مونتكومري واط الإستشراق و الخلفية الفكرية للصراع الحضاري نقلا عن سعدون محمود الساموك المرجع نفسه، ص 70.

² - عماد الدين خليل نقلا عن المرجع نفسه، ص 72.

³ - محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق نقلا عن المرجع نفسه، ص 73.

من خلال هذه الأسس التي ذكرناها يمكن أن نقول أن المستشرق كان الورقة الراجعة التي تمتلكها أوروبا، و تظهرها متى شاءت لتضغط على البلدان العربية وتقرض سيادتها عليها، و اللوم كله علينا لأننا نحن من سمح لهم بالتمادي، فتعدوا كل الخطوط الحمراء وتجاوزوها إلى التدخل في تراثنا و ماضيها و حاضرها، و التلاعب بمصيرنا من دون أن نتقوه بكلمة، فهل فسحوا لنا المجال لنبدي رأينا في تراثهم و حاضرمهم أكيد لا، فنحن في نظرم ذلك الشرق المتخلف الذي لا يحق له أن يبدي رأيه حتى على شخصه، يقول سمير أمين في ذلك " إذا كان الأوروبيون لهم الحق في تقدير الغير، فلنا كذلك حق مماثل في تقدير الغرب. إنني أدافع هنا عن مبدأ العالمية و الحق للجميع....."¹، و يشترط في هذا التقدير و التقويم أن يكون تقويما صحيحا للحضارات، و ليس تقويما مشوها و مزيفا.

يضيف سمير أمين قائلا: " لقد قام الفكر العربي بإختراع إصطناعي لشرق وهمي يلائم إحتياجات التمرکز الأوروبي. و نقصد هنا بالتحديد مساهمة الإستشراق في بناء الإيديولوجية الغربية. فقد قدم الإستشراق صورة إيديولوجية غير صحيحة عن شرق يتسم بسمات عكسية لتلك السمات التي تميز الغرب، و تلعب هذه الصورة المعكوسة المناظرة دورا أساسيا في تأكيد جذور خرافية لتفوق الغرب"².

¹ - سمير أمين، التمرکز الأوروبي نحو نظرية للثقافة، موزم للنشر، د.ط، 1992، ص 113.

² - المرجع نفسه، ص 111.

المطلب الثاني: الحملة الفرنسية و دورها في النهضة العربية

لطالما إعتبرت أوروبا الشرق عالما جاهلا متخلفا، ليس له أي قدرة على التطورات، فعينت نفسها مسؤولة عن تطوير ثقافته و حضارته، و ذلك من خلال فرض سيطرته عليه، أي بالاستعمار¹، فجهزت كل جيوشها و وسائلها و هبت إلى الأراضي العربية مسارعة، مدعية أنها تريد تحسين أوضاع الشعب العربي الذي لازم فراش المرض مدة طويلة (الجهل و التخلف). فاستسلم لهذا المرض المزمن و انقطعت أخباره، و ابتعد كل البعد عن التاريخ الحضاري، الى ان أتى من يصحيه مدعيا معالجته من مرضه ذاك، فلم يفق بعدها إلا على سوط و ضرب الإستعمار².

و لعل أول بلد عربي عرف نهضة ثقافية علمية مميزة هي مصر، و قد رد المؤرخون الغربيون و التنويريون العرب فضلها إلى الحملة الفرنسية، حملة نابليون بونابرت سنة 1798م، التي ثقفت المصريين و نورتهم بالوسائل التثقيفية العلمية التكنولوجية التي جلبتها معها، و هذا ما جعل " العرب يكتشفون أنهم ظلوا قرونا طويلة مغمضي الأعين، قانعين بالبقاء تحت ظل الدولة السنية التي حكمتهم و عزلتهم و أوهمتهم بأنها الأقوى و ربما الأوحده في هذا العالم، و لم يفق العالم العربي من هذا

¹ - ينظر محمد نجيب بوطالب، المرجع السابق، ص 437.

² - ينظر مالك بن نبي، ترجمة عمر كامل مسقاوي و عبد الصبور شاهين، شروط النهضة، دار الفكر، ط 3، 1969م، ص 57.

الوهم إلا و الإستعمار الغربي يقتحم معاقل بيتهم و يغير معالم حياتهم و يستبدل بأنماط ثقافتهم التقليدية نمطه الأوروبي"¹.

لقد لعبت مدافع نابليون دورا هاما و كبيرا في حياة الشرق كله، فكانت بمثابة الجرس الذي يدق أو المنبه الذي يرن ليوقظ هؤلاء العرب من سبات و غفلة دامت قرونا طويلة، فاستيقظ العرب كلهم اثر هذا المنبه، ليجاوروا حداثة العصر الجديد، حداثة العلم و التكنولوجيا²، عازمين على التخلص من التخلف الذي كانوا يعيشون فيه فأمامهم الآن حياة جديدة مشعة، و نهضة فكرية منيرة انطلقت "منذ حدث أول لقاء بين العقل العربي و العقل الأوروبي بمجيء نابليون الى مصر، فعن طريق الإحتكاك المباشر بين المصريين و الفرنسيين..... تعرف العقل العربي إلى انجازات عصر التنوير الأوروبي من خلال تطبيقات الحملة الفرنسية لأفكار الثورة الفرنسية في مصر...."³.

و الواقع أن الحملة الفرنسية مثلت الجسر المنيع الذي أوصل مصر إلى أبواب العالم الجديد، أبواب الحداثة، أبواب النهضة العربية التي وضعت بذورها مدافع بونابرت، ففتحت أمامهم آفاق جديدة كلها حلم بالتطور و التغير، و بها أدركت الذات أو الأنا الشرقية نقاط ضعفها و عيوبها، عندما تواجعت مع الآخر و رأت نفسها في

¹ - جمال مباركى، المرجع السابق، ص 60-61.

² - ينظر سالم المعوش، صورة الغرب في الرواية العربية، المرجع السابق، ص 92.

³ - المرجع نفسه، ص 52.

مرآته القوية، فعملت جاهدة على الأخذ منه و مجاراته للخروج من الوحل الذي تعيش فيه¹، لأن «الآخر» الفرنسي المتمثل في العتاد العسكري و العلمي، و في المصاحبات الثقافية و الاجتماعية و السياسية للحملة الفرنسية كان بمنزلة المرأة التي رأى بواسطتها الوعي القومي حقيقة ما وصل اليه عالمه، و أدرك على نحو صادم أوضاع هذا العالم في علاقات تراتبه الجامد، و إنغلاقه الخامل فوعى تخلفه مصدوما، مقابل إدراكه تقدم الآخر الذي هزمه بما لا طاقة له به من علم، و مخترعات و عتاد و علماء و أوضاع و علاقات لا تعرف التقليد المتحجر و الإنغلاق الجاهل².

لقد أراد نابليون أن يجعل من مصر باريس صغيرة متطورة، فإتخذ الوسائل الضرورية لذلك، كإنشاء المقاهي و الحانات، و إنشاء المسارح³، كما أنشأ عدة مستشفيات و جلب عدة أطباء، بحثوا في أسباب الأوبئة الفتاكة التي كانت تهدد حياة المصريين⁴، فقدموا لهم عدة نصائح لتقادي تلك الأمراض، و يذكر الشيخ الجبرتي أمثلة على تلك النصائح فيقول: " و فيه نبهوا على الناس بالمنع من دفع الموتى بالتربة القريبة من المساكن كتربة الأزبكية و الرويعي، و لا يدفنون الموتى إلا في القرافات البعيدة.....، و إذا دفنوا يبالغون في تسفيل الحفر، و نادوا أيضا بنشر الثياب

¹ - ينظر جمال مباركي، المرجع السابق، ص 61.

² - المرجع نفسه، ص 61.

³ - ينظر د. محمد فؤاد شكري، الحملة الفرنسية و خروج الفرنسيين من مصر، دار الفكر العربي، د.ط، د.ت، ص 570.

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص 582.

والفرش بالسطح.....، كل ذلك للخوف من حصول الطاعون و عدواه.....، و من قولهم أيضا إذا مرض مريض لابد من الإخبار عنه، فيرسلون من جهتهم حكيما للكشف عليه.....¹.

إن كل هذه الإجراءات التي إتخذها نابليون، كانت لفائدة صحة و سلامة المصريين و غيرهم، و لا ننسى فرق البحث و العلماء الذين جاؤا لاكتشاف مصر و ثرواتها، و قد انبهر المصريون بوسائلهم و طرقهم الحديثة في الدراسة، كما قام بوناپرت بتأسيس مجمع علمي أصدره في 22 أغسطس 1798م في القاهرة، و كان من بين أهدافه: " العمل على إشاعة نور العلم و العرفان في مصر"².

لم تخف مصر إنبهارها بما حققته الحضارة الغربية من تقدم و إنتصار و ما تخبئه في جعبتها من علوم و تكنولوجيا، لذلك سارعت لمواكبة هذا التقدم، خاصة أن متطلبات العصر صارت تقتضي ذلك ضمانا لسيادتها و تقدمها، فقد " تحسس الحكام متطلبات عصرهم فحاولوا التكيف مع مجرى التطور الرأسمالي العالمي، بتطبيق إصلاحات فورية، و في سعيهم إلى تعزيز مواقعهم السياسية و العسكرية. و الإقتصادية، و جدوا أنفسهم مرغمين على الإستعانة بمنجزات العلم و التقنية الأوروبية"³، كما شغل المثقفين العرب هدف و هاجس واحد هو الرحلة إلى الغرب

¹ - المرجع نفسه، ص 584.

² - المرجع نفسه، ص 622-623.

³ - سالم المعوش، المرجع السابق، ص 54.

لنقل علومه إلى الشرق، و مواكبته عن قرب، من أجل الأخذ و التعلم منه لسد ثغرات التخلف و الإنحطاط التي يعاني منها الشعب المصري خاصة و العربي عامة¹.

تحت شعار الشغف و الرغبة في المعرفة قام " محمد علي " بإرسال البعثات إلى أوروبا للتعلم هناك، و قد كان متتبعا لهم و حريصا على " معرفة ما أفادوه من بعثاتهم، أن كان يحاسبهم في القلعة عقب عودتهم، و لا يسمح لهم بتركها، إلا إذا ألفوا أو ترجموا كتابا في المادة التي تخصصوا فيها، ثم يدفع الكتاب إلى المطبعة"². و قد أجمع المؤرخون بأن هذا الإتصال المباشر بفرنسا أثناء البعثة ساعد على تحفيز عقول المصريين "فكانت هذه البعثة الدافع الذي أيقظ المجتمع المصري و كافة المجتمعات العربية تحت شمل الأفكار الإبداعية لعالم عصري و فكر جديد مستوحى من الثورة الفرنسية و بهذه البعثة تولدت في المجتمع المصري أفكار أصيلة جديدة تمهد لحياة جديدة حيوية "³.

إذا كانت الحملة الفرنسية هي أول من وضع البذور الأولى للنهضة العربية، فإن هذه البذور لم يكتمل نموها ونضوجها إلا على يد محمد علي⁴، الذي كان له الفضل في وضع حجرها الأساس، و ذلك من خلال البعثات التي قام بإرسالها و قد كان رفيع

¹ - ينظر جمال مباركي، المرجع السابق، ص 62.

² - بوجمعة الوالي، الصراع الحضاري في الرواية العربية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1993م، ص 5.

³ - Mohamed Ahmed el Hanafy, l'image de l'autre à travers : la lompe à huile égyptien à paris de yahia haki (étude analytique et comparé) , université dalazhar- le caire – egypte – juin 2017, n° 09 , page 135.

⁴ - ينظر سالم المعوش، المرجع السابق، ص 55.

الطهطاوي من الأوائل الذين أرسلوا في هذه البعثة، و قد أثمرت رحلته تلك بكتاب قيم "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" باكورة اللقاء الحضاري العربي الأوروبي الذي يسر طريق النهضة الحديثة و تبرز أهمية هذا الكتاب، في إستعراضه لمظاهر التمدن الفرنسي، و في أنه أول كتاب عربي في العصر الحديث..... يعالج موضوع لقاء الشرق بالغرب، من خلال " طالب" ذهب الى أوروبا"¹.

إن إتصال الطهطاوي بالغرب إتصالا مباشرا و عن قرب جعله يلاحظ و يستنتج كل الفوارق التي تميز بها الغرب عن الشرق، فدون كل ما يتعلق بتقدم الحضارة الغربية لإفادة العرب في نهضتهم²، فالطهطاوي هدفه " ليس وصف الآخر بل قراءة الأنا في مرآة الآخر، فليست الغاية، الذهاب إلى باريس، بل العودة إلى مصر و ليست الغاية التعلم بل الإفادة بالعلم، فالذهاب إلى باريس هو تطبيق لفرمان "إحياء القلوب".....للحث على التعلم"³.

فالطهطاوي عمل ما في وسعه ليقرب لنا أسس الحضارة الغربية و استراتيجيتها وتقنياتها، و ذلك حتى نتعلم و نتطور و هذا ليس عيبا ما دمنا نأخذ منهم ما يناسب حضارتنا و أخلاقنا و مبادئنا، و لا يضر ديننا في شيء، و في ذلك يقول رسولنا

¹ - بوجمعة الوالي، المرجع السابق، ص 5.

² - ينظر زهرة بلحاج، الغرب في فكر هشام شرابي المرجع السابق، ص 28.

³ - المرجع نفسه، ص 29.

الكريم عليه ألف صلاة و سلام: " الحكمة ضالة المؤمن يطلبها و لو في أهل الشوك" ¹.

إذا هو الإحساس بالفارق هو الذي حرك أدبائنا العرب لمواكبة حضارة الغرب، الفارق بين ما يعانيه العرب من انحطاط و بين ما يتمتع به الغرب من تقدم و تحضر هو الذي أيقظهم من سباتهم ذاك و كون لديهم وعي بالنهضة " و من هنا تلك الثغرة الواسعة و العميقة في وعي العرب بالنهضة، الثغرة التي تجعل وعيهم هذا مجرد إحساس بالفارق، أي حصيلة مقارنة و مقايضة لا حصيلة تحليل و ممارسة. إن غياب تحليل الواقع - واقع الإنحطاط - و عدم الانطلاق من هذا التحليل لبناء نموذج مطابق يرتبط فيه إبتداء النهضة بالوعي بدايتها، هو السبب في ذلك التضخم في الطموح النهضوي العربي التضخم الذي يقفز على الواقع و يلغي الزمان و المكان و يجعل بالتالي علاقتهم مع أحد النموذجين تتحول إلى الحلول محله إلى تقمصه والإحتماء به" ².

لم تكن مصر الوحيدة التي إستقادت من ثقافة الغازي المستعمر، بل حتى المغرب العربي استفاد من فرنسا، و ذلك من خلال البعثات العلمية التي كانت تهدف

¹ - المرجع نفسه، ص 31.

² - د محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 5، 1994م، ص 24.

إلى تأهيل شباب المغرب العربي و توعيته، بتتوير عقله للعلوم التي تحتضنها أوروبا¹، فصار الجزائريون يركضون إليها سعيا للعمل فيها، أو طلبا للعلم فقد " ظهرت حركة الهجرة الطلابية الجزائرية نحو فرنسا في بداية القرن العشرين، و ازدهرت نسبيا ابتداء من سنة 1919م و خاصة في الفترة الممتدة من 1938م، إلى 1940م²، و من خلال هذه البعثات و الهجرات إكتشف الجزائري ذاته (الأنا) الضعيفة ثقافيا وعسكريا و علميا، المتخلفة في مقابل الآخر (الغرب) المتفوق "فرنسا"³، فأصبحت فرنسا متنفس للراحة و الحرية و العلم التي يبحث عنها الكثيرون.

لكل إستعمار نوايا سيئة خفية إتجاه البلد المستعمر لذلك فإن الحملة الفرنسية لم تكن كلها نعمة وهدايا تقدم للشعب المصري، بل اعتبرها الكثيرون فترة مظلمة ومؤلمة، تجرع شعبها مرارة و ذل لأن نوايا بونابرت سرعان ما انكشفت و اتضحت أهدافه التي كانت ترمي إلى القضاء على حكم المماليك و إستبداله بنظام آخر جائر⁴، و نهب كل خيرات مصر و الإستيلاء عليها، لأن مصر كانت وسيلتهم الوحيدة لكسر شوكة وهيبة إنجلترا، و ما حفزهم أكثر لدخول مصر، هو انهيار الإمبراطورية العثمانية

¹-ينظر جمعة طيبي، صورة المرأة الغربية في الرواية الجزائرية المرجع السابق، ص 133.

²- المرجع نفسه، ص 132.

³-ينظر المرجع نفسه، ص 132.

⁴- ينظر جمال مباركي، المرجع السابق، ص 63.

و تسابق الدول الغربية لاحتلالها، لذلك كانت فرنسا سباقة لاحتلالها خاصة أن مصر كانت دولة ضعيفة، لا وسائل لها للدفاع عن نفسها¹.

بقدر ما كان للحملة الفرنسية من إيجابيات نفعت و أفادت المصريين و لو بالقليل، بقدر ما كان لها الكثير من السلبيات ألحقت ضررا و أذى و هلاكا كبيرا بالمصريين، فمنذ متى المحتل الغازي تهمه ثقافتنا و تطورنا، ف نابليون بونابرت لم تكن غايته تثقيف الشعب المصري و تطويره و تنويره، فهي آخر همومه، بل غايته هي إلغاء الهوية الشرقية بمقوماتها و دينها و تقاليدها، و كل شيء له علاقة بالحضارة الشرقية، و في هذا يشهد المؤرخ عبد الرحمان الجبرتي فيقول: " ثم دخل الفرنسيون مصر غزاة فاتحين، فأسأوا إلى الناس في معاشهم، و عقائدهم و مقدساتهم، فكان للحملة الفرنسية فظائعها، و أخطاؤها الشائنة الشائعة، مما أساء إلى البلاد و العباد، حتى تمنى الناس التخلص منها بفارغ الصبر"².

إن الحملة الفرنسية لم تكن جنة أتى بها نابليون بونابرت إلى مصر، بل نار تحرق كل من يعرقل مصالحها، فهي لم تكتف بثروات مصر بل طمعت في بلدان عربية أخرى، " و كأن الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798م كان القصد منها جس النبض، تحضيرا لتجربة استعمارية كاملة و شرسة ضد البلدان العربية، سوف تنطلق

¹-ينظر د. محمد فؤاد شكري، الحملة الفرنسية و خروج الفرنسيين من مصر المرجع السابق، ص 31.

²- جمال مباركي، المرجع السابق، ص 63.

فعليا سنة 1830م، مع احتلال الجزائر¹، و كانت المواجهة عنيفة بينهما، و ما رآه الشعب الجزائري من فرنسا، لم يره اي بلد عربي " لم يعرف التاريخ المعاصر ظاهرة إستعمارية كالظاهرة التي عرفتھا الجزائر، كما أن الإنسانية الحديثة لم تتعرض لممارسة عنيفة كالتی عرفھا المجتمع الجزائري، خاصة أن الإستعمار الفرنسي لم یكتف بإحتلال الجزائر و سلب ثروتھا، و إنما حاول طمس معالمھا القومية و تفكيك بنيتها الثقافية"².

على الرغم من السياسة القمعية التعسفية الشنيعة التي إنتهجتھا فرنسا مع مصر و الجزائر، و حتى مع البلدان العربية الأخرى، فإن الكل قاومھا و طردها من وطنه، لكن الشيء الذي لم يستطيعوا طرده هو طريقة التفكير الغربي التي سيطرت على فكرهم، لأن فرنسا فرنست عقولهم و قلوبهم، و في ذلك يقول عبد الوهاب عزام: "أضل الشرقيون أنفسهم، فإذا هم أجساد تنبض بقلوب الغرب، و تفكر بعقله، و إذا هم مستسلمون لكل ما تطلع به أوروبا..... ثم إذا هم أذلاء، مقلدون يحقرون أنفسهم و آبائهم و ميراث حضارتهم، و تاريخهم إلى أن تعظم أوروبا أبا من آبائهم أو تعجب بمأثرة من مآثرهم، فيقتدوا بها إن الشرقيون يتلقون عن الغربيين أفكارهم وعقائدهم، كما يأخذون منهم منسوجات القطن و الصوف"³.

¹ - مصطفى فاسي، البطل المغترب في الرواية العربية، موزم للنشر الجزائر، د.ط، 2008م، ص 22.

² - جمعة طيبي، المرجع السابق، ص 130.

³ - عبد الوهاب عزام ملحق السياسة الأدبي عدد خاص بمؤتمر الطلبة الشرقيين نقلا عن سالم المعوش، المرجع السابق، ص 66.

إن الأمر الذي لم ندركه بعد، هو أننا قادرون على التغيير و التقدم متى شئنا ولوجدنا، و ليس حتى ننتظر الإستعمار الذي يأتي إلينا لينهبنا ثم يثقفنا، فالمستعمر هو مجرد إنسان، له عقل مثلنا، لكن الفرق بيننا و بينه هو أنه عرف كيف يشغل ذلك العقل و يفيد حضارته، المشكل فينا نحن، المشكل في أننا نستهيئ بقدراتنا و مواهبنا، فقد إعتدنا على أخذ الجاهز من الغرب، على تطبيق ما يقوله الغرب، فأين رأينا إذن، و المشكل الأساسي أيضا هو أننا أخذنا من الغرب الأشياء التافهة فقط كاللباس و المواد و غيرها من الأمور التافهة التي لا تنفعنا في شيء، فأين محل التكنولوجيا عندنا، أين هي العلوم التي كنا سباقين في إكتسابها في وقت مضى و أخذها الغرب عنا ثم تقدم علينا، أين الخلل إذن؟، الخلل ربما أننا مازلنا نعيش مع التراث بدليل أن تلك العلوم لم نطورها لكن الغرب فعل ذلك، فقد ضرب ضربته وحسم أمره في النهضة الأوروبية بينما نحن بقينا نتابع تطوراته من بعيد.

و الخلل ربما يرجع أيضا إلى نومنا العميق الذي لم نفق منه إلا و الإستعمار يخلع علينا بابنا، فأضعنا وقتنا حقا، متجاهلين قيمة هذه الثروة الضائعة ألا و هي "الزمن"، فإذا دق الناقوس في أي بلد أروبي تجد الكل مسرع إلى عمله، في حين إذا دق عندنا نحن العرب كأنه لم يدق إطلاقا و لا واحد فينا يلتزم بوقته، و هنا يكمن المشكل، فنحن لم نعي بعد العلاقة الوطيدة بين الزمن و التاريخ و النهضة أو الحضارة " هذا المعنى الذي لم نكسبه بعد، هو مفهوم الزمن الداخل في تكوين الفكرة و النشاط

..... فالحياة و التاريخ الخاضعان للتوقيت كان و ما يزال يفوتنا قطارهما، فنحن في

حاجة ملحة الى توقيت دقيق و خطوات واسعة لكي نعوض تأخرنا"¹، يقول الرسول (ص): "ما من يوم ينشق فجره إلا و ينادي: يا ابن آدم أنا خلق جديد، و على عملك شهيد فاغتنم مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة"، فكيف يا ترى سنعوض إذا هذا الوقت و الفرص الثمينة الضائعة من تاريخنا؟.

كل هذه الأسئلة و تلك فتحت بابا كبيرا و واسعا للنقاش الحاد و الخوض في معركة فكرية أساسها البحث عن سبب تأخرنا في تحقيق النهضة العربية، و هو سؤال لطالما أرق الكثير من الباحثين و المفكرين، يتساءل أحد الباحثين قائلا: "لماذا تطلب وفاق العرب مع العصر كل هذا الوقت الطويل، و دون جدوى؟ ثم يضيف قائلا: هذا السؤال المصيري، النازف كالجرح في ضمير كل عربي ملتزم، إذا كان ما يزال يأخذ يوما بعد يوم أبعادا مأساوية متزايدة فلأنه قد مضت على إرتطام هذه الأمة بالحضارة الحديثة و بمعطياتها و آلاتها سنون بعيدة بعيدة.

كتلة الأقاليم العربية مضت عليها الفترة الزمنية الكافية لتكون في مستوى العصر و تكنولوجيته و فيضه الحضاري معظمها على الأقل انطلق قبل الصين التي بدأت منذ ربع قرن، بعضها قبل روسيا التي بدأت منذ سبعين سنة، و بعضها قبل اليابان التي بدأت منذ مائة سنة. و مع ذلك فهذه الأمم وصل، كلها وصلت، بينما لم يصل

¹ - مالك ابن نبي، شروط النهضة المرجع السابق، ص 212-213.

أي إقليم عربي طليعي إلى شيء بعيد. مأساوية السؤال إنما تتبع من احتمالات الأجوبة عليه: فهل وصلت الأمة حقا مرحلة الشيخوخة فهي إلى الإدبار و العقم الحضاري؟ أو أضاعت الطريق؟ و أي طريق؟ أم ثمة من الأمراض المعقدة في تكوينها العام ما يشل المفاصل أن تسير السير الذي يقتضيه إيقاع العصر؟ تلك هي المسألة¹.

رد بعض الباحثين سبب تأخرنا في تحقيق نهضتنا الى جملة من الأسباب أهمها:

*إذا فتحنا القاموس العربي و بحثنا في مدلول كلمة نهضة نجدها تعني " القيام و الحركة"، أما إذا بحثنا عنها في القاموس الفرنسي الحديث نجد أنها تعني "الولادة الجديدة" "Renaissance"، و هذا الاختلاف في معنى الكلمة الواحدة " نهضة " سبب مشكلا كبيرا، فبينما كان الشعب العربي يطمح إلى القيام و الحركة، كانت أوروبا تضع أول خطوة لميلاد مرحلة جديدة " الحداثة"، مودعة بذلك عصر الظلمات²، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو ما الذي جعل العرب يختارون معنى القيام و الحركة؟ .

لم يكن باليد حيلة فالظروف القاسية هي التي فرضت ذلك، فكان من الممكن أن نختار كلمة "بعث" لكن هذا المعنى لم يكن مناسباً في تلك المرحلة الصعبة، " فما كان

¹ - محمد عابد الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط5، 2005م، ص 132.

² - ينظر الجابري، المشروع النهضوي العربي، مراجعة نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، 1996م، ص 63.

العرب في حاجة إليه هو النهوض لمقاومة التدخل الأروبي و الإحتلال الأجنبي و هذا النهوض يجب أن يكون في آن واحد قياما و حركة. القيام بمعنى إستجماع القوى و الإستعداد، و الحركة بمعنى مواجهة التهديد الخارجي، أما " النهضة" بمعنى التجديد أو تحقيق ولادة جديدة و هو المعنى الأروبي للكلمة، فشيء آخر....¹.

*رد أحد الباحثين سبب سقوط النهضة و فشلها إلى أيادي خارجية قائلا: "إنه كلما قطعت النهضة العربية شوطا في طريق التقدم يسارع الإستعمار إلى التدخل لإجهاض هذه الحركة و روادها، أي أن قوى خارجية كانت تبادر إلى التدخل في اللحظة التي يبدأ فيها الحصاد"²، و لعل هذه الظاهرة أصبحت واضحة في عصرنا الحالي، فما جرى لتونس و تركيا و بلدان أخرى من فتن و إنقلابات كلها أمور مخطط لها من أيادي أجنبية خارجية، فالأجنبي لا يتقبل أن يرى أي بلد عربي يزدهر و يذيع صيته من خلال سياحة أو تجارة فهذا ممنوع علينا، فإن تطورنا فالأجنبي سيكسر شوكتنا من خلال فتن يزرعها بيننا، يقول أحد الباحثين " و ها هي دول أخرى صغيرة لم نكن نسمع بها تشق طريقها و هي على قاب قوسين أو أدنى من الوصول، دول تحمل أسماء جديدة تماما على قاموسنا التاريخي و ذاكرتنا الحضارية، دول التايلاند و سنغافورة و كورية الجنوبية التي أصبحت تنعت بـ " النمر " نمر الشرق الأقصى،

¹ - المرجع نفسه، ص 64.

² - الجابري، الخطاب العربي المعاصر، المرجع السابق، ص 30.

هذا في حين بقينا نحن جامدين نحب ك " النعاج " أو " الأبقار " في الشرق الأوسط مهد الحضارات"¹.

حقيقة هذا الكلام حقيقة مؤلمة و صادمة، فكيف لمثل هذه البلدان التي لم تكن موجودة في خط الانطلاق و القيام للنهضة ان تصل قبلنا، ففي حين كان " محمد علي " يتحرك للنهضة كانت الصين مثلاً تتحرك لتحرير نفسها، فالمدة الزمنية للنهضة بيننا و بينهم بعيدة و مع ذلك مازال يطلق على العرب " الدول التي على طريق النمو"، أين المشكل اذن؟ المشكل في أن تلك الدول " لم تعان من الوجه " الآخر "..... أي لا من الاستعمار و لا من ربييته إسرائيل، كما أن أهميتها للغرب هي دون أهمية المنطقة العربية المتميزة بموقعها الإستراتيجي الذي كان و لا يزال يتحكم في الطريق إلى " الشرق " و بمخزونها النفطي الذي لا يمكن أن يستغني عنه الغرب، إذا عليه تتوقف حضارته و بالتالي حياته و ازدهاره"²، فما الحل إذا؟ مادام الإستعمار عرقل و سيعرق كل مشروع نقوم به، و سيقف ضد أي مشروع يكون لصالح نهضتنا و حدثتنا؟.

إن تحقيق النهضة العربية لابد له من شروط ثلاثة هي:

¹ - الجابري، المشروع النهضوي العربي، المرجع السابق، ص 170.

² - المرجع نفسه، ص 171.

1- سقوط الغرب " فعندما يسقط الغرب ستتعدم القوى الخارجية المعرقة لنهضتنا و إذا

ذاك سنتولى قيادة البشرية"¹، و هذا السقوط طبعاً هو أمر مستحيل و غير معقول، لذلك فالمقصود هنا هو أن نحاول أن نتحرر من تبعية الغرب و سلطته علينا.

2- التحرر من التراث: و لا يعني هنا الإستغناء عن تراثنا و رميه في سلة المهملات

، لا فهذا أمر مستحيل لأن تراثنا جزء من حياتنا فهو الأصل، و لكن لابد أن نتجاوزه فما هو ملاحظ اليوم أن " التاريخ الثقافي العربي السائد الآن هو في مجمله مجرد إجتزار و تكرار و إعادة إنتاج بشكل رديء للتاريخ الثقافي نفسه الذي كتبه أجدادنا تحت ضغط صراعات العصور التي عاشوا فيها و لذلك فنحن ما زلنا سجناء الرؤية و المفاهيم و المناهج التي وجهتهم، مما يجبرنا دون أن نشعر إلى الإنخراط في صراعات الماضي، إلى جعل حاضرننا مشغولاً بمشاكل ماضينا، و بالتالي النظر إلى المستقبل بتوجيه من مشاكل الماضي و الحاضر معاً"²، لذلك فقد آن الأوان لكي نتخلص من قيود الماضي و نحاول أن نؤسس لأرضية جديدة صحيحة و سليمة للمستقبل.

3-يبقى هذان الشرطان شرطان ناقصان اذا لم يتحقق و يتوفر فيهما الشرط

الثالث، ألا و هو شرطاً " حضور الأنا"، على أن يكون هذا الحضور حضوراً

واعياً، لها تاريخها و إستقلاليته الخاصة، قادرة على نقد الآخر و مواجهته يقول

¹ - الجابري، الخطاب العربي المعاصر، المرجع السابق، ص 36.

² - الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، المرجع السابق ص 38.

غرامشي في ذلك: " لا يمكن للإنسان أن يكون له تصور منسجم نقدي للعالم إذا لم يكن واعيا لتاريخيته و لمراحل التطور التي يمثلها واقعه التاريخي...."¹ و أيضا " إن نقطة انطلاق الممارسة المحكمة للنقد هي وعي الذات على حقيقتها: "إعرف نفسك" من حيث أنك حصيلة سيرورة تاريخية ظلت سارية حتى اللحظة الراهنة، سيرورة تركت فيك آثارا لا حصر لها دون أن تترك سجلا يحصيها. و لذلك كان من الضروري التأكيد البدء بكتابة هذا السجل"².

إن تحقيق النهضة العربية يحتاج إذا إلى اجتهاد كبير و مثابرة و عزيمة جادة، قوامها الإتحاد فيما بيننا نحن العرب، لأن الشيء الذي ينبغي أن نعترف به شئنا أم أبينا هو أن العرب كتلة منفصلة غير متحدة، و هذه هي نقطة ضعفنا التي إستغلها العرب، يقول أحد الباحثين أن: " نظرة إلى الواقع العربي ترينا أهمية و ضرورة و حتمية الوحدة العربية، فقدّر هذه الأمة الواحدة تاريخا و حضارة و ثقافة أن تتحد لتبني حضارتها و مستقبلها، إذ بدون وحدتها و تكاملها علميا و عمليا ستبقى في إطار التخلف مهما حققت بعض أقطارها من نمو في بعض القطاعات"³.

فالحل إذن بيد العرب، فبالإتحاد و التماسك و التعاون نبني أنفسنا من جديد، و ننهض بأنفسنا و مجتمعا نهضة تضاهي نهضة الغرب، و هذا ليس بالمستحيل مادام

¹ -غرامشي نقلا عن الجابري، الخطاب العربي المعاصر، المرجع السابق، ص 206.

² - غرامشي نقلا عن الجابري، الخطاب العربي المعاصر، المرجع السابق، ص 206.

³ - الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، المرجع السابق، ص 140.

الشعب العربي يملك المفتاح و العدة اللازمة لبناء المستقبل يقول مالك ابن نبي في ذلك:
"..... و ما دامت القيم الجوهرية الثلاثة: الإنسان و التراب و الزمن " و هي الزاد وقت
العسرة" في يد شعب فإن ذلك الشعب بلا شك يمسك بيده مفتاح الأقدار"¹، و مهما
واجهنا من عراقيل و صعوبات من قبل الآخر فلا ينبغي أن نستسلم لذلك، بل لابد أن
نفرض ذاتنا و نثابر لكي نصل.

¹ - مالك بن نبي، شروط النهضة، المرجع السابق، ص 228

الفصل الثاني

صورة المرأة الغربية

المبحث الأول: الغرب مركز للحرية و الجنس

المطلب الأول: تعارض القيم بين الشرق و الغرب إزاء الجنس

المطلب الثاني: تعطش الرجل الشرقي و المغاربي للحرية و الجنس

المبحث الثاني: صورة المرأة الغربية

المطلب الأول: المرأة و حرية ممارسة الجنس

المطلب الثاني: المرأة الغربية الإستغلالية الخائنة

المطلب الثالث: المرأة الغربية و سحر الشرق

المطلب الرابع: نشاط المرأة الغربية العمل

المطلب الخامس: المرأة المثقفة

المطلب السادس: بين المرأة الشرقية و المرأة الغربية

المبحث الأول: الغرب مركز للحرية و الجنس

لكل حضارة معالم و قيم و مبادئ خاصة بها، الهدف منها توجيه الفرد و المحافظة على نظام المجتمع و اصلاحه، و الواجب على كل فرد من الأفراد أن يلتزم بهذه القيم المطلوبة منه، لضمان السير الحسن للمجتمع. و نحن في هذا البحث أمام حضارتين مختلفتين في القيم، حضارة شرقية و الأخرى غربية، فما هي خصوصيات و مميزات كل منهما؟ .

المطلب الأول: تعارض القيم بين الشرق و الغرب إزاء الجنس

لقد أحدثت النهضة الأوروبية تغيرات و تحولات جذرية في المجتمعات الغربية، خاصة فيما يتعلق بقضية المرأة، فقد منحتها الحرية الكاملة في سلوكها و انشغالاتها فقدست جمالها و انشغلت بملذات جسدها، و أصبحت المرأة الغربية تشغل حيزا كبيرا في المجتمعات الأوروبية، و في ذلك تقول إديث سيكل: "أوجدت النهضة عصر للمرأة، و هيأت لها مجالا جديدا و أهمية جديدة، ذلك أن تهافت النهضة على الجمال وتطوراتها الإجتماعية السريعة و نشاطاتها العاطفية، و أوجه النشاط المختلفة التي تضمنها هذا كله، انما كان ملائما لقدرات المرأة تماما..... و أثرت المرأة في الحياة بقدر ما أثر التصوير و النحت و الشعر في الجمال و الفكر، إذ كانت المرأة هي

موضوع هذه المجالات الفنية و الأدبية..... و إنطلقت المرأة ترقص و تغني¹ و تفعل ما يحلو لها.

إن أهم عنصر ركزت عليه النهضة الأوروبية و دعت إلى تحقيقه هو حرية الفرد، لكن هذه الحرية الزائدة و المفرطة هي التي أفست طبع الفرد الأوروبي و أخلاقه، فخرج الناس عن تقاليدهم و دينهم، فكثر الفساد الذي أدى إلى إنصراف الأفراد عن الزواج و الإكتفاء بالعيش مع امرأة بدون أي روابط شرعية، و هذا كله من أجل إحتفاظهم بحريتهم المطلقة التي لا يقيدوها أي قيد و رابط شرعي، فحياة الهوى والعشق أنعم عندهم من رابط الزواج²، وشعارهم هو إستقلال الفرد.

إن ما زاد في تهيج الأوروبيين « اللذة » هو أجهزة الإعلام و المجالات التي تعرض صوراً لنساء غريبات عاريات يحفرن الرجال على اللذة و الجنس تحت عنوان الحرية الشخصية الجنسية³، و في هذا الموضوع بالذات كتب رئيس تحرير مجلة (الايون ريبلكان): " أنه إنتشرت في الغرب الحركة الاباحية التي تتنادي بالتححرر والتحلل من قيود العفة و الطهارة، و كان لهذه الحركة كغيرها من الحركات و روادها الذين أخذوا في تزيين فكرهم و محاولة إقناع الناس به، فنادوا بالحرية الجنسية، على

¹ - إديث سيكل نقلا عن السيد رجب حراز، عصر النهضة، دراسة في الحضارة الأوروبية الحديثة، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ط، د.ت، ص 181.

² - ينظر السيد رجب حراز، المرجع نفسه، ص 181-182.

³ - ينظر أسماء العريف بياتريكس، الآخر في المخيال، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت د.ط، د.ت، ص 105.

أن يمارس الإنسان الجنس أينما شاء و كيفما شاء بلا حدود أو قيود"¹، فهم يرون أن الالتزام بمبادئ العفة و الحد من التحرر الجنسي هو ضرب من الرجعية لذلك نادوا بالإباحية الجنسية²، و أن إشباع اللذة من حق كل فرد غربي و هو ما سموه "démocratization of hedonism"³، أي أن المرأة الغربية أصبحت متاحة لكل طالب لذة، سواء غريبا أو شرقيا .

إن القيم المشتتة التي تتمتع بها الحضارة الغربية، و تدعو أبناء شعبها إلى التحلي بها، عارضها كثيرون و إنتقدوا سلوك فرداها الغربي ، و من بين هؤلاء المعارضين المفكر الأمريكي "فيلمر استيورت كاكو نورثروب"⁴، الذي إنتقد الحضارة الغربية، و أشاد بقيم و أصالة الحضارة الشرقية، يقول في ذلك: "إننا في الولايات المتحدة الأمريكية، و جيراننا في الغرب الحديث، مرتبكين من الناحية الأخلاقية، مفتقدين الطريق الصحيح، فليس السبب في ذلك أننا أنجزنا معرفتنا العلمية، و نجحنا في مجال التكنولوجيا، و لكن السبب أننا تابعنا هذه المعرفة من الناحية الفلسفية، كما

¹- لالايون ريلكان نقلا عن عبد المنعم عبد الله جبري، المرأة عبر التاريخ البشري، دار الصفحات للطباعة و النشر، د ط. دت، دمشق ص 9.

²- ينظر محمد المبارك، بين الثقافتين الغربية و الاسلامية، دار الفكر، د ط، 1980م، ص 86.

³- ينظر عبد الوهاب المسيري، دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مكتبة الشروق الدولية ط 1 2006م ص 120.

⁴- كاكو نورثروب (1893-1992م)، مفكر أمريكي و هو من أعظم الفلاسفة و المفكرين المعاصرين في امريكا.

أننا إبتعدنا عن وعينا الأخلاقي...¹، إن هذا الكلام يمثل إعترافا صريحا من مفكر غربي أمريكي بأن الحضارة الغربية يتيمة المبادئ مفتقدة للقيم الأخلاقية، و هذا راجع إلى سببين رئيسيين هما:

الأول: غياب الوازع الديني القوي.

الثاني: إبتعادهم كل البعد عن الوعي الأخلاقي²، فأساس القيم الغربية و عمودها، محورين أساسيين هما: " المال و الجنس اللذان لا يشكلان إلا العدوان الطبقي الذي يستهدف إهدار كرامة الإنسان، تحت شعار الحرية و الإيحاء و هذا دليل من دلائل التدهور"³.

إذا كان الغرب يرى في المرأة مجرد جسد و بضاعة تستهلك و تبتاع متى أراد الرجل ذلك، و هذا كله تحت شعار (الحرية)، فإن الإسلام يرى المرأة مخلوق قدره و قيمته أسمى وأنظف من ذلك الفعل الدنيء، لذلك دعى إلى صيانتها من كل دنس يلطخ شرفها وسمعتها، و هذا حتى يحميها من أطماع و شهوات الرجال⁴، و لكي يبغي مكانتها عالية و رفيعة، أوجد حلا للطرفين ليحميها من إرتكاب الفواحش و الحرام و يبعدهما عن الزنا، و هو الرباط المقدس (الزواج) الذي يمنحهما كل الحق

¹ - فيلم إستورث كاكو نورثروب the taming of the nations study of the culture of Bases of international نقلا عن وفاء عبد الحليم محمود، نقد نورثروب للحضارة العربية و موقفه من إلتقاء الشرق و الغرب، دار الوفاء لدنيا الطباعة الإسكندرية، د.ط، د.ت، ص 35.

² - ينظر وفاء عبد الحليم محمود، المرجع نفسه، ص 36.

³ - المرجع نفسه، ص 37.

⁴ - ينظر عبد المنعم عبد الله جبيري، المرجع السابق، ص 30.

بالقيام بهذه العلاقة الجنسية، يقول الله عز وجل في ذلك " و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون"¹ و يقول أيضا " من عمل صالحا من ذكر أو أنثى و هو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة و لنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون"².

لم يبخل علينا ديننا الحنيف بالحرية التي يتمتع بها الغرب، لكن الحرية التي منحها لنا، لها شروط و ضوابط و هذا حتى يحمينا من شرور الفاسدين، و يحمينا من نفسنا الأمارة بالسوء، لذلك وضع لنا قوانين و مبادئ تهذيبية دينية توجهنا للطريق المستقيم، فالحرية التي تضرنا منعها عنا و نحن طبعا في غنى عنها، و في هذا يقول "خير الدين التونسي" ليبين أن الاسلام كان سباقا للحرية الفردية المهدبة يقول: "إن الحرية و الهمة الإنسانية اللتين هما منشأ كل صنع غريب غريزتان في أهل الإسلام، مستمدتان مما تكسبه شريعتهم من فنون التهذيب، بخلاف غيرهم من لم تحصل لهم الغريزتان المذكورتان إلا بإجراء التنظيمات في بلدانهم"³، و يشاطره في هذا الرأي " أحمد فارس الشدياق" الذي يقول: " لا جرم أن الحرية أمر حسن يتمناه جميع الناس إلا أنها متى آلت إلى إنتهاك الأدب وجب منعها"⁴.

¹ - سورة الروم الآية 21.

² - سورة النحل، الآية 97.

³ - خير الدين التونسي، أقوم المسالك نقلا عن نازك سابا يارد، الرحالون العرب و حضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، مؤسسة نوفل للنشر، بيروت، ط1، 1979م، ص 37.

⁴ - أحمد فارس الشدياق، كنز الرغائب نقلا عن نازك سابا يارد، المرجع نفسه، ص 42.

إن الشريعة الإسلامية الغراء همها الوحيد هو الحفاظ على مكانة المرأة و التكفل بكل حقوقها، و الحق يقال أنها ساوت بينها و بين الرجل و ألغت كل تمييز بينهما " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير"¹، و حثها و دعته للعلم و المعرفة و هي اليوم تمارس كل حقوقها الطبيعية (العمل)² وفق ما تنص عليه تعاليم و مبادئ ديننا الحنيف (الإسلام).

كثروا من تدمروا من هذه الحرية التي منحها لنا الإسلام، و اعتبروها حرية مقيدة مكبلة للرجل الشرقي، لأنها لا تعطيه الحق في ممارسة الجنس إلا عن طريق الزواج، و لعل هذا ما جعل بعض الرجال الشرقيين يذهبون خفية لممارسة الجنس الذي حرموا منه، و هناك من رأى في هذه الحرية المقيدة قتلا لشهوة المرأة الجنسية، حتى أصبحت معقدة من جسدها، تشير فوزية الصفار في قولها: " حرمان و كبت في الشرق بالنسبة للمرأة و الرجل، بقينا نعاني مخلفاته إلى اليوم، بإسم الأخلاق و الدين، حرمونا لا من ممارسة الجنس فحسب بل حتى من الحديث عنه"³.

من خلال كل هذا الكلام الذي ذكرته آنفا، و من خلال هذا القول الذي إستشهدت به أخرا، إنطلقت بقلمى لأضع النقاط على حروف هذا الموضوع بالذات،

¹ - سورة الحجرات الآية 13.

² - ينظر عيسى الحسن، موضوعة الحضارات، تاريخ، لغات، أعلام، قيم حضارية، عادات و تقاليد، الأهلية للنشر و التوزيع، بيروت، ط2، 2009م، ص 294.

³ - فوزية الصفار، أزمة الأجيال العربية، دراسة في موسم الهجرة إلى الشمال للطبيب صالح، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر، د.ط، 1980م، ص 119.

من خلال آراء الكتاب المتناولين في هذه الدراسة في قضية " الجنس و المرأة الغربية" و الدور الذي تشغله المرأة الغربية في مجتمعها و سر إقبال الرجل العربي متلهفا لملاقاتها، لكن قبل أن أختتم هذا المطلب أريد أن أعقب على كلام فوزية الصفار و أقول أن الإسلام لم يحرمنا لا من ممارسة الجنس و لا من أي أمور أخرى، بل حل ذلك عن طريق الزواج، لكن البعض تجاهلوا تعاليم دينهم و استهوتهم حرية الغرب فاعتبروا تعاليم ديننا كبتا و حرمان، فانساقوا وراء شهواتهم.

المطلب الثاني: تعطش الرجل الشرقي و المغاربي إلى الحرية و الجنس

إن نشوء الرجل الشرقي في مجتمع تربوي طهراني قاسي، قائم على التسلط و التجبر و الحد من حرية الأشخاص و رغباتهم خلف له فيما بعد عدة عقد و أزمات نفسية جعلته يشعر بأنه إنسان ناقص و محروم من ألقه و أدنى الحقوق¹، خاصة إذا ما قارنا بينه و بين الإنسان الغربي الذي يتمتع بالحرية الكاملة، و قد أشار " فرنسيس بن فتح الله مراش " إلى الظلم و الإستبداد الموجود بالشرق في مقدمة كتابه " رحلة إلى باريس " حيث يقول: " رأيت القوي يدوس الضعيف و يأكل لحمه و يشرب دمه و يكاد لا يشبع و لا يروى. رأيت أقواما يرضعون الذل و الخوف من ألداء أمهاتهم و وجوههم مائلة نحو الشفق لطلب صدقة و في أيديهم حقاقا فولاذية مطبوعة على أفكارهم و حريتهم حتى لا تتحرك"².

و لا يتوقف "مراش" عند هذا الكلام، بل يقارن بين الشرق و فرنسا فيقول: " فكم سرور و إندهاش للأعين، إذ عندما ترى هذه الأمة الفرنسية رافلة بأذيال الحرية الكاملة بدون خشية من التعثر بأشواك سيادة بربرية أو سلطة ضاربةلابسة ثياب الدين و الدنيا بدون جزع.....، و لا دعر من سطوات شريعة مارقة"³.

¹ - ينظر جورج ازوط، سهيل ادريس في قصصه و مواقفه، دار الآداب بيروت ط1، 1989م، ص 99.

² - فرنسيس بن فتح الله مراش، رحلة الى باريس، نقلا عن نازك سابا يارد، المرجع السابق، ص 65.

³ - المرجع نفسه، ص 65.

إن هذا النظام الشرقي الأبوي الذي إعتبره البعض " كمراش " و غيره نظاما مستبدا ومتخلفا، هو الذي حتم على الرجل الشرقي البحث عن الحرية في مكان آخر يحقق له إستقلاليته و راحته، لذلك فإن أول ما سمحت له الفرصة شد رحاله إلى عواصم الغرب بحثا عن حريته من جهة و إرواء لظمئه الجنسي من جهة أخرى، فقد ملل و هو يسمع من بعيد عن جسد المرأة الغربية، و يتفرج عليها من مكان أبعد متاحة لكل زائر يبحث عن اللذة، فجاشت عواطفه، و قرر السفر إلى بلاد الغرب لرؤيتها و الإحتكاك بها عن قرب و عن هذا تحدث " أحمد زكي " في كتابه "السفر إلى المؤتمر"، حيث رد سبب السفر إلى بلاد الغرب و الغاية منه هي أن " نمتع النواظر برؤية الوجوه النواظر، و اللحاظ الفواتر و الثغور البواسم، و الخدود النواعم، و القدود المياسة و الخصور النحيلة إلى وراء ذلك مما هو وراء الوصف"¹.

إن ميل الرجل الشرقي للمرأة الغربية سببه جسدها المغري ، لذلك إقتفوا أثرها حتى وصلوا إليها، و لعل خير دليل على معاناة هذا الرجل في المجتمع الشرقي، و توقه إلى الحرية، ما جسدهته الرواية العربية من واقع مرير، و من بين هذه الروايات، رواية "الحي اللاتيني" لسهيل إدريس، رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح، و رواية "عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم ، و رواية " ما لاتذروه الرياح " لعرعار

¹ - أحمد زكي، السفر إلى المؤتمر نقلا عن جمعة طيبي، صورة المرأة الغربية في الرواية الجزائرية، رسالة دكتوراه العلوم، جامعة الجزائر، 2016/2015م، ص 38.

محمد العالي، و رواية " المرأة و الوردة" لمحمد زفزاف، و قد جسدت وضعه أحسن تجسيد.

يمثل الحي اللاتيني بفرنسا بالنسبة للشباب العربي الشرقي دنيا جديدة مليئة بالأحلام والمفاجآت السارة¹، التي يحلم بها كل شاب عربي عرف نوعا من الاضطهاد و السيطرة في شرقه المتخلف الذي يريد أن يكبله بقيود التقاليد و الأعراف الشرقية التي تعيق طريقه و طموحه، فلم يجد حلا إلا أن يحزم أمتعته لقطع البحار و الوصول إلى بلاد الأنوار (الغرب)، بحثا عن الحرية التي إفتقدها في وطنه .يقول البطل " الذي تريده الآن هو أن تضع حدا لحياتك القديمة فأى شأن هو شأنك في هذه الحياة ، و أية قيمة كانت لك في وطنك و قومك و مجتمعك"²، فهدفه المنشود كان الحرية و التحرر " إن قصارى ما يشعر به هو أنه يود أن يتنفس هواء جديدا"³. و همه الوحيد هو المرأة الغربية التي لطالما سمع عنها و حلم بها و تعطش لها " أسبوع طويل ينقضي، و في جسدك نار تلتهب، و في مخيلتك ألف صورة و صورة لنساء عاريات.....، لا تحاول أن تحتج أو تنكر، أجل شرقك ذلك لم يغرك منه سوى خيال المرأة الغربية، سوى اختفاء المرأة الشرقية في حياتك"⁴.

¹ - ينظر مصطفى فاسي، البطل المغترب في الرواية العربية، موفم للنشر، الجزائر، د.ط، 2008م، ص 145.

² - سهيل إدريس، الحي اللاتيني، دار الآداب، بيروت، ط 15 ، 2007 م، ص 6.

³ - المصدر نفسه، ص 6.

⁴ - المصدر نفسه، ص 25.

لم يكثر بطل "الحي اللاتيني" لما ينتظره من حياة و مصير في هذا العالم الجديد، بل المهم عنده هو التخلص من أغلال الشرق، حتى و إن كان الطريق الجديد الذي سلكه طريقاً مظلماً، موحشاً، فهو لا يبالي لذلك بل قتل كل شيء يذكره بالماضي، فتتكر لأصدقائه، و أهل وطنه، فأمامه الآن حياة جديدة " كفاك هدرا، أنت تنسى مرة أخرى أنك في باريس، أخرجها من نفسك بيروتك هذه، أخرجها فاقتلها ثم إدفنها، أما باريس فواجهها كما هي و تأملها ملياً، و لن تلبث هي نفسها أن تتسلل إلى قلبك فتعيش فيه"¹.

لقد أصبح لحياة البطل الآن طعم آخر للحياة ، كيف لا؟، و قد صار الآن بجانب المرأة الغربية، فتاة أروبا الشقراء التي لطالما هتف بها و أرقه البعد عنها حتى أصبحت هاجسه الوحيد، لأنها الوحيدة التي تستطيع أن تشفي أمراضه و تنسي همومه " تبحث عنها..... عن المرأة..... تلك هي الحقيقة التي تنساها..... بل تتجاهلها، لقد أتيت إلى باريس من أجلها"².

إذن هي الأنثى الشقراء، هو التعطش للإرتواء في أحضانها و إمتصاص رحيقها، والرغبة في إكتشافها و التمتع بخباياها، هو ما أخذ الرجل الشرقي إلى باريس، أو أي مكان في بلاد الغرب كلها، فلم يذهب طلباً للعلم أو العمل، بل طلباً

¹ - المصدر نفسه، ص 19.

² - المصدر نفسه، ص 23.

للذة، فهو يرى باريس أو الغرب كله عاصمة أو مركزا للأنثى الشقراء المتحررة، المطلوبة بكثرة، و المتاحة في أي فترة¹، لأن الغرب " أصبح مستقر الباحثين عن اللذة و الجنس، و بخاصة في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين، و متنزها للسياح العرب، فقد ملاؤا شوارع باريس، و بخاصة سوق البنات..."².

يصف " عبد العزيز المقالح" معاناة الشاب العربي فيقول " حيث يعيش فيه الشباب هناك أزمة الجنس كمشكل إنساني و إجتماعي يراد له حل عاجل في ظل القيم الحضارية الإنسانية الجديدة"³. فالرجل العربي إنسان محروم مكبوت، جوعان و لعل هذا الكبت هو ما جعل بطل " الحي اللاتيني" يطلب المرأة " لجسدها لا لشخصها، يطلبها ليروي غلة و ليطفئ ظمأ، لا ليقيم علاقة بكل ما في كلمة العلاقة من مفهوم المشاركة"⁴، أي أن الغاية منها هي الإرتواء الجنسي فقط، و هذا ما لاحظناه عند لقائه بفتاة السينما التي ضرب لها موعدا من غير أن يرى وجهها حتى، و في الأخير أخلفت مواعدها، فأخذ يحدث نفسه جراء هذا، و يبرر سبب عدم قدومها

¹ - ينظر جمعة طيبي، المرجع السابق، ص 46.

² - حسن عليان، العرب و الغرب في الرواية العربية، دار مجدلاوي للنشر، عمان، ط 1، 2004م، ص 124.

³ - د. عبد العزيز المقالح، أصوات من الزمن الجديد، دراسات في الادب العربي المعاصر، نقلا عن بوجمعة الوالي، الصراع الحضاري في الرواية العربية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1993-1994م، ص 35-36.

⁴ - جورج طرابيشي، شرق و غرب، رجولة و أنوثة، دار الطليعة، بيروت، د ط، د ت، ص 75.

إلى أن توصل إلى القول " بل كانت شفقة، لا ريب بأنها شعرت بأن هذا الذي على يمينها، شاب مسكين شرقي جوعان، سلخ كثيرا من ايامه في الكبت و الحرمان"¹.

لم يكن الرجل الشرقي البطل الوحيد الذي عانى من ظلم و إضطهاد نظام مجتمعه الجائر، بل حتى البطل المغربي عانى من عقد و مرض مجتمعه ، فلم يجد مخرجا إلا أن يركب المغامرة و يقصد بلاد الغرب لعل الحظ يبتسم له هناك و يجد ما يبحث عنه، ففي النهاية هو مثل أي شاب عربي متعطش للحرية و متلهف للقاء فتاة أحلامه (المرأة الغربية).

إن الظروف القاسية المزرية هي التي دفعت بالبطل المغربي لخوض تجربة السفر إلى الغرب، فالغرب كان الواقع البديل للواقع المغربي الذي لا ينتهج إلا سياسة الظلم و القهر مع أبناء أمته و لا يعرف سياسة غيرها، يصف الصديق (جو) للبطل (محمد) هذا الوضع المؤلم السائد في المغرب قائلا: "إنهم لا ينظرون إليك هنا إلا بعين فوقية، تتخيل الواحد كما لو كان إلها و لكنه اذا حدثك تجده بليدا أميا لا يقرأ حتى جريدة، و عندما ينظر إليك ترهبك نظراته و كأنه إنسان خطير يقرر مصير الأمم، الرجل الأوروبي على عكس ذلك..... إنني أحب أوروبا"²، و كيف لا يحب أوروبا و قد وجد فيها ضالته (الحرية، المال، المرأة) يقول الصديق "جو" " وجدت ذاتي في

¹ - المصدر نفسه، ص 37.

² - محمد زفزاف، المرأة و الوردة، الشركة الوطنية للنashرين المتحدين، الرباط، د.ط، د.ت، ص 26.

أروبا وبالخصوص في أمستردام، قضيت هناك أربع سنوات و عشت مثلما يعيش الملوك والأباطرة. هل تعتقد أنني كنت أعمل يدي في شيء؟ لا، لا، لا..... كنت أكل و أشرب و أرتدي أفخر الثياب و أنكح أجمل النساء"¹.

إن هذا الكلام الشيق المغربي عن أروبا حفز البطل (محمد) ليمضي قدما إلى بلاد الغرب، هاربا من ذلك الوسط المظلم الموحش الذي لن يكون له فيه مستقبل، فقد خفق قلبه الآن لحياة جديدة كلها سعادة بعثها فيه صديقه (جو)، يقول البطل محمد " لكني كنت متيقنا من شيء، هو أنه نفخ في روحا جديدة حتى كنت راضيا عن نفسي"².

إن أروبا هي ملاذ كل بئس يائس يبحث عن طعم للحياة، يريد أن يشم و يستنشق رائحة الحرية، الحرية التي حرم منها في وطنه، فما إن وصل البطل إلى إسبانيا و صار يتجول في شوارعها الفسيحة حتى أحس بأن قيود الماضي قد إنفكت عنه خاصة عندما تعرف على سوز حبيبته التي أعادت إليه الحياة . يصف لنا البطل إحساسه الجميل بالحرية قائلا " شعرت أن الرمل تحت قدمي لا يشبه رمل شواطئ الوطن، حتى الهواء كان غريبا إلى حد الجنون، حتى حركات إنخفاض و صعود الرئتين في القفص الصدري تغيرت صارت ذات نسق آخر حي. في السابق كان كل

¹ - المصدر نفسه، ص 27.

² - المصدر نفسه، ص 29.

شيء رتيباً، كنت أشم الهواء و أشعر بقيود حديدية تكبلني الآن.....شعرت بالحرية"¹، فأمام البطل الآن دنيا جديدة جميلة لن يفرقه عنها إلا الموت يقول " كان خوفي من الموت إذ ذاك شديداً، لماذا أموت و أنا مشرف على أروع حياة سوز و الحب و الجنس و الخمر"².

إن دخول سوز إلى حياة البطل (محمد) زادته أملاً و تشبثاً بالحياة، فهي المرأة الحنونة التي ساعدته على تجاوز عقده و مكبوتاته، فقد إستطاعت أن تعيد له الثقة بنفسه و برجولته، فشعر بالحرية المطلقة التي إفتقدها في وقت مضى، يقول البطل "صمتنا بهدوء، أخذنا نتنفس باستراحة.... شعرنا بالأمن في العالم، كان العالم كبيراً لكنه صغير تحت ملكنا، على الأقل تحت ملكي الخاص. يمكنني أن أذهب أينما أشاء و أحل أينما أشاء، فلا أحد و لا شيء يمنعني..... و أعتزف لنفسي أنها صارت حرة"³.

إن هذا الكلام هو خير دليل على أن البطل المغربي عانى من كبت و حرمان كبيرين، و الكبت هنا ليس كبتاً جنسياً فقط و لكنه كبت عاطفي بالدرجة الأولى، فالعلاقة التي كانت تجمع البطل (محمد) بأبيه هي علاقة جافة ميتة، مجردة من المشاعر غير مشبعة بالحنان و الدفء العائلي بدليل انه عندما يذكر والده يشبهه

¹ - المصدر نفسه، ص 72.

² - المصدر نفسه، ص 83.

³ - المصدر نفسه، ص 60.

بالحيوان¹، يقول: "لا أدري كيف حصل ذاك المساء: أن أتى بكمية كبيرة من التين الجاف وضعتة أُمي امامنا على الحصير و التقفنا حوله أنا و إخوتي - بينما أبي يراقبنا من فوق - إذ كان قد شبع من تناوله، و أصبح يتجشأ مثل حيوان غريب...."²، فهذا الوالد لم تكن له و لا ذرة عطف و رحمة على أبنائه، فكان عندما ينزعج منهم يطردهم من البيت دون رحمة أو شفقة، يقول البطل "أغلقت أُمي فمها و لم تعد إلى البيت إلا بعد أربعة أيام، لأن أبي منعنا من ذلك، و هددنا بالقتل"³، فهذا الحرمان هو ما أثر على نفسية البطل و انقلب عليه بالسلب و هو ما أصبح يسمى بعراقيل أو مكبوتات الماضي التي لم يستطيع تجاوزها إلا مع سوز التي مثلت له الحبيبة (الجنس) و العائلة (العاطفة).

فتجربته الجنسية مع سوز مرت بمرحلتين، من " ممارسة الجنس "البهيمي" إلى ممارسة الجنس الإنساني المرتبط بعاطفة المحبة"⁴، و من هنا تصبح سوز في نظره امرأة خاصة مميزة يقول البطل محمد: " شعرت أن سوز لا كأى امرأة أخرى، تعرف كيف تساهم في إعطاء العالم الحنان، و العذوبة و التناغم ، و على العكس، فبعض النساء اللائي عرفتهن كن يجعلن العالم يكشر في وجهي فأشعر بخوف و إرهاب

¹ ينظر لحמיד لحمداني، في التنظير و الممارسة، دراسات في الرواية المغربية، دار قرطبة للطباعة و النشر، الدار البيضاء، ط1، 1986م، ص 120.

² - محمد زفزاف، المصدر السابق، ص 48.

³ - المصدر نفسه، ص 48.

⁴ - حميد لحمداني، المرجع السابق، ص 119.

أقلص و أنزوي و أصبح مثل السلحفاة التي تدخل أعضائها تحت غطاءها"¹، فبفضل سوز إستطاع البطل إذن أن يخرج من ذلك التوقع و الإنطواء الذي ظل يلازمه سنين طويلة إلى أن وجد الدواء لذلك الداء المستعصي، ألا و هو "سوز" منقذته، فسوز و إسبانيا هي الروح الجديدة التي أنعشت البطل (محمد)، يعترف البطل في الأخير بذلك قائلا "سوز أحبك، و أحب الدانمارك، أنتظر دائما أن تتقديني، أحبك...."².

لا يختلف "البشير" بطل رواية ما لا تذروه الرياح عن "محمد" بطل رواية المرأة و الوردة فكلاهما مولوعان بأروبا، فالبشير شاب مهووس بباريس، متعطش للحرية التي تنعم بها، ساخط على الحياة القاسية التي يعيشها في الجزائر يقول " لماذا خلقت؟ لماذا وجدت في هذا العصر و هذا الوضع؟ هل يمكن أن أكون إنسانا آخر، أعيش في قطر آخر مع أناس آخرين؟ هل أستطيع التدخل في شؤوني، و أغير مجرى حياتي؟...."³، و قد بدأت رحلته إلى أروبا عندما أخذه العسكر للخدمة العسكرية، و كانت هذه فرصة لا تعوض بالنسبة له و عليه ان يغتتمها، فهنا سيبدل قصارى جهده لينال إعجابهم و رضاهم حتى يأخذه معهم إلى فرنسا، و بالعمل و الإجتهد و طاعة الأوامر حقق ما يصبو إليه و وجد نفسه في أروبا، و هنا أحس أن أبواب السعادة كلها فتحت له يقول " الحمد لله....إن باريس بجانبني تسري عن بالي الهموم و تفتح أبواب الحياة

¹ - محمد زفزاف، المصدر السابق، ص 61.

² - المصدر نفسه، ص 110.

³ - عرار محمد العالي، ما لا تذروه الرياح، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ط2، 1982م، ص 48.

السعيدة أمامي....نعم المدينة أنت يا باريس...¹، فباريس البلاد الساحرة هي التي ستمنحه الحرية التي يبحث عنها.

بمجرد وصوله الى فرنسا حتى إتخذ البشير موقفا عدائيا إتجاه وطنه و أهل وطنه، فهو لا يريد أن يسمع أو أن تربطه أي علاقة بهم لا من قريب و لا من بعيد، فهو الآن إنسان جديد، ابن فرنسا و يريد ان يكون مثل أبنائها الفرنسيين سواء في تصرفهم او في طبيعة تفكيرهم و حتى في طريقة معيشتهم²، يقول البشير " أنا لست جزائريا، و الجزائر لا تهمني، لقد أصبحت مثلكم فرنسيا، لا علاقة لي بما هو في خارج فرنسا"³، حتى إبنه الذي هو من لحمه و دمه لم يعترف به وشك أنه منه، و ما هذا الشك إلا حجة حتى يقطع كل صلته بإبنه يقول: " قرر البشير مع نفسه قرارا حازما، هو أن لا يهتم بالنبا الذي سمعه فيقصيه عن ذهنه حتى لا يعكر عليه صفو حياته ... فليجعل كل شيء بعيدا عنه، إنه يقطن فرنسا و الولد يقطن الجزائر، فكلاهما بعيد عن الآخر.....فمن يؤكد أن هذا الإبن هو ابنه فعلا.....؟"⁴.

لم يكتف البشير عند حد قطع علاقاته مع أهل بيته و وطنه من أجل نسيان الماضي، بل تجاوزها إلى أبعد و أخطر من ذلك و هي أن يغير إسمه العربي "البشير"

¹ - المصدر نفسه، ص 66.

² - ينظر د. محمد مصايف، الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية و الالتزام، الدار العربية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1983م، ص 289.

³ - عرار محمد العالي، المصدر السابق، ص 80.

⁴ - المصدر نفسه، ص 77.

الذي يحدد كل هويته، و يتسمى بإسم "جاك"، و ما هذا التصرف إلا دليل على ان
البشير أراد أن " يحطم الجسر الأخير الذي كان يربطه بماضيه، و بهذا الإسم الأجنبي
الجديد أصبح في إمكانه أن يلج الأوساط الفرنسية، و أن يتصل بفتيات باريس دون ما
عقد نفسية"¹، فإنطلق و إنساق وراء حياة الصخب، حياة الخمر و البحث عن المرأة
الغربية، فهو لم يأت إلى باريس إلا بحثا عن الحرية و بحثا عن الفتاة الغربية يقول
البشير "سأذهب حيثما أذهب وجوها مشرقة..... أنظر إلى هؤلاء النساء المارات
ما أجملهن يود الإنسان لو يمسك بإحداهن و يحتضنها ليعبر لها عن مدى
إعجابه بجمالها، و مدى عبادته لحسنها...."² ، فانطلق ثملا تائها في شوارع باريس
الفسيحة يبحث عنها و ما إن رأى " فرنسواز " حتى ركض لاصطيادها.

يبدو أن النظام الشرقي و النظام المغربي (العربي عامة) كان نظاما خانقا ،
كاتما لأنفاس الكبير و الصغير، فالأمر غير المعقول و غير العادي هو أن تجد طفلا
يشتهي امرأة في سن أمه، و هذا ما لاحظناه في رواية " ما لا تذروه الرياح" مع البطل
الجزائري " البشير" الذي عشق مدام فرانسواز و هو طفل . يقول " أخذتني مدام
فرنسواز من يدي و أقعدتني بجانبها كم هي نظيفة مدام فرانسواز و كم كانا
ساقاها أبيضان حدثتني نفسي مرات أن ألمسها ، لكن الحياء منعني

¹ - د. محمد مصايف، المرجع السابق ص 291.

² - عرار محمد العالي، المصدر السابق، ص 55.

و عشقت مدام فرانسواز¹ و نفس الشعور إنتاب "مصطفى سعيد" و هو صاحب الإثني عشر عاما عندما رأى مدام روبنسون، فقد كانت أول امرأة تشعل فيه لهيب الرجولة يقول: "وصلت القاهرة، فوجدت مستر رونسون و زوجته في إنتظاري.... قدمني إلى زوجته.... و رائحة جسمها رائحة أروبية.... شعرت أنا الصبي ابن الإثني عشر عاما بشهوة جنسية لم أعرفها من قبل.... و أحسست كأن القاهرة امرأة أروبية"².

حتى "ود الرئيس" الشيخ الكحيان مازال يجري وراء شهواته الجنسية، و يتعطش لاحتضان الأنثى الغربية³، و التمتع بجسدها المثير يقول "ود الرئيس" للراوي، بعد أن يضربه بكوعه "نسوان النصارى شيء فوق التصور"⁴، فما سمعه عن جسدها الشهواني هو الذي زاد في إشعال لهيب رجولته و لهفته عليها.

حديث "ود الرئيس" بلهفة عن المرأة الغربية و متعة ممارسة الجنس معها ، جعل "بنت مجذوب" تغتاظ لذلك، فأطلقت العنان للسانها ، و بدأت تتباهى و تذكر مزايا بنت البلد الجنسية التي لها قدرة عجيبة على سحر الرجل و جذبه إلى فراشها ، على عكس الفتاة الشقراء التي تقوم بهذه الممارسة على أنها مجرد نشاط عملي روتيني⁵ ، تقول بنت مجذوب : " حريم النصارى لا يعرفن لهذا الشيء كما تعرف له بنات البلد ،

¹ - المصدر نفسه، ص 56.

² - الطيب صالح، موسم الهجرة الى الشمال، دار الجنوب للنشر، تونس، د.ط، 2004م، ص 47.

³ - ينظر فوزية الصفار، أزمة الأجيال العربية، المرجع السابق، ص 130.

⁴ - الطيب صالح، المصدر السابق، ص 89-90.

⁵ - ينظر فوزية الصفار، المرجع السابق ص 131.

نساء غلف الحكاية عندهن كشرب الماء، بنت البلد تعمل الدلعة و الدخان و الريحه، و تلبس الفرقة القرمصيص، و حين ترقد على البرش الحمر....يشعر الرجل كأنه أبو زيد الهلالي، الرجل.... إلما عنده همه يصبح له همته"¹، لكن "ود الرئيس" يختلف معها في هذه النقطة بالذات، لأنه ملل من بنات جلدته، و عرف مزاياهن و خصائصهن يقول: "دعك من بنات البلد يا بنت مجذوب -النسوان البرانيات هؤلاء هن النساء"².

لم يكن "ود الرئيس" الجريء الوحيد الذي إستطاع أن يتحدث عن موضوع الجنس و يتفنن و يبدع في وصف بعض مشاهدته، بل بنت مجذوب كانت أكثر جرأة، خاصة أنها كانت المرأة الوحيدة التي تجالس الرجال، و تتحدث عن الجنس بصفة عامة، و ممارستها مع أزواجها بصفة خاصة بكل صراحة³، تقول عن أحد أزواجها: "علي الطلاق يا حاج احمد، كنت حين يرقد زوجي.... صراخا تجعل منه البهائم المربوطة في مرايحها في الساقية"⁴، و تواصل حديثها عن أفعالها الجنسية بالتفصيل الممل، و تذكر أحسن أزواجها "ود البشير" و تقول عنه: "...و أظل مشبوحة حتى يؤذن آذان الفجر، و كان حين تأتيه الحالة يشخر كالثور، حين يذبح، و كان حين يقوم من فوق يقول ها الله الله يا بنت مجذوب"⁵.

¹ - الطيب صالح، المصدر السابق، ص 90.

² - المصدر نفسه، ص 90.

³ - ينظر فوزية الصفار، المرجع السابق ص 133.

⁴ - الطيب صالح، المصدر السابق، ص 87.

⁵ - الطيب صالح، المصدر السابق، ص 87.

لم تكتف "بنت مجذوب" بالحديث عن موضوع الجنس و مغامراتها الجنسية مع أزواجها الذين ماتوا كلهم بل تعدت حدود ذلك لتسخر بل و تهين زوج ابنتها¹ قائلة لها و هو يسمع ذلك " يا آمنة هذا الرجل لم يقصر في حقك، فمسكنك حسن، و ملبسك حسن، و قد ملأ يديك و رقبتك ذهب و لكن لا يبدو على وجهه انه يقدر على إشباعك في الفراش، فإذا أردت الشبع الصحيح فأنا أعرف لك زوجا إذا جاءك لا يتركك...."² و ما جرأة "بنت مجذوب" و "ود الرئيس" و لهفتها على الجنس " إلا تعبير عن لهفة المجتمع الشرقي المحروم، و ما حديثهما في موضوع الجنس بكل طلاقة إلا تفجيرا لهذا الكبت و الإضطهاد التاريخي الذي يعاني منه الشرقي على جميع المستويات، إقتصادية كانت أم سياسية أم إجتماعية أم جنسية"³.

باريس أو الغرب و مدى تأثيره على الشاب العربي، باريس كانت ملجأ و ملاذا قصده الشاب العربي و ارتمى في أحضانها، و هي إحتوته بصدر رحب فقد مثلت باريس- البيئة البديلة- و المتنفس الوحيد الذي إستنشق من خلاله هواء جديدا، هواء حرا طلقا، يستطيع من خلاله تعويض الحرمان و الكبت الذي عانى منهما في وطنه، فقد منحت باريس " هذا الشاب المأزوم حرية التحرك في العالم الحقيقي، و تقسح له

¹- ينظر فوزية الصفار، المرجع السابق ص 134.

²- الطيب صالح، المصدر السابق، ص 88.

³- فوزية الصفار، المرجع السابق ص 134.

مجال إشباع رغبته الغريزية إلى الجنس، و تمنحه الوسيلة التي تطاوعه على كسر الإستبداد العقائدي الموروث....¹.

ففرصة البطل الشرقي الآن لا تعوض، أمامه الآن فتاة أروبا الشقراء التي ستحل له مشكلة كبته الجنسي و تساعد على تعويض هذا النقص، و من جهة أخرى أمامه الآن مدينة حضارية عظيمة " شوارع فسيحة ليست في بلاده، و لا في الشرق كله، مثلها جمالا و نظافة و إنتظاما و أبنية فخمة مرتفعة كأحدث الأبنية الكبرى التي بدأت منذ حين تنتصب في الشوارع الرئيسية من عاصمة وطنه، ينبغي أن تكون هذه أسطورية العظمة حتى يستحق الطلاب فيها حيا كالحى اللاتيني"²، فهي تسلب عقل كل زائر و تبهره و تفتح له آفاقا جديدة كثيرة.

إن " الشباب العربي، في أرض وطنه، يعاني من حالة شلل و عجز في إقامة علاقة تجاوب و انسجام بينه و بين البنية الاجتماعية التي تمارس الإستبداد و قمع الحريات، و باريس هي التي كسرت هذه العلاقة لإنشاء علاقة تتحقق فيها ذاتية هذه الشبيبة العربية لترفع راية الحرية..."³، فباريس هي بلاد النور التي لا يستطيع مفارقتها و مغادرتها أي زائر، "فسامي" صديق بطل " الحى اللاتيني" أحس بالحزن و الأسى عندما كان يتهيأ للسفر و العودة، يقول سامي: " لا تذكرني بالغد.... ليتني لم

¹ - بوجمعة والي، الصراع الحضاري في الرواية العربية، المرجع السابق، ص 33.

² - سهيل إدريس، المصدر السابق، ص 9، 10.

³ - بوجمعة والي، المرجع السابق، ص 35.

أجئ إلى باريس أوليتني لم أذق حلاوتها"¹ ، ونفس الشيء بالنسبة "لكامل" و "زهير" و "أسعد" الذين لم يستطيعوا مقاومة سحر أجواء باريس، فانساقوا وراء حياة الصخب و الحرية، تاركين وراءهم ذكريات الماضي المرير يقول: "كأنما هم ألقوا أثقال الرصانة التي كانت ترهق أكتافهم في بلادهم، و شعروا شعورا عميقا بأنهم مدعوون إلى أن يسوقوا في باريس حياة منطلقة لا يحد من حرتها قيد، فاستجابوا لهذه الدعوة بكل ذرة من ذرات وجودهم، و خلفوا وراءهم أغلال ماضيهم"².

إن إنبهار كل من "البشير" بطل رواية" ما تذروه الرياح" و "محسن" بطل رواية "عصفور من الشرق" بعظمة الحضارة الأوروبية لم يكن له مثل، فقد وقفا مشدوهان متعجبان للخيرات التي تمتلكها أروبا، "فالبشير" الساذج لم يهمنه من هذه العظمة إلا البنايات و الجيوش و القوة .يقول عندما وصل إلى فرنسا " أتستطيع هذه الأرض التي يفصلها عن الجزائر بحر عظيم أن تكون سيدة على العالم؟ يا لعظمة هذه البلاد كم هو جميل أن يكون الإنسان موجودا هنا..."³، أما محسن المثقف فلم يهتم إلا بما يثري رصيده المعرفي الثقافي، من مسارح، و دار أوبرا، يقول محسن عندما دخل إلى دار الأوبرا: " آية عظمة و أي ثراء يشعران بالدوار؟.... و أي أنوار؟!... عندئذ أدرك

¹ - سهيل إدريس، المصدر السابق، ص 44.

² - المصدر نفسه، ص 17.

³ - عرعار محمد العالي المصدر السابق، ص 55.

فورا معنى مجسما لكلمة (الحضارة الغربية) التي بسطت جناحيها على العالم!...¹ ، و يقول: " و خيل إلى محسن أنه قد دخل بين هؤلاء القوم بالغش و التدليس و أن هذا السلم الشهير يأنف من حملة....، و لعله المكان الوحيد الذي لا شك قد وطأته أقدام جميع الملوك، فليس ببعيد أن يغضب السلم في هذه اللحظة و يزلزل لمحسن صائحا: " لم يبق على آخر الزمان إلا أن يطأني بنعله، مثل هذا الصعلوك القادم من الشرق!..."²، فقد أحس محسن أن ملابسه ليست في مقام هذا المكان الراقى.

أحب محسن المسرح الفرنسي كثيرا و عشق كل ماله علاقة بالفن لأن محسن محب للفن، و لعل هذا ما جعله يترك فرع القانون، لينخرط في مجال الفن و الأدب³، و لم يجد بلدا أحسن من باريس يقدر قيمة الفن، لذلك قصدها، يقول الحكيم: " ضاقت بي مصر فرحلت إلى فرنسا بعد أن كنت سجلت إسمي في جدول المحامين و مهدت لحياة مجدية"⁴، و يقول أيضا " نحن نعيش اليوم في عصر حضارة عظيمة هي الحضارة الأوروبية، فأني جهل منا بفرع من فروع هذه الحضارة معناه التخلف و القعود"⁵.

¹ - توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، د.ط، د.ت، ص 22.

² - المصدر نفسه، ص 23.

³ - ينظر حسن عليان، العرب و الغرب في الرواية العربية، المرجع السابق، ص 27.

⁴ - توفيق الحكيم، مجلة (الرسالة) نقلا عن سالم المعوش، صورة الغرب في الرواية العربية، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت ط 1، 1998م، ص 351.

⁵ - توفيق الحكيم، زهرة العمر، نقلا عن سالم المعوش، المرجع نفسه، ص 63.

من قال أن الشرق و الغرب لا يتفقان فهو مخطئ، فمن يومهم متفقان على أن الشرق
ينجب الأبناء و الشباب و الغرب يتبناهم و يرعاهم، لأن كل الوسائل العلمية و التنقيفية
موجودة في الغرب، و استطاع أن يوفرها الغرب لأبنائه و غير أبنائه، على عكس الشرق
الذي لم يستطيع ذلك، خاصة أن الغرب إستعمل سلاحا آخر فتاكا يغري كل شاب و هو
الفتاة الشقراء التي كانت طيفا يحوم حول الرجل أو البطل الشرقي، و لم يهدأ باله حتى
قصد بلادها لامتلاكها، و هنا يمكن أن نقول أن البطل الشرقي كان مسلوب العقل، و مادام
البطل الشرقي قد عاين الغرب عن قرب واحتك بالمرأة الغربية، فما هو الانطباع الذي أخذه
عنها، أو ما هي الصورة التي رسمها في ذهنه عنها .

المبحث الثاني: صورة المرأة الغربية

يسعى المرء دائما ليحقق ذاته و إستقلاليته و حيثما وجد الزمان و المكان مناسبان لذلك فهو لن يضيع فرصة تحقيق ما يصبو اليه، و قد كان الغرب دائما المكان المناسب للكثير من الشباب العرب الذين ضاقت بهم الدنيا و اختنقوا من نظام مجتمعاتهم، فتنفسوا و وجدوا راحتهم في أوروبا، و لعل قرب البطل العربي من المرأة الغربية ساعدنا في أن نرسم و نكون صورة نموذجية عنها و عن طباعها.

المطلب الأول: المرأة و حرية ممارسة الجنس

إذا قلنا سابقا أن الرجل الشرقي و المغربي قد يقيم علاقات جنسية غير مشروعة في الخفاء، خوفا من قوانين المجتمع العربي المحافظ و عاداته، فإن المرأة الغربية ليس لديها اي مشكلة مع تقاليد مجتمعتها، لذلك لا تولي هذه الأمور أي اعتبار و أي أهمية، بل ترى أن هذه العلاقة الجنسية هي حقها الطبيعي، لذلك لا تتحرج من ممارستها علنية أمام أعين الناس، فمجتمعتها لا يمانع ذلك و لعل هذا ما أغرى شبابنا العرب للسفر إلى هناك، باحثين عن لذاتهم، متأكدين أنهم سيجدون طلبهم، و قد إتضح لنا ذلك من خلال العينات المدروسة، التي توضح إباحية المرأة الغربية في ممارستها الجنسية علنا .

1/صورة المرأة الجريئة (حفلة سوربريز بارتى):

ففي رواية "الحي اللاتيني" يصف لنا البطل أجواء باريس و سلوك فتاة باريس المنحلة أخلاقيا، من خلال أول حفلة يحضرها في بيت صديقه كامل، فما إن وصل البطل و دخل بيت صديقه حتى وجده يعج فتيانا و فتيات، و صوت الموسيقى يدوي في كل أرجاء البيت، فعرفه كامل بهم: " و لكن إقترب يا عزيزي و صافح كلا منهم، فنحن هنا أسرة..... أولا سيمون، جانيت، سوزان، هيلين،..... و زينة، إننا نسميها زينة لأنها تشبه البدويات، ألا ترى ذلك؟ و لعلك تعرف بعد ذلك هذه الأنصاف الخشنة؟ صالح من بيروت، و سعيد من دمشق و أحمد من العراق، و ربيع من تونس"¹، أي أن كل شاب له فتاته و هو ما يسمى عندهم " بسوربريز بارتى" إلا هو فقد كان الدخيل الوحيد بينهم.

ما أثار دهشة البطل و حيرته هو الجرأة التي تمتلكها هؤلاء الفتيات للمجيء إلى ذلك البيت و ملاقة أحبابهن في غرفة صغيرة أمام أنظار الجميع، يقول: " و لكن كيف أتيح لهم أن يجتمعوا كلهم هنا؟ أية جرأة في إهاب كل من هاتيك الفتيات أن تسعى إلى لقاء حبيبها في غرفة صغيرة أمام الجميع؟ كفاك هذرا! أنت تنسى مرة أخرى

¹ - سهيل إدريس، المصدر السابق، ص 18.

أنك في باريس؟....."¹، فبطلنا في آخر لحظة تذكر انه في باريس و كل شيء جائز و مسموح في باريس.

لقد ظل البطل يراقب حركات الفتيات و يتمتع نظره بجمالهن، فقد أعجب بجاذبية سيمون، و اثاره زينة، يقول: " هذه التي يدعونها زينةإن في نظراتها تحديقا عميقا يبعث على الخوف، و على شفيتها الريانتين شهوة تسيل"²، و بالاضافة إلى جمالها فهي جريئة، بل أكثر جرأة منه، فبعد أن تردد هو في دعوتها الى الرقص خوفا من رفضها، سبقته هي بالدعوى تقول له: " ألا يحب الشاعر الرقص؟ فانتفض من مجلسه، ثم إبتسم، و نهض دون ما تريث: بلى، و إن كان لا يحسنه كثيرا و يسعده أن يراقص زينة..... و نهضت تشع على شفيتها الممتلئتين بسمه رائقة....."³.

لقد كانت بيوت باريس و حفلاتها، مكانا للمواعيد الغرامية، فما أن أنهى الشباب أكلهم حتى أخذهم جو الرقص و الموسيقى، جو الصخب و اللهو، و هو ما يستهوي المرأة الغربية (الرقص و الخمر)، و ما ينعش حيويتها و حميميتها، فذاب الراقصون في بعضهم البعض، وحل الصمت و الرومانسية مكان الكلام " و نقل بصره بين الراقصين، فأحس بأن جوا حميما يغمرهم و يغرقهم..... ولاحظ ان "سيمون" تمنح ربيع شفيتها..... أما "سعيد" فكان يوسد "سوزان" ذراعه و قد استلقيا على ديوان في زاوية

¹ - المصدر نفسه، ص 19.

² - المصدر نفسه، ص 19.

³ - المصدر نفسه، ص 20.

القاعة"¹، فالكل إنشغل ببعضهم البعض، إلا هو بقي ينظر وحيدا من بعيد، و لم يحضى إلا بتمتع نظره بجمال جسد الفتاة الشقراء الذي لم يستطع مقاومته لأنه ليس معتادا طبعا على جمال هذا الجسد الفاتن المغربي، و بذلك فهو لم يفز في هذه السهرة إلا بالنظر و خيبة الأمل.

2- صورة المرأة المومس :

1- فتاة الرصيف

هي فتاة ككل فتيات باريس، اللواتي يبعن اللذة مقابل المال، فخبية الأمل التي مر بها البطل، و إنكسار خاطره هي التي جعلته يضطر لشراء هذا الجسد، مادام هناك فتيات يبعن جسدهن فهو ليس لديه أي مانع، المهم عنده هو أن يعصرها بين يديه و يمتص كل حلاوتها، كان لقاءه معها في "بيغال" عندما رآها تمشي تبحث عن طالب لذة، فقصدها رغم أنه يعلم أنها فتاة شوارع، و امرأة عاهر، فاصطحبها معه إلى الفندق لإشباع رغبته الجنسية مع العلم أنه لم ينظر إلى وجهها طوال تلك المدة²، تقول له الفتاة " أشهد أنك لطيف جدا، ولكنني أعجب لشيء واحد: لماذا لم تنظر إلي"³.

¹ - المصدر نفسه، ص 21، 22.

² - ينظر مصطفى فاسي، البطل المغترب في الرواية العربية، المرجع السابق، ص 150.

³ - سهيل ادريس، المصدر السابق، ص 39.

هو الجوع و العطش اللذان دفعا البطل الى طلب هذا الجسد من دون النظر إلى وجه الفتاة " إنها صورة المعاناة و التمزق، و مرارة الإكتشاف الأول! أجل فلقد كانت المرأة و ستظل في حياته دائما، الأداة الرئيسية في محاولته الضخمة، أو في مغامراته الكبرى لإكتشاف ذاته"¹، فوضع البطل حقا يستحق الشفقة و الرثاء.

ب/مارغريت

مارغريت هي فتاة جميلة " ذات عينين تتفجران حيويةعينان يحسب أن عينيه لن تقاوما نظرتهم طويلا إذا شاءتا أن تقابلاهما و كان شعرها كستنائي اللون قصيرا، يكسب الوجه مزيدا من نضارة الشباب"²،جريئة بحيث كانت أول من بادرت بالحديث و هذا الأمر عهدناه عند المرأة الغربية يقول " و لم تتح له أن يمضي في تأملها إذ مدت ذراعها نحو الطاولة التي كان يجلس إليها، فتناولت جريدة، و قالت في لامبالاة: هل هي جريدة اليوم؟"³، و بهذه المبادرة إغتتم البطل الفرصة ليدعوها إلى غرفته، فكانت بالنسبة له صيدا سهل المنال، إستطاع بعد ذلك إستدراجها بسهولة إلى غرفته بحجة شرب القهوة، و تجريدها من ملابسها و الإلقاء بها على سريره⁴.

¹ - غالي شكري، أزمة الجنس في القصة العربية، الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر، د.ط، 1971م، ص 172.

² - سهيل ادريس، المصدر السابق، ص 66.

³ - سهيل ادريس، المصدر السابق، ص 66.

⁴ - ينظر جورج طرابوشي، شرق و غرب الرجولة و انوثة، دار الطليعة، بيروت، د.ط، د.ت، ص 80.

و بعد الممارسة معه تبدي إنزعاجا و غضبا شديدين، فتخرج غاضبة من غرفته¹، و هي تردد " إبتعد عني..... كلكم هكذا أنتم الرجالأنانية قذرة"²، فما سبب إنزعاج مارغريت و خروجها من الغرفة بهذه الطريقة، بعدما كانت مبادرة و مرحبة بهذه العلاقة الجنسية؟.

"يعود غضب مارغريت إلى الخيبة التي أصابتها من سلوك البطل الجنسي، حيث أظهر هذا الأخير أنانية في تعامله معها، كل ما يهمه هو إشباع غرائزه، فهو لا يعتبرها إنسانا لها أحاسيس و رغبات بل هي مجرد شيء يأخذ منه مراده"³، و تصرفها و سلوكها هذا أوحى أنها فتاة جد جريئة، و هي طبعا مثلت سلوك المرأة الغربية القوية الشخصية، لأنه لو حدث هذا مع فتاة شرقية لسكتت و تركتها غصة في قلبها⁴.

3/صورة المرأة المتعالية المتسلطة «جين مورس»:

هي امرأة مومس بكل معنى الكلمة، حقيرة وضعية، فهي من معدن و صلب أروبا لذلك لا ترى أي عيب في تصرفاتها، ظلت تمنع جسدها عن " مصطفى سعيد" بعد الزواج لمدة طويلة، إلى أن رضيت عليه و وهبته جسدها في حديقة عامة أمام أعين الناس ، و هذا حتى تهين ذلك الشرقي الجوعان الذي ظل يطاردها و يئن من ألم

¹ - ينظر مصطفى فاسي، المرجع السابق، ص 151.

² - سهيل ادريس، المصدر السابق، ص 69.

³ - جميلة بوعبد الله، القيم و الايديولوجيا، في رواية الحي اللاتيني، من البنية العميقة الى البنية السطحية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2000-2001م، ص 157.

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص 157.

بعد جسدها عنه شهور طوال، و هي امرأة فاحشة متسلطة، غايتها ليس حب مصطفى سعيد، بل إذلال رجولته و كبريائه، و لعل هذا التصرف هو ما جعله يحس بأنه مجرد متسول أخذ صدقة يقول: " و ذات يوم أخذته غرة فعانقته و وهبته نفسها و لكن على مرأى من الناس في إحدى حدائق المدينة، صورة من الشبق المحموم جعلها تتحدى الناس و لا تبالي بالأخلاق العامة؟ فتسمح له بجسدها تأبى عليه نعرتها إلا أن يكون ذلك في شكل مهين له و لها...."¹.

لم تقف جين مورس بأفعالها و سلوكها المشين عند هذا الحد فقط، بل بلغ بها الأمر ان تعاكس الشباب أو الرجال في الطريق و تغريهم بجسدها، و مصطفى سعيد بجانبها، و هذا حتى تهين رجولته. يقول "مصطفى سعيد" >> و تستفز الناس بعد ذلك في الشوارع و المحافل تغريهم بنفسها و زوجها الى جانبها كأنها تريد بذلك أن تخرج زوجها مخرج العاهرة، فتتعمد أن تظهر بمظهر المومس"².

على كل حال ليست "جين مورس" الفتاة الغربية الوحيدة التي قامت بهذه الأفعال بل أمثالها كثيرات، و هذا راجع الى الحرية الجنسية التي منحتها لها أوروبا، حتى أصبحت لا تضع إعتبارا لوالدها او لزوجها، و لا للمكان العام الذي تكون فيه أثناء الممارسة الجنسية (الحافلة او القطار)، فقد إعتدنا أن نرى الزوجة الغربية مع زوجها

¹ - الطيب صالح، المصدر السابق، ص 20.

² - المصدر نفسه، ص 20.

ويأتي صديقها و يعانقها و يقبلها أمام زوجها، و الزوج لا يأبه لذلك، و لعل هذا ما أعطى صورة مشينة للحضارة الغربية، و الأمثلة على ذلك كثيرة من بينها ما رآه بطل "الحي اللاتيني" أمام باب الفندق هو و أصدقائه " أنظر هناك شبحان متعانقان يتحركان بين لحظة و لحظة فينفصلان، ثم يلتصقان دون نأمة: ظلان أسودان ينصهران ظلا واحدا¹ .

كما نضيف إلى ذلك ما رآه بطل عصفور من الشرق " محسن " أمام المسرح و أمام كل الناس: ".....و لم يقطع عليه تأمله غير حركة فتى و فتاة من أهل باريس، يتعانقان خلفه، و يقبل أحدهما الآخر علنية، كما إعتاد البارسيون أن يفعلوا غير حافلين بعاذل أو رقيب"²، فانزعج محسن و اشمئز من هذا الموقف المحرج الذي ينبغي ان يبقى محفوظا في صدور العاشقين " فازور " محسن" عنهما برأسه، غير راض أن تعرض العواطف هذا العرض، في الشوارع و الطرقات، فتبتذل"³ و تصرف محسن هذا هو تصرف الرجل الشرقي المحافظ الذي يعرف معنى و قيمة الحب العفيف، و يعرف كيف يقدسه، و يحافظ على شرف زوجته أو خطيبته، على عكس الرجل الغربي الذي لا يبالي لهذه القيم .

¹ - سهيل ادريس، المصدر السابق، ص 14.

² - توفيق الحكيم، المصدر السابق، ص 48.

³ - المصدر نفسه، ص 48.

4/صورة المرأة المتحررة«سوز»:

هي فتاة لطيفة حنونة، محبة للحياة، كلها حيوية و أمل، جمعتها الصدفة بالبطل "محمد" في البحر، عندما كان يمشي باحثا عن ما يشبع نزواته، و ما إن رأى "سوز" تنتظر اليه حتى تقدم إليها ليدعوها لشرب القهوة، و كانت هذه فرصة لتعارفهما و تقربهما من بعضهما البعض.

لا تختلف "سوز" عن "جين مورس" أو عن أي امرأة غربية أخرى فهي ابنة أروبا الحرة المتحررة التي لا تتحرج من أفعالها المشينة المخلة للأدب، و هذا الانطباع هو ما قدمته لنا سوز عندما مارست الجنس مع البطل أمام الملاء دون أن تعير أي إهتمام للمارين من حولها يقول البطل " قليلون هم الذين يفعلون مثلنا يتعانقون بقوة بقوة أمام الملاء"¹، فقد كانت هذه فرصة لا تعوض بالنسبة لهما لذلك لم يأبها لأي أحد.

إن قلة حياء سوز لم تقف عند حد ممارسة الجنس في الطريق بل تعدتها إلى أكثر من ذلك عندما دعت البطل "محمد" ليعيش معها في البيت، و هنا تكون سوز قد تجاوزت كل الخطوط الحمراء، فكيف لإمرأة تعيش لوحدها ان تدعو رجلا غريبا للعيش معها، لكن الحرية المطلقة التي منحتها لها أروبا تسمح لها بذلك، و بالطبع كان عرضها عرضا مغريا بالنسبة للبطل الذي يريد ان يعوض كل ما حرم منه،

¹ - محمد زفزاف، المصدر السابق، ص 36.

فنتطور العلاقة بين "سوز" و "محمد" بسرعة كبيرة، و تكثر لقاءاتهم و علاقاتهم الجنسية يقول
"محمد" "وضعت سوز كل جسدها الآن تحت تصرفي ..."¹، و هنا أحس البطل كأنه إمتلك
كل الكون بين يديه و أن كل هموم الماضي خفت و زالت عنه بفضل "سوز".

¹ - المصدر نفسه، ص60.

المطلب الثاني: المرأة الغربية الإستغلالية الخائنة

1/ صورة المرأة المخادعة (فتاة السينما):

ما إن وطأت قدما البطل أرض باريس حتى هب لاهتا، متلهفا يبحث عن فتاة أروبا الشقراء، و يجول شوارع باريس شارعا شارعا إلى أن وصل إلى السينما و فيها كان له أول لقاء مع فتاة جميلة جلست إلى يساره، فانتقل إهتمامه من الشاشة إلى جسد الفتاة¹ " و استرخى في مقعده سعيدا كالطفل، فرحا بقرب هذه الفتاة التي يشعر بنكهة الفتوة تفيض من أردانها..... كان شعرها مرسلا في وحشية لذيدة.... أما وجهها فلم ير إلا الجانب الأيمن منه: وجه طفل تشرق فيه عين زرقاء، و شفتان تلتزمان بحمرة شفافة...²، فنعمتها أخذت كل عقله و شغلت تفكيره، " لم يكن يعنيه من الفيلم بعد ذلك شيء، فهذه الفتاة تملأ الآن فكره و وجوده"³.

تجراً البطل و لمس ساقها و هي لم تمنع " و ها هي الآن يده مستقرة على ساقها، كأنما إعتادت ذلك....."⁴، فعدم ممانعتها للمسها يدل على تحررها من قيود الأسطوانة الشرقية "تقديس الجسد"⁵.

¹ - ينظر جورج أزوط، سهيل إدريس في قصصه و مواقفه، المرجع السابق، ص 108.

² - سهيل إدريس، المصدر السابق، ص 28.

³ - المصدر نفسه، ص 29.

⁴ - المصدر نفسه، ص 300.

⁵ - ينظر أبو جمعة الوالي، الصراع الحضاري في الرواية العربية، المرجع السابق، ص 55.

بعد هذه الخطوة لم يتردد و دس في يدها ورقة يواعدها فيها للقاء مجددا في يوم الغد، فوافقت على الموعد يقول: "إلتقت إليه و سمعها تهمس "وي" فأدرك أنها توافق على الموعد"¹، و بالفعل إنقضت الليلة و بطلنا يعد النجوم ليلتقي فتاته التي لا يعرف لا وجهها و لا إسمها، إلا أنها ترتدي بنطلون، فانتظر البطل، و صبر على الانتظار متأملا أن تأتي فتاته يقول: " لا بأس في ذلك، لن ينفذ صبري، يجب أن أترك لها بعد الموعد هامشا مقداره ربع ساعة، تلك هي لياقة الانتظار، بل هو قانون الإنتظار"²، لكن بعد طول إنتظار مل البطل و أحس بالإهانة و السخرية و الخداع لعدم مجيء الفتاة في الموعد المحدد، و هذا الأمر سبب له الما كبيرا لأنه فشل عند أول لقاء بالمرأة الغربية، يقول " و اتجه الى بولفارسان ميشال، و هو يبتسم ابتسامة بلهاء، ما لبث أن تحولت الى كزازة في وجهه و حنق في صدره"³.

2/صورة المرأة الماكرة (ليليان):

هي ثالث إمراة غربية يلتقي بها بطل "الحي اللاتيني"، و لا يرجع الفضل في هذا اللقاء له، بل لصديقه "سامي" الذي قدمها له: "سأقدمك الى ليليان.... و أنت حاول أن تعجبها فتظفر بها بعد ذهابي"⁴، و بالطبع لم يرفض البطل العرض لأنه مغري،

¹ - سهيل إدريس، المصدر السابق، ص 32.

² - المصدر نفسه، ص 35.

³ - المصدر نفسه، ص 36.

⁴ - المصدر نفسه، ص 45.

فليليان فتاة جميلة تشتهى " ممشوقة القامة سوداء العينين، دقيقة تقاسيم الوجه، و كان ثوبها الأسود الأنيق مشقوق الصدر عن عاج شديد البياض، و كان من الواضح أنها تجاوزت الثلاثين غير انها تحتفظ بنضارة ابنة العشرين"¹، فهي بالنسبة له صيد لا يعوز " صيد سمينإنني سأخلي لك المكان، و لن أعود إلا في ساعة متأخرة"².

إن هذه المرأة "ليليان" بالنسبة لهما مجرد بضاعة، فهي فاكهة حلوة يشتهيها كل من يراها فتؤكل ثم تلفظ كالنواة، لأن جسدها وجد للمتعة فقط³، و هذا بالضبط ما قام به البطل مع ليليان الشاعرة عندما أخذها إلى الفندق فأمضى ليلة رومانسية ساحرة معها، و التي كانت تنشده القصائد و كشفت له عن كل أسرارها " لكن أليس هذا طبيعيا؟ أن تكشف له جميع صفحات حياتها مادامت كشفت له جميع صفحات جسدها"⁴.

و ككل مرة لا تكتمل سعادة البطل ، فسرعان ما يستيقظ صباحا ليكتشف أن ليلته مع " ليليان" كلفته محفظة نقوده ، و ليكتشف أيضا أنها شاعرة مزيفة كاذبة ، فالقصيدة التي أنشدته اياها لم تكن لها ، بل لشاعر مشهور إسمه جاك بريفر

¹ - المصدر نفسه، ص 45، 46.

² - المصدر نفسه، ص 51.

³ - ينظر جورج أزوط، المرجع السابق، ص 108.

⁴ - سهيل إدريس، المصدر السابق، ص 56.

و القصيدة هي بعنوان "كلمات"¹، فتجربته هذه مع ليليان كانت أكبر صدمة و خيبة يتلقاها
البطل، لأن ليليان كانت مجرد عاهر مزيفة، و مخادعة، مأكرة هزئت منه، و من ثقافته، و
طعنت كبريائه².

3/صورة المرأة اللاهية الأنانية (سوزي):

إذا جاءت رواية سهيل إدريس "الحي اللاتيني"، و رواية الطيب صالح "موسم الهجرة
الى الشمال" حافلة بشخصيات نسائية غربية متنوعة، و خاض أبطالها معهن عدة مغامرات،
فإن رواية توفيق الحكيم "عصفور من الشرق" إقتصرت على امرأة غربية واحدة و هي "سوزي
ديبون"، و هي المرأة الغربية الوحيدة التي كان الرجل الشرقي محسن على علاقة بها³.
تجسد هذه الرواية قصة حب عفيف طاهر لرجل شرقي، ولهان "محسن" عشق
و تيم بعاملة بسيطة في مسرح الأوديون "سوزي"، و هو على الرغم من حبه لها، لا
يتجرأ على الكلام معها، بل يكتفي بالنظر إليها من بعيد، و هذا راجع " لحكم تربيته
الشرقية، و خلفيته الدينية و الإجتماعية، و وفق ما وقر في نفسه و مخزونه الثقافي،
و وفق ما ثقفه من مفهوم رومانسي بين الرجل و المرأة التي لا يجوز تدنيسها بالمادية
و العلاقات المفتوحة"⁴، وظل على هذه الحال أياما عديدة، إلى أن أتى اليوم الذي قرر

¹ - ينظر جورج طرابيشي، شرق غرب، رجولة و أنوثة، المرجع السابق، ص 79-80.

² - ينظر مصطفى فاسي، البطل المغترب في الرواية العربية، المرجع السابق، ص 151.

³ - ينظر المرجع نفسه، ص 198.

⁴ - حسن عليان، العرب و الغرب في الرواية العربية، المرجع السابق، ص 91.

فيه الكلام معها، و أول ما قام به هو السير وراءها خفية حتى يعرف مكان إقامتها، و لما علم أنها تقيم في فندق إستأجر غرفة فوق غرفتها، و تمكن من معرفة إسمها من خلال عاملة الفندق، و أول تعامل له معها كان من خلال طلبه منها دفع فاتورة الحساب عنه، فتستغرب هي ذلك، و لكي يكافئها على هذه الخدمة قرر أن يقدم لها هدية بشرط أن تكون هدية مميزة و غير عادية، لأن فتاته هي فتاة مميزة و خاصة، فابتاع لها ببغاء و هي هدية غير مألوفة¹.

من هنا يبدأ الكلام و تكثر اللقاءات بينهما و يتمكن "محسن" من إقتطاف القبلات من فاتنته، لتنتهي اللعبة على صوت صديقه الفرنسي²، الذي يقول له " أرأيت أنها فتاة ككل الفتيات، عاملة كألاف العاملات تلك التي أسكنتها قصرا من قصور ألف ليلة و ليلة"³. و بهذا الكلام الذي وجهه له صديقه الفرنسي عن حقيقة فتاته أنها عادية جدا "أحس الفتى إحساس من يهوي إلى الأرض، و كأن قيم الأشياء في نظره قد تضاءلت، و كأن الحياة نفسها قد تجردت من غطائها"⁴، فالأسبوعان اللذان قضاهاما "محسن" مع فتاته كانا نعيم الجحيم " فنعيم أن يعيش المرء حياة الواقع، و لكن الجحيم

¹ - ينظر مصطفى فاسي، المرجع السابق، ص 200.

² - ينظر جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 25.

³ - توفيق الحكيم، المصدر السابق، ص 108.

⁴ - المصدر نفسه، ص 109.

ألا يعود يهيم في مملكة الخيال، نعيم أن يعرض من التفاحة المحرمة، و لكن جحيم أن يكتشف أنها ككل تفاح الأرض حلوة و في داخلها الدود"¹.

لقد تعرض محسن لصدمة قوية سببتها له حبيبته خاصة عندما اكتشف أن فاتنته تخونه مع سيد عملها هنري²، يقول: "..... فقد فتح الباب، و ظهر شاب فرنسي جميل الطلعة، ما كاد يقع بصره على "سوزي" إلى جانب "محسن" حتى تغير وجهه، و ما كادت تراه الفتاة على هذه الحال حتى تغير وجهها، و إنقلب كل شيء فيها رأسا على عقب، و شعر "محسن" في تلك اللحظة ان مصيبة نزلت به، لا يدري بعد ما هي"³.

بعدما سقط قناع "سوزي" المزيف عن وجهها و كشف أمرها، لم يستطع محسن أن يتمالك نفسه فاتهمها بالشقراء اللاهية، العابثة المادية الأنانية، و كانت هذه فرصته في ممارسة هوايته المفضلة و هي "معادة النساء"، " عن طريق إقامة علاقة مساواة و مماهاة بين سوزي ديبون و المرأة"⁴، و لم يكتف بهذا فقط بل ساوى بين سوزي و أروبا (الغرب) فأروبا مثل سوزي "شقراء، جميلة، رشيقة، لكنها أنانية"، لا يعنيتها إلا نفسها و إستعباد غيرها"⁵، و أنهى تلك العلاقة الإستغلالية برسالة يقول فيها "سوزي": " لست أحب يا سيدتي أن أتهمك " بالأنانية"، و لكن عتبي عليك لا يعد و أمرا واحدا صغيرا : كان يحسن بك أن تخبريني بمهمتي، حتى أحترق على علم، و أفيد

¹ - جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 26.

² - ينظر المرجع نفسه، ص 26.

³ - توفيق الحكيم، المصدر السابق، ص 117، 118.

⁴ - جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 27.

⁵ - المرجع نفسه، ص 27.

الغير عن رضا، و لكنك شئت أن تسخري بي من تحت "قناعك" حتى تكون لك المتعتان!....¹، فسوزي الماكرة إذن عرفت كيف تستغل طيبة و رومانسية صديقنا الشرقي لقضاء مصلحتها .

4-صورة المرأة اللعوب«فرنسواز»

هي امرأة فاتنة مأكرة، في الثلاثين من عمرها، أول لقاء جمعها بالبطل كان لقاء جافا، لم تعره " فرنسواز" إهتمامها بل كل ما فعلته هو توبيخه، تقول " فرنسواز" بعدما شعرت أن "البشير" يلاحقها: "أيها السيد المحترم لماذا تلاحقني منذ زمن طويل؟ ألا تستحي من فعلك الخسيس"².

لم يكثرث البشير لكلام السيدة، بل بقي واقفا يتأمل السيدة الجميلة التي تقف أمامه، فإغتاظت لسكوته و لامبالاته، و تركته مهددة إياه أنه إن تبعها فستتوجه إلى الشرطة، و ما إن مشت السيدة قليلا حتى سمعته يسقط أرضا، فرأفت لحاله و أخذته معها إلى البيت يقول: " بعد مجهود عظيم بذلته السيدة، بكل بسالة إستطاعت أن تصل إلى الطابق الثاني، حيث سناهاثم أجلس البشير الفاقد الإدراك على أريكة"³، فاهتمت به إلى أن إستعاد وعيه و أفاق، فوجد المرأة الجميلة التي بحث عنها تعتتي به يقول: إضحكي، إضحكي ، مثلما تريدان لكن لا تخشي ، فلن افر و لن أبتعد عنك فأنا أبحث عن امرأة مثلك لآخذها كمؤنسة في أيامي هذه

¹ - توفيق الحكيم، المصدر السابق، ص 129.

² - عرعار محمد العالي، ما تذروه الرياح، المصدر السابق، ص 101.

³ - المصدر نفسه، ص 106.

التي بلغ فيها يأسى درجة لا تتصور"¹، فلم يضيع كلاهما الفرصة في أن يظفرا ببعضهما البعض، فأمام فرنسواز الآن شاب في مقتبل العمر تحلم به كل فتاة تقول "فرنسواز:" يا للفتى الجميل يجب علي أن لا أتركه يفر من بين يدي سأنسج حوله حبائلي، و أروعه بمفاتتي، حتى لا يعود يقدر على نسياني لحظة واحدة"².

توطدت العلاقة بين البشير و فرنسواز و أصبحا يتواعدان، مسروران بهذه اللقاءات الرومانسية إلى أن يتفاجأ البشير بخبر ابن فرنسواز، فقد أخفت عنه فرنسواز أن لديها ابن يقارب سبع سنوات، و أنها أرملة لجندي فرنسي، يقول البشير "....حدثت مفاجأة للبشير.... فقد كان في ذلك اليوم يجلس مع فرنسواز منفردين في بيتها ، و بينما هما يتحدثان.....إذ بطفليدفع الباب دفعا دون سابق إنذار ، و يلج الغرفة و كأنها غرفته"³، إندهش البشير لذلك و سأل فرنسواز عن ذلك الطفل فارتبكت و إحمر وجهها قائلة:" إن هذا الطفل إبنى يا جاك إنه بيير"⁴ ، فإنزعج البشير من تصرفها هذا و لامها على إخفائها عنه ماضيها، فقصتهما لم تتبن على الصدق و الصراحة بل كلها كذب و تلاعب، فهي امرأة لعوب متمكنة ، يقول البشير عندما رآها لأول مرة " هي مثل المرأة اللعوب، التي ينكشف سرها لكل عين ، و يميل الى نيل ودها كل بغيض لا حياء فيها تأخذ القلب من أول نظرة

¹ - المصدر نفسه، ص 117.

² - المصدر نفسه، ص 112.

³ - المصدر نفسه، ص 123.

⁴ - المصدر نفسه، ص 123.

و تسقط من القلب و الفكر عند أول نظرة¹، كان هذا هو شعوره من ناحيتها عندما رآها لأول مرة، لكن كان عليه أن يسايرها حتى تلبي رغباته.

مع العلم أن "البشير" كان حريصا على إخفاء سر ماضيه، إلا أن "فرنسواز" اللعوب المخادعة تمكنت من كشفه بكل سهولة و عرفت كيف توقعه في شباكها بكل براعة، فحب فرنسواز للبشير لم يكن حب المرأة للرجل بل حبا للاستطلاع "فهي تعاشره لتستطلع منه أسرارها.... و هي ترافقه لتستلهم من كلامه مادتها، و هي ترضى بتصرفاته لتكشف سلوكه.... فالبشير بالنسبة لها موضوع للدراسة و الاكتشاف و التجربة"²، حتى أن تلك الأحياء العربية التي كانت تزورها مع البشير كان ورائها سر و هدف كبير، و هذا ما لاحظته الإخوة المجاهدين الذين كانوا يراقبون تحركات "البشير" يقول أحدهم: "إن المرأة التي تصاحب البشير تتردد كثيرا على الأحياء العربية، التي يقطن فيها الجزائريون بصفة خاصة.... سواء أكانت بصحبته أو لم تكن، فهي إمراة غريبة، تمضي كثيرا من ساعات يومها تراقب المهاجرين و قد تشكك في أمرها كثير من الناس أن هذه المرأة يمكن أن تكون جاسوسة...."³.

¹ - المصدر نفسه، ص 109.

² - المصدر نفسه، ص 139-140.

³ - المصدر نفسه، ص 154.

المطلب الثالث: المرأة الغربية و سحر الشرق

1/صورة المرأة الضحية :

١-شילה غرينود:

كانت أولى الضحايا التي ابتلعت الطعم هي "شילה غرينود"، و هي فتاة مكافحة، تعمل خادمة في مطعم بالنهار، و في الليل تواصل دراستها، جميلة المنظر، و حلوة الحديث، و هي فتاة طيبة جدا، و قد عرف مصطفى سعيد كيف يستغل هذه الطيبة، فأغراها بالهدايا و دوحها برائحة الصندل المحروق و الند إلى أن أدخلها إلى فراشه، " دخلته بكرا و خرجت منه تحمل جرثومة المرض في دمها"¹، فحولها إلى عاهر رخيصة يقول " كانت تلحس وجهي بلسانها و تقول لي لسانك قرمزي بلون الغروب في المناطق الإستوائية.... تقول لي: " ما أروع لونك الأسود لون السحر و الغموض و الأعمال الفاضحة"².

إن ولع "شילה غرينود" بالشرق أعمى عينيها و جعلها عاجزة عن مقاومة كل الخرافات السحرية التي كان يؤلفها و يرويها لها مصطفى ، لأنها كانت " ترى فيه مرتعا للنشوة الشيطانية"³ ، فرومانسيتها الحالمة و الساذجة جعلتها تظن انه سيأتي اليوم "الذي تمحو بها فوارق الجنس و الطبقات بين الناس حتى يستووا في الأخوة ، فلا

¹ - الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، المصدر السابق، ص 55.

² - المصدر نفسه، ص 16.

³ - بوجمعة الوالي، المرجع السابق، ص 80.

أغنياء و لا فقراء و لا أقوياء و لا مستضعفين و لا بيض و لا ملونين¹، لكن هذا الحلم سرعان ما تبخر و تبدد عندما إصطدمت بواقع و حقيقة مصطفى، و تكتشف أكاذيبه و حقه، فتشوهت كل أحلامها و قررت الإنتحار بالغاز، يقول مصطفى: "فما علمت المسكينة إلا مؤخرا بأن الوقت لم يحن بعد لتتغلب الطيبة الإنسانية على الأحقاد الموروثة فشوه عنف التاريخ مثلها و فسق بأحلامها البريئة، فإنتحرت بالغاز ذات يوم كاتمة بلاءها في نفسها إلى الأبد"².

ب/ (آن همد):

أما ثاني ضحاياها فقد كانت "آن همد" و هي طالبة في قسم اللغات الشرقية بأكسفورد، جميلة المنظر "كانت حية، وجهها نكي مرح و عيناها تبرقان بحب الإستطلاع، رأيتي فرأت شفقا داكنا كفجر كاذب"³، لقد كانت آن همد مفتونة بسحر الشرق "كانت تحن إلى مناخات إستوائية، و شمس قاسية، و آفاق أرجوانية"⁴، و كان مصطفى سعيد رمزا لكل هذا الحنين فقد وجدت فيه أميرها الشرقي الذي كانت تبحث عنه، كانت تقول له " أنا أيضا تقفيت أثرك عبر القرون، و لكنني كنت واثقة أننا سنلتقي، و ها أنتذا يا حبيبي مصطفى، لم تتغير منذ إفترقنا"⁵.

¹ - الطيب صالح ، المصدر السابق، ص 16.

² - المصدر نفسه، ص 17.

³ - المصدر نفسه، ص 52.

⁴ - المصدر نفسه، ص 134.

⁵ - المصدر نفسه، ص 135.

إن تأثر آن همند بالشرق جعلها تتقمص و تمثل دور الجارية الطائفة، و مثل هو دور السيد الأمر، يقول: "ركعت و قبلت قدمي و قالت: أنت مصطفى مولاي و سيدي و أنا سوسن جاريته.... حضرت الحمام ثم غسلتني بالماء الذي صببت فيه ماء الورد لبست عباءة و عقالا و تمددت انا على السرير"¹، و بعد هذه الخطوة لم يجد مصطفى صعوبة في أن يجرها مثل أي عبدة وضيعة إلى فراشه و يحولها إلى عاهرة و هي لا تتأخر العشرين من عمرها².

إن الحب الذي تحمله "آن همند" للشرق ما هو إلا رمز لمدى حب الأوروبيين عامة للشرق و إفريقيا بأدغالها و صحاريها الشاسعة، فآن همند لم تحب سيدها و مولاهما "مصطفى" لشخصه، بل أحبت قصور "الشرق" التي يسكنها هذا الأمير، و هو بطبيعة الحال إغتنم الفرصة و إنتقم من ذلك الأوروبي المستعمر في شخص "آن همند"³، و عندما تكتشف هي لعبته القذرة المبنية على الحقد و الإنتقام تنتحر بالغاز تاركة له ورقة تقول له فيها: "مستر سعيد لعنة الله عليك"⁴.

ج-إيزابيلا سيمور :

إيزابيلا سيمور فريسة أخرى مولوعة بسحر الشرق ، فقد عرفها و هي في الأربعين من عمرها، متزوجة و أم لثلاثة أطفال " كانت زوجة لجراح ناجح ، أم

¹ - المصدر نفسه، ص 137.

² - ينظر المصدر نفسه، ص 52.

³ - ينظر حفاوي رشيد بعلي، الطيب صالح و الابداع الكتابي، دار اليازوري، عمان، ط1، 2015م، ص 356.

⁴ - الطيب صالح، المصدر السابق، ص 53.

لبننتين و ابن، قضت إحدى عشر عاما في حياة زوجية سعيدة....¹، إستطاع أن يخدعها بسهولة بأكاذيبه، خاصة و هو يعلم أن عقلها مخدر بسحر الشرق، فزاد هو من جرعة هذا المخدر بأحاديثه الملفقة التي كان يسمعها إياها سألتني و نحن نشرب الشاي عن بلدي رويت لها حكايات ملفقة عن صحاري ذهبية الرمال، و أدغال، قلت لها أن شوارع بلادي تعج بالأفيال و الأسود أحسست أنني انقلبت في نظرها مخلوق بدائيا عاريا، يمسك بيده رمحا و بالأخرى نشابا، يصيد الفيلة و الأسود في الأدغال².

و ما زاد دهشتها هو ذكره للنيل، مدعيا أن والديه غرقا في مركب كان يعبر النيل يقول: "لمعت عيناها و صاحت في نشوة: نايل؟، نعم النيل، أنتم إذا تسكنون على ضفاف النيل"³، و بهذا الكلام المنمق المزيف صار مصطفى في عينيها "غول إفريقي" تقول له:

"إغتلني أيها الغول الإفريقي و أحرقني في نار معبدك، أيها الإله الأسود و دعني أتلوى في طقوس صلواتك الغريبة المهيجة"⁴، و صارت هي فريسة جاهزة و مستوية، يقول " الطائر يا مستر سعيد قد وقع في الشرك ما هو إلا يوم حتى أضرب

¹ - المصدر نفسه، ص 132.

² - المصدر نفسه، ص 57، 58.

³ - المصدر نفسه، ص 58.

⁴ - المصدر نفسه، ص 18.

خيمتي و اغرس وتدي في قمة الجبل"¹، فالوقت صار مناسباً لنفث كل حقه في أحشائها، لينتهي حبها في النهاية بالإنتحار كما إنتحرت مثيلاتها لأنهن حقن بقطرة من سم العنف " و تنتحر إيزابيلا كما إنتحرت شيلا و آن همدن من قبل لأنها و هي الأوروبية المتمدنة قد هاجت فيها البدائية المتوحشة فأفحشت لأنها و هي الزوجة الوفية قد تحركت بركتها فزنت و إن سعت بذلك كله"².

2/صورة المرأة المولوعة بالشرق و صحرائه (جانين):

جانين مونثرو، فتاة شقراء جميلة، تتمتع بجاذبية أخاذة، وجه أبيض و عينا زرقاوان، كانت تقيم في نفس الفندق الذي يقيم فيه البطل، و هي شخصية هادئة ، مثقفة و واعية تختلف عن الشخصيات النسائية اللواتي عرفهن بطل "الحي اللاتيني" سابقاً³، جمعتهما علاقة حب كبيرة، و كانت ككل الفتيات الغربيات اللواتي فتتوا بالشرق وجماله، و لعل ما جذبها إليه هو أنه رجل شرقي ، و قد إتضح ذلك عندما تعجبت من معرفتها بأنه شرقي، و تحمست و فرحت لذلك يقول : " و عجت بعض العجب حين أخبرها أنه من الشرق العربي و قالت موضحة : لقد أنبأتني تقاطيع وجهك أنك لست أروبيا ثم روت له بأنها قرأت بعض ما كتبه أدباء فرنسيون زاروا الشرق " كلامارتين^{*} و " غوته "^{*} و "فلوبير"^{*} ، و أضافت أن ما كتبه فلوبير خاصة قد

¹ - المصدر نفسه، ص 59.

² - المصدر نفسه، ص 18.

³ - ينظر مصطفى فاسي، البطل المغترب في الرواية العربية، المرجع السابق، ص 153.

^{*} - الفونس دولامارتين (1790-1869م) شاعر و سياسي فرنسي، يعد أحد أكبر شعراء المدرسة الرومانسية الفرنسية من أشهر أعماله (تأملات شعرية).

^{*} - غوته (1749-1832) هو أحد أشهر أدباء ألمانيا المتميزين من أشهر أعماله فاوست.

⁻ غوستاف فلوبير (1821-1880م) روائي فرنسي، رواياته المشهورة سالامبو، تجربة القديس أنطونيوس.

أثار حنينها يوما إلى زيارة الشرق و رؤية الجمل و النخيل و الصحراء"¹، فجانين هي من الناس الذين تستهويهم حياة الصحراء و الرمال، لذلك فهي تتحرق شوقا لرؤيتها و زيارتها يوما، وهذا ما وضحته و صرحت به في رسالتها: "أنظر الآن و أنا أخط هذه الكلمات إلى هذين الأعرابيين اللذين يدخان ما تدعونه " النارجيلية" فيستخفني الحنين إلى الشرق و الصحراء و الجمال أترى يتاح لي يوما أن أشاهد تلك الرمال"².

حب جانين الكبير و الشديد للبطل جعلها تعمل و تجتهد لأن تكون مثل المرأة الشرقية في عشقها للرجل العربي تقول: " سأصارع حبيبي العربي بأني سأحبه كما تحب المرأة الرجل في الشرق، لا تطلب مقابلا، و لا تنتظر عروضاً، لا أدري أين قرأت هذا، و لكني أعتقد أنه الحب الصحيح، لأنه التفاني كله و الإخلاص...."³، فمحاولتها ورغبتها هذه تثبت و تؤكد مدى حبها له، و لعل حبها هذا هو الذي غدى نفسيته المتألّمة و أعاد إليها توازنها، و ساعده على تحمل مرارة و قساوة الغربة، حتى و لو أن جانين مونترو " تفهم الشرف على نحو مغاير لما تفهمه المرأة الشرقية، فالشرف عندها هو (الإخلاص) و ليس المحافظة على بكارتها"⁴، و هنا يمكن أن نقول أن حب جانين و وفائها لحبيبها الشرقي أعطى صورة مغايرة مشرقة مشرفة عن المرأة الغربية فغيرت تلك الرؤية السلبية التي أخذناها عن المرأة الغربية من خلال "سوزي" و "ليليان" الخائنة المستهترّة، فالنساء الغربيات ليسوا كلهن وضيعات.

¹ - سهيل ادريس، الحي اللاتيني، المصدر السابق، ص 94.

² - المصدر نفسه، ص 204.

³ - المصدر نفسه، ص 164.

⁴ - بوجمعة الوالي، المرجع السابق، ص 64.

المطلب الرابع: نشاط المرأة الغربية (العمل)

1/صورة المرأة الغربية العاملة:

أ-جانين

لطالما عرف الغربيون بنشاطهم و جديتهم في العمل، و تقانيهم فيه، و لعل هذا ما ميزهم و جعلهم يتفوقون على الشرقي الذي عرف بكسله و خموله، و لهذا أعجب الكثيرون بطريقة عمل الغربي،ومن بين هؤلاء "محمد فكري" و"أحمد زكي" و غيرهم....، وفي ذلك يقول "أحمد زكي" عنهم: "أنظر إلى أين وصل التقن بهم (أي الغربيين) في فعل الخيرات و نفع الجنس البشري، فيا حبذا لو قرأ هذه السطور بعض أبناء الأغنياء في بلادنا و تنافسوا في هذه الطريق بدلا من الطرق الأخرى المعروفة لديهم"¹، فإتقان العمل و التقاني فيه هو الذي جعل الرجل الغربي يحظى دائما بمنزلة رفيعة و يضرب به المثل في إخلاصه للعمل.

إن نشاط المرأة الغربية لا يختلف عن نشاط الرجل الغربي، فالمرأة الغربية إنسانة عملية لا ترضى أن تكون عالة على أحد²، لذلك تجدها تشقى و تعمل حتى تكسب لقمة عيشها و لا تحس أي أحد بنقصها، فجانين بطلة "الحي اللاتيني" مثلا عندما نفذ المال منها قررت أن تبحث عن عمل و تتحمل مسؤولية عيشها من دون أن تشعره بذلك و تقرض نفسها عليه و " حين بات الإغضاء عما هي مقبلة عليه من ضيق لا

¹ - أحمد زكي نقلا عن نازك سابا يارد، الرجالون العرب و حضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، المرجع السابق، ص 228.

² - ينظر حسن عليان، العرب و الغرب في الرواية العربية، المرجع السابق، ص 115.

جدوى فيه، عازمت على أن تبحث عن عمل تعينها أجرته على متابعة درسها، و هي لم تشأ أن تستبدل غرفتها فتكشف له عن حقيقة الأمر، و تحمله هما هو في غنى عنه....¹.

تصرف جانين هذا هو دليل على عزة نفسها و قوة شخصيتها، فهي لم تطمع في مال البطل، بل اكلت على نفسها، و اشتغلت بائعة في محل ثياب الأطفال "البرانثان"، تقول له ضاحكة: "أتحسب أنني أرضى بأن أقاسمك قرشك إذ كان بوسعي أن أحصل مثله بالعمل؟"²

فالمهم عند جانين أن هذا المال من تعبها، و على الرغم من أنها كانت تأتي منهكة من العمل ليلاً، إلا أنها كانت تجتهد لتعوض ما فاتها من دروس الصحافة، فهي إنسانة طموحة و عملية جداً، و حتى لو كان هذا التعب و العمل على حساب صحتها فهي لا يهتمها ذلك، تقول "جانين" للبطل الذي خيرها بين أمرين: "أراك تحاول يا عزيزي أن تخبرني بين أمرين و ذلك حرصاً على صحتي دون ريب.... ألا تظن أن استحقاق هذه النعمة يقتضي منا بذل أعظم ما نستطيعه من جهود؟"³، و لعل هذا الجهد الزائد المبذول كلفها صحتها يقول: "....إلى أن سقطت جانين بعد أسبوعين صريعة هذا الإرهاق الذي إرتضته...."⁴.

¹ - سهيل ادريس، المصدر السابق، ص 150.

² - المصدر نفسه، ص 151.

³ - المصدر نفسه، ص 154.

⁴ - المصدر نفسه، ص 154.

ب/ المرأة تريز:

إن العمل عند المرأة الغربية له معنى و قيمة كبيرة، فهو مكسب للرزق من جهة، و مكسب و حافز و دلالة على قوة شخصية المرأة و تحررها¹ من جهة أخرى، و لذلك فهي دائما تسعى للعمل خاصة إذا كانت ظروفها قاسية، فالخادمة "تريز" مثلا ظروفها الصعبة هي التي فرضت عليها الخروج للعمل، فهي أرملة و أم لأربعة أطفال صغار، ليس لهم من يعيلهم إلا والدتهم "تريز" التي إشتغلت من أجلهم خادمة في الفندق من اجل تلبية حاجات أبنائها الصغار يقول: " و قد رغب إليها يوما أن تحدثه عن أولادها، فراحت تروي له بعض ما تعانيه في تربيتهم بلهجة تنبض بالحب و التقاني، و هزه حديثها ذلك اليوم فأعطاهما بعض نفقته الشهرية²، رافة لحالها.

على الرغم من أن "تريز" في حاجة إلى المال الذي تقبضه من الفندق، لكنها إنسانة مخلصنة و صاحبة واجب و خير، فعندما، إعتاز البطل إلى المال، لم تتردد "تريز" في إعطائه إياه، تقول "تريز" معاتبة إياه: "....إنك فتى غير لطيف، لم ترددت طويلا في أن تطلب إلي ذلك؟ لابد أنك محتاج إلى المال من ايام كثيرة، إنك فتى لطيف بالإجمال، ألم تعاهدني على ألا تتردد في طلب معونتي....؟.... ألف فرنك"

¹ - ينظر حسن عليان، المرجع السابق، ص 115.

² - سهيل ادريس، المصدر السابق، ص 99.

صحيح أنني لست صاحبة ملايين، و لكن بوسعي أن استغني عن ألف فرنك، و من حسن الحظ أنني قبضت هذا الصباح بالذات أجرتي الأسبوعية"¹.

ج/جرمين

لقد بينت رواية "عصفور من الشرق" معاناة الأسرة الفرنسية من الوضع المزري الذي كانت تعيشه فرنسا آنذاك، فأسرة "أندريه" صديق "محسن" و المتكونة من والديه العجوزين و زوجته "جرمين" و إبنهما الصغير "جانو" تجد صعوبة كبيرة في الحصول على قوتها، "فأندريه" و زوجته استنزف منهما عمل المصنع كل طاقتهما²، يصف "محسن" جرمين و هي تدخل البيت منهكة من العمل فيقول: " و ظهرت امرأة في مقتبل العمر، جذابة الوجه و عليهما - هما الإثنان - مظهر التعب و القوى المنهكة، و مسحت العجوز يديها.... و أقبلت على زوج إبنها تعانقها، و تتأمل وجهها و تقول في حسرة متصنعة: إنك متعبة منهكة القوى يا جرمين!.... إننا أماء نعمل ثماني ساعات في النهار!.... يا لها من وحشية.... إن هذا لم يسمى عملا، إنما هو الإسترقاق...."³.

إن لم تخرج جرمين من بيتها إلا لحاجة ماسة، فأجرة زوجها لا تكفي قوتهم لذلك أرادت أن تساعد زوجها، ما دام الأمر يستدعي ذلك، لكن عمل المصنع اخذ كل وقتها فهي لا تجد وقتا حتى لتربية إبنها "جانو" ، و تقول العجوز: " لم يبق لي جلد على

¹ - المصدر نفسه، ص 147.

² - ينظر مصطفى فاسي، المرجع السابق، ص 192، 193.

³ - توفيق الحكيم، المصدر السابق، ص 32، 33.

تهذيب هذا الغلام، و إني أصارحكما القول: " هذا ليس من عملي، إنما هو من عمل الأبوين.... فأجاب "أندريه" في غير إكتراث:- و هل تظنين يا أماء أن هذا من عملنا نحن...؟ هذا من عمل المدرسة....، أما نحن فلدينا عمل آخر كما تعلمين!....نعم....المصنع"¹، و حسب كلام "جرمين" لم تبق هناك أسرة اليوم، لأن العمل شتت كل افرادها، مادام ليس للأم وقت لرعاية طفلها، "صدقتما، لم تعد هناك أسرة....الرجل و المرأة في المصنع طول النهار!.... يا له من زمن عجيب!...."²، فظروف المعيشة القاسية حتمت على المرأة أو الفتاة أن تكون مثل الشاب الذي يكد للحصول على لقمة عيشه .

¹ - المصدر نفسه، ص 37.

² - المصدر نفسه، ص 38.

المطلب الخامس: المرأة المثقفة

تحتل القراءة أو المطالعة مكانة هامة و أساسية في حياة الغربيين، فهم لا يجدون متعتهم و راحتهم إلا من خلال القراءة التي ترفه عنهم و تثري رصيدهم المعرفي، فهم لا تستهويهم مشاهدة التلفزيون بقدر ما تستهويهم المطالعة، لذلك تجدهم يقرؤون طوال أيام الأسبوع، ماعدا يومي السبت و الأحد فيفضلون السهر خارجا و هذا لكسر الروتين فقط¹.
ليس شرطا أن يكون للإنسان المطالع مستوى تعليمي عال، فالمطالعة لا تتطلب ذلك، فكل إنسان يأخذ الكتاب الذي يناسبه و يناسب مستوى تفكيره، لذلك نجد العامل الغربي البسيط يخصص نصيبا من أجرته الشهرية لشراء الكتاب المناسب و من بعدها تكوين مكتبة صغيرة خاصة في بيته يمضي فيها معظم وقته لأنه يدرك جيدا أهمية القراءة و ضرورتها، فهي وسيلة للمعرفة و الثقافة، فالقراءة هي زاده، " فالكتاب و الخبز من الأشياء الأساسية في حياة الفرد الباريسي ففي أحيان كثيرة تشاهده في الشوارع يحمل كلا منهما، كتاب و رغيف من الخبز"².

إن مكان القراءة ليس مهما عند الغربيين ، المهم أن يقرأ سواء في حديقة أو مقهى، و لعل هذا ما أدهش بطل "الحي اللاتيني" عندما خرج يمشي كئيبا لوحده تحت المطر، و فجأة رأى فتاة تمر من أمامه و في يدها كتاب تقرأه ، غير مكترثة

¹ - ينظر سمير سعيد حجازي، ثقافة العرب و ثقافة الغرب في قراءة العصر مؤسسة طيبة للنشر، القاهرة، ط1، 2005م، ص 334.

² - المرجع نفسه، ص 334.

و آبهة لسقوط المطر يقول البطل:" و إذ هو في إرتبائه، و المطر لا يخف هطوله، مرت بقرية فتاة تقرأ في كتاب و هي تمشي الهوينا، غير عابئة بالمطر، و شعر فجأة بأن موجة من ضياء تغمر كيانه، فتتشع عن نفسه غيوم الاضطراب و القلق هنا في صفحات هذا الكتاب سيجد راحة ضميره"¹، و تواصل هذه الفتاة طريقها و هي تقرأ و البطل يتبعها من بعيد حتى عندما قفرت إلى الأتوبيس ظلت تقرأ غارقة في كتابها، فهذه الفتاة هي رمز و نموذج للمرأة الغربية المثقفة، فنسبة القراءة و المطالعة في أوروبا أكثر مما هي في الوطن العربي.

فرنسواز و جانين:

فرنسواز هي فتاة فرنسية، جميلة و جذابة، هي حبيبة فؤاد صديق بطل "الحي اللاتيني"، تعمل في إحدى مكتبات باريس، ذات ثقافة عالية و رفيعة، و قد إتضح ذلك عندما خرجوا من المسرح و أخذوا يعقبون على المسرحية التي حضروها، يقول:" لقد أخذت نتحدث عن فن "بيراندالو" * في التأليف المسرحي، و تشير إلى مواقف معينة من مسرحيته فتحللها بعمق، ثم تنوه بالحس النقدي الذي يملكه هذا المؤلف..."² فمناقشة فرنسواز هذه، و تحليلها الدقيق لهذه المسرحية دليل على قوة شخصيتها، وسعة ثقافتها مما جعل الكل يعجب بها يقول البطل:" و مضت دقائق، و هم يسIRON ببطاء.... قبل

¹ - سهيل ادريس، المصدر السابق، ص 43.

* بيراندالو لويجي (1867-1936م)، كاتب و مسرحي و شاعر إيطالي، حصل على جائزة نوبل للأدب عام 1934م.

² - سهيل ادريس، المصدر السابق، ص 144.

أن تنخرط جانين و فرنسواز في حديث نسوي، فانتهازها هو فرصة ليحدث صديقه و يثني على هذه الفتاة ثناء عظيما، و قد علق فؤاد على ذلك يقول: " الحق أنني شديد الإعجاب بفرنسواز، و لست لأكتمك أنها ترضي معظم نزعات نفسي...."¹.

إذن فرنسواز هي صورة للمرأة المثقفة، و جانين مونetro مثلها تماما فهي تمتلك قدرا كبيرا من الثقافة و المعرفة، فهي امرأة متعلمة، و قد إكتشف البطل ذلك عندما ذهب إلى المتحف يقول: " و قد إقترحت عليه جانين يوما أن يزورا بعد ظهر يوم الأحد متحف "رودان" و هنا إكتشف أنها فتاة ذات ثقافة فنية، و أنها تتذوق الأثر تذوقا مرهفا، وكان يدرك هو أنه مقبل في ذلك على أمر شاق، شأنه في هذا شأن كل شرقي تعوزه الثقافة الفنية غالبا"²، و في كلام البطل هذا إعتراف صريح و واضح أن الشرقي قليل الثقافة مقارنة بالغربي، و لعل هذا ما جعل ليليان تهزأ من ثقافته عندما انتحلت قصيدة جاك بريفر.

من خلال دراستي لصورة المرأة الغربية لاحظت أن الأدباء رسموا صورتين متناقضتين للمرأة الغربية صورة إيجابية و صورة سلبية سنبينها في الجدول الآتي :

¹ - المصدر نفسه، ص 145.

² - المصدر نفسه، ص 110.

جدول ملخص لصورة المرأة الغربية في الرواية العربية :

المرأة الغربية	الصورة السلبية	الرواية
-سيمون-جانيت وسوزان وهيلين.	فتيات جريئات.جميلات .مثيرات .يعشقن الرقص و الموسيقى .تعرف عليهن البطل في بيت صديقه عندما قدمن للقاء أحبابهن .	الحي اللاتيني
-فتاة الرصيف	-فتاة شوارع .عاهر .همها الوحيد هو كسب المال بأي وسيلة. ساقطة .	
-مارغريت	هي فتاة جميلة .حيوية .شعرها كستنائي اللون .جريئة .و قوية الشخصية . -مغرية و سهلة المنال .	
-فتاة السينما	-وجه جميل .عينان زرقاوان. -مخادعة و كاذبة فقد اهانت البطل بعدم مجيئها الى الموعد «سخرية و إهانة» .	
-ليليان	-وجه جميل .سوداء العينين .دقيقة تقاسيم الوجه . -في الثلاثين من عمرها . -إدعت أنها شاعرة «مزيفة و كاذبة» . -عاهر . مخادعة . -ماكرة . سارقة « سرقت محفظة نقوده»	

باريس	-مدينة الحرية المطلقة و بيروت هي رمز للقيود و الضوابط. -مدينة حضارية عظيمة . شوارع فسيحة . النظافة و الإنتظام . -أبنية فخمة .	الحي اللاتيني
-جين مورس	-إمرأة مومس و وضیعة . -متعالية و متسلطة . -إذلال و إهانة رجولة مصطفى سعيد . -مستفزة .	موسم الهجرة الى الشمال
-شيللا غرينود	-جميلة المنظر . فتاة طيبة . -رومانسية حاملة . -حولها مصطفى سعيد إلى عاهر رخيصة .	
-آن همند	-طالبة في قسم اللغات الشرقية بأكسفورد . -جميلة المنظر .في العشرين من عمرها . -ذكية .مرحة . -هي الجارية الطائعة للأمير الشرقي مصطفى س . -تحولت إلى عاهر وضیعة .	
-إيزابيلا سيمور	-متزوجة و أم لثلاثة أطفال . -في الأربعين من عمرها . -خاتنة لزوجها تحولت إلى عاهر في الأخير .	
-لندن	-مدينة الثلوج . -مدينة للعلم .	
-سوز	-فتاة لطيفة . حنونة . -ممارسة الجنس مع البطل أمام الملاء	

-إسبانيا	-شوارع فسيحة. -رمز للحرية على عكس المغرب فهي رمز للظلم و التخلف .	-المرأة و الورد
-سوزي	-عاملة بسيطة في مسرح الأوديون . -أنانية خائنة .	-عصفور من الشرق .
-باريس	مسارح . دار أوبرا .تقدير قيمة الفن .	
-فرنسواز	-إمراة فاتنة . -في الثلاثين من عمرها. -أرملة لجندي فرنسي . -لعوب مأكرة . -كشفت سر البشير و أخفت عنه حقيقة مرضه .	-ما لا تذروه الرياح
-فرنسا	-بلد الخيرات -الإنبهار بعظمتها . -حياة ممتعة .	

-المرأة الغربية	الصورة الإيجابية	الرواية العربية
-جانين	-شقاء جميلة . وجه أبيض و عيان زرقاوان . -شخصية هادئة . -مثقفة و واعية . -مفتونة بسحر الشرق و الصحراء	-الحي اللاتيني

الحي اللاتيني	-وفية و محبة للبطل الشرقي. -إنسانة طموحة و عملية . -قوية الشخصية و نزيهة . -لم تطمع في البطل بل إشتغلت بائعة في محل الثياب عندما نفذ منها المال «عزة النفس» . -العاشقة المخلصة .و قد غيرت تلك الرؤية السلبية عن المرأة الغربية .	
	-خادمة في فندق . -أرملة و أم لأربعة أطفال صغار . -متقانية في عملها . -إمرأة مخلصة و صاحبة واجب .	-المرأة تريز
	-فتاة فرنسية . جميلة و جذابة. -ذات ثقافة عالية و رفيعة.	-فرنسواز
-عصفور من الشرق .	-زوجة أندريه صديق محسن. -جذابة الوجه . -عاملة في مصنع .فظروف المعيشة حتمت عليها أن تشتغل لتحصل على لقمة عيشها .	-جرمين

المطلب السادس: بين المرأة الشرقية و المرأة الغربية

إن الوضع المزري و القاهر الذي تعاني منه المرأة العربية في الشرق حرك الكثير من الأدباء و المصلحين لدراسته و تحليله، و العمل جاهدين لإيجاد حلول سريعة لهذا الوضع الذي يزداد تأزماً، فنأدى "قاسم أمين" مثلاً بتحرير المرأة العربية، كما عبرت الكاتبة الفلسطينية "سحر خليفة" في كتابها "لم نعد جوارى لكم" عن حال المرأة الشرقية بقولها: "لقد كتب على المرأة أن تعيش محنطة في هذه البلاد هذا هو المطلوب من المرأة ان تكون هنا مجرد أنثى محنطة! و عليك يا عزيزتي أن ترضى بهذا"¹، كما إنتقد "الريحاني" تقاليد الشرق التي تكبل و تظلم المرأة الشرقية بقوله: "و الأخلاق التي تنمو في ظل الاستعباد و تحت نيره، و إن كانت شريفة كالصبر و الطاعة و الصدق و الوفاء، فإن هي إلا أخلاق العبيد، فالمرأة التي تحب كرها، و تكون كرها من الصابرات الطائعات الساكتات تربي نفسها و في نسلها و في أمتها بذور العبيد. و على المرأة الشرقية أن تسعى قبل كل شيء في تحرير نفسها..."².

لقد حاول الأدباء مساندة المرأة الشرقية المقهورة المكسورة فضموا أصواتهم إلى صوتها الحزين المكبوت، و دعوا إلى تحريرها لأنها إنسان من لحم و دم ، إنسان مرهف الشعور ، لا قوة على مواجهة هذا الوضع القاسي المفروض عليها ، إلا الصبر و التحمل إلى أن يأتي الفرج أو التمرد على هذه التقاليد التي تلغي شخصيتها

¹ - سحر خليفة، لم نعد جوارى لكم نقلا عن فوزية الصفار، المرجع السابق، ص 138.

² - الريحاني نقلا عن نازك سابايارد، المرجع السابق، ص 388.

و صوتها، و هذا الوضع و هذا التمرد هو ما قامت به و جسده المرأة العربية "حسنة بنت محمود" في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح.

"فحسنة بنت محمود" هي رمز و صورة للمرأة القروية المظلومة، تزوجها "مصطفى سعيد" بعد عودته من لندن، و عاملها معاملة حسنة لا تخلو من الطيبة و الإحترام، فغير البعض من سلوكها و طباعها التي توحى بالتخلف، حتى أصبحت مثل نساء المدن، جمعتها "بمصطفى س" علاقة جميلة طيبة فعاشت معه عيشة هنيئة كريمة، لكن هذه العلاقة للأسف الشديد، لم تستمر طويلا، لوفاة "مصطفى س" غرقا، و هنا تبدأ معاناة "حسنة بنت محمود" و تبدأ سلطة الأعراف و التقاليد التي تفرض عليها الزواج مرة أخرى، حتى و إن أبت ذلك¹.

بعدما أصبحت "حسنة" أرملة و وحيدة إغتتم "ود الرئيس" العجوز التعبان الفرصة و طلبها للزواج، فهي امرأة جميلة و جذابة، و ممتلئة الجسم و هو لن يضيعها من بين يديه، فقد كان "ود الرئيس" رجلا بلهموطي، لا يهتم في المرأة سوى "فرجها" الذي يشبع جسعه و نهمه الجنسي، فهو رجل لا يشبع من النساء ، يتزوج المرأة لسنة و عندما يرتوي منها يرميها و يأتي بغيرها²، لكن هذه المرة "حسنة بنت محمود" تكسر شوكتة و ترفض الزواج به تقول: "إذا أجبروني على الزواج به ، فإنني سأقتله و أقتل نفسي"³ ، و سرعان ما سمع "ود الرئيس" هذا الخبر فوقع على رأسه كالصاعقة و جن جنونه

¹ - ينظر فاطمة موسى، في الرواية العربية المعاصرة، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، د.ط، د.ت، ص 250.

² - ينظر بوجمعة الوالي، المرجع السابق، ص 116.

³ - الطيب صالح، المصدر السابق، ص 101.

قائلا: " قال و عيناه الذكيتان لم تعودا ذكيتين، أصبحتا كرتين من الزجاج قد إستقرتا على حالة واحدة جامدة: لن أتزوج غيرها، ستقبلني و أنفها صاغر، هل تظن أنها ملكة أو أميرة؟....تحمد الله أنها وجدت زوجا مثلي"¹.

و بكلام "ود الرئيس" هذا تثور "حسنة" و تتمرد على السلطة الذكورية و على تلك التقاليد الرجعية²، فهي على الرغم من انهم زوجها رغما و غصبا عنها لكنها لم تترك "ود الرئيس" يقربها الى أن أتى اليوم المشؤوم و قررت أن تتخلص منه، تروي "بنت مجذوب":
"بعد صلاة العشاء بزمان إستيقظت على صراخ "حسنة بنت محمود" في دار "ود الرئيس" ظننت أن ود الرئيس " أخيرا نال حقه منها الرجل المسكين أشرف على الجنون، أسبوعين مع المرأة لا تكلمه و لا تدعه يقربها.... ثم سمعت "ود الرئيس" يصرخ بأعلى صوت:.... بنت محمود قتلتني"³.

إن هذا التصرف أو هذا السلوك الذي قامت به " حسنة بنت محمود" هو نقطة تحول كبيرة في تاريخ السودان، فطعننها لود الرئيس هي طعنة لكل رجال قرى السودان ، فهي أول امرأة تجرأت على هذا الفعل⁴ يقول: " لا حول و لا قوة إلا الله ، أول مرة

¹ - الطيب صالح، المصدر السابق، ص 101.

² - ينظر بوجمعة الوالي، المرجع السابق، ص 116.

³ - الطيب صالح، المصدر السابق، ص 121.

⁴ - ينظر بوجمعة الوالي، المرجع السابق، ص 117.

يحصل شيء مثل ذلك في هذه البلد منذ خلقها الله، محن آخر الزمن"¹، إذن لم يعالج الطبيب صالح في روايته "موسم الهجرة إلى الشمال" الصراع الخارجي بين الشرق والغرب فقط، بل الصراع الأصعب كان في داخل القرية صراع الأنثى الشرقية (حسنة) التي تمثل جيل الشباب التي ترفض أن تكون " مجرد وعاء للذة الجنسية بقدر ما تريد أن تكون طرفا في المعادلة، فالجنس عندها ليس مجرد لذة عابرة يمارسها الرجل الشرقي حسب مشيئته بقدر ما هي ألفة و تآلف بين إثنين"²، مع جيل الشيوخ "ود الرئيس" الشرقي الذي لا يبحث إلا عن لذته فهو عجوز نهم.

إن "عملية قتل" مصطفى س "لجين مورس، و قتل " حسنة بنت محمود" "لود الرئيس" تنتقل بنا من جو الإجرام و القتل إلى جو الجنس و اللذة و فرض الذات ، فهو قتل الإضطهاد الأروبي من جهة و سحق لعقلية رجعية في صميم الشرق نفسه "³ .

في كتابه " تحت شمس الفكر" يحذر توفيق الحكيم تحذيرا شديدا من خطر تقييد حرية المرأة و حبسها، لأن في ذلك خطرا على المجتمع كله، المرأة هي روح المجتمع و كيانه، و إقصائه من المجتمع هو قتل لشخصيتها و عقلها ف: " عقل المرأة إذا ذبل

¹ - الطبيب صالح، المصدر السابق، ص 120.

² - فوزية الصفار، المرجع السابق، ص 135.

³ - فوزية الصفار، المرجع السابق، ص 135.

ومات ! فقد ذبل عقل الأمة كلها و مات....¹، لذلك دعى الحكيم إلى تحريرها و معاملتها
معاملة الإنسان للإنسان².

و في رواية "الحي اللاتيني" يرسم سهيل إدريس صورة المرأة الشرقية "ناهدة" التي
تعشق الرجل بخوف و صمت و رعب من العادات و التقاليد التي تفرض عليها كبت
مشاعرها إزاء الرجل، تلك التقاليد "التي جعلت من المرأة الشرقية روحا مذعورة من شبح
الرجل، تتوجس منه و تخافه و تحذره"³، فصارت فتاة معقدة، و عقدت معها حتى الرجل
الشرقي الذي أصبح يظن أنه شخص مخيف للمرأة، لأنها تخاف حتى من الوقوف أمامه⁴،
يصف البطل ذلك: "و التقت أعينهما إذ أحس كل منهما بأنه يقاطع الآخر، ثم رآها تتراجع
فجأة في عينيها أثر من خوف، كأنما شعرت بأنها قريبة إليه قربا لم تكن تقدره، ولا يدرى
أي عالم انفتح له ففي هذه الخطوة المتراجعة: لقد رأى الفتاة الشرقية، الفتاة العربية، تتراجع
أمام الشباب، أي شاب عربيا كان أم أجنبيا، أمام "الرجل" و عيناها طافحتان بالخوف منه،
رواسب من الخوف تجمعت"⁵.

إن حال "ناهدة" هذا مثيلاته كثر، فقد تربت المرأة في مجتمع شرقي له قوانينه، و
القانون الذي وضع لها خصيصا هو تقديس جسدها⁶، يقول البطل " و قد ظل برهة

¹ - توفيق الحكيم، تحت شمس الفكر، دار مصر للطباعة، د.ط، د.ث، ص 162.

² - ينظر المرجع نفسه، ص 135.

³ - حسن عليان، المرجع السابق، ص 122.

⁴ - ينظر حسن عليان، المرجع السابق، ص 122.

⁵ - سهيل إدريس، المصدر السابق، ص 196.

⁶ - ينظر حسن عليان، المرجع السابق، ص 122.

ينظر إلى ناهدة، فلا يراها هي، و إنما يرى آلاف و آلاف من هاتيك العربيات المنتثرات في أرجاء الوطن الكبير، يقيم الحذر بينهم و بين الرجل حواجز صفيقة يستحيل معها كل تعاون مثمر و كل مشاركة مجدية"¹، و من ثم كبت شهوتها و دفن مشاعرها يقول: " لقد تراجع ناهدة لا لشعورها بأنها هي كإنسانة قريبة منه هذا القرب.... و إنما لشعورها بأنها هي كذلك كجسد، و لقد تعلمت أن تقدس هذا الجسد، لا تقديس حب و عبادة، و إنما تقديس خوف و حذر، إنه مستودع عواطف و نزوات و مخزن مشاعر و شهوات، حكم عليها بأن تكبتها و تعيش في تآكلها..."².

لقد أشفق " سهيل إدريس " على حال المرأة الشرقية المؤلم، خاصة عندما رأى بأم عينه الحرية التي تتمتع بها المرأة الغربية التي لا تعرف أي خوف و زعر من الرجل أو غيره، فهي تعيش حياتها من دون أي عقد على عكس المرأة الشرقية التي حرمت من أدنى حقوقها،كمواصلة تعليمها الجامعي مثلاً، حتى عندما سألها البطل عن التخصص الذي تريده لم تجب هي، بل أجابت أمها بدلاً عنها، و هذا يعني أن ليس لها أي كلمة أو رأي، أمها هي التي تحدد مصيرها و مستقبلها يقول: " إذن فقد نجحت " ناهدة " في البكالوريا.....أي فرع تتوين ان تتخصصي فيه فقلبت ناهدة شفتها السفلى و لم تجب و كانت أمها هي التي أجابت ليس في النية أن

¹ - سهيل إدريس، المصدر السابق، ص 196 - 197.

² - المصدر نفسه، ص 197.

تتم ناهدة التخصص¹، فناهدة لا تشبه لا "ليليان" المسترجلة التي تجرأت و سرقت ماله و ضحكت عليه، و لا "جانين" المحبة الصريحة التي صارحت البطل بحبها و عشقها له، مع العلم أن "ناهدة" تحبه كذلك لكنها فضلت أن تكتم كل ذلك في صدرها.

إن وضع "ناهدة"، و وضع المرأة الشرقية لم يعجب البطل لذلك نجده يدعوها للتحرر من خلال عقد مقارنة بينها و بين المرأة الغربية يقول: " صور نساء عرفهن ، لا يخشين أجسادهن لأنهن لا يقدسن كبت نوازعهن، و لأنهن يشعرن بأنهن شيء آخر غير جسدهن"²، و هذا الكلام هو خير دليل على دعوى البطل الى انفتاح و تحرر المرأة الشرقية و المجتمع الشرقي من عقده الجنسية ، و السماح للناس بممارسة هذه العلاقة الجنسية خارج الزواج³.

إن التحرر الذي نادى به سهيل إدريس تحرر مبالغ فيه، لأن المرأة العربية الشرقية لها قيمها و مبادئها، ليست تلك القيم التي يدعي البعض أنها تكبل المرأة الشرقية، و لكن القيم التي تحفظ لها شرفها و كرامتها، على عكس المرأة الغربية الأوروبية التي ليس لها ضوابط تصونها و لذلك نجد محمد مندور ينتقد سهيل إدريس فيقول : " لا نرى إلى أي حد كان يريد سهيل إدريس من الفتاة العربية أن تتحرر لكي تنقذ الشاب العربي من إستبداد غريزته الجنسية و طغيانها ، و ذلك ما لم يفصح عنه ، و ما نظنه يريد أن تنزلق إلى مستوى مارغريت و ليليان بل و لا

¹ - المصدر نفسه، ص 194.

² - المصدر نفسه، ص 197.

³ - ينظر جميلة بوعبد الله، المرجع السابق، 192.

مستوى جانين موننترو نفسها، و إلا نكب المجتمع بالاحتلال بنكبة المرأة في عرضها بل في إنسانيتها المعذبة¹، و هذا ما لن يرضى به المجتمع الشرقي.

إذا كان البطل الشرقي حقا متحررا إلى هذه الدرجة، فلما نجده يتراجع و ينصدم أمام خبر حمل "جانين" و يتنكر لجنينه منها، و وقف بالضبط أمام مسألة الشرف و غشاء البكارة، و غيرها من الأمور التي توحى بأنها شريفة ومحترمة و احتقر كل قيمها الغربية، وتمسك بقيمه الشرقية التي لن يجد أحسن منها، فهذا دليل على تناقضه، و هنا يمكن أن نقول أن البطل الشرقي في الحي اللاتيني شخص متناقض مع نفسه و أفكاره، فالتقاليد والأعراف الشرقية التي لم تكن تهمه، نجده يقف عندها بالضبط في الأخير، إذن الدعوة إلى التحرر قولاً شياً، و الممارسة و التطبيق شيء آخر.

¹ - محمد مندور، قضايا جديدة في أدبنا الحديث، نقلا عن شتوح قنية، تأثير سارتر في أدب سهيل إدريس، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1984-1985م، ص 97.

الفصل الثالث

مشروع الإنتقام

المبحث الأول: مشروع الإنتقام و أسلحته

المطلب الأول الإنتقام بالحب الحي اللاتيني موسم الهجرة إلى الشمال

المطلب الثاني: بين عطيل و مصطفى سعيد

المطلب الثالث: الحب الخيالي و الإنتقام عند توفيق الحكيم

المطلب الرابع: غياب الإنتقام في الرواية المغاربية

المبحث الثاني: الحوار بين الشرق و الغرب

المطلب الأول: صورة الرجل الشرقي عند الغربيين

المطلب الثاني: بين الشرق و الغرب المادية و الروحية

المطلب الثالث: فشل الحوار بين الشرق و الغرب فشل الأبطال

المبحث الأول: مشروع الإنتقام و أسلحته

إن توظيف المرأة الغربية في الرواية العربية ما هو إلا وسيلة إستخدامها الروائي العربي لرصد الصراع القديم بين الشرق و الغرب، فالعلاقة بين الشرق و الغرب من يوم يومها علاقة دموية متوترة، لم تخلف وراءها إلا الدمار و الهلاك، و لم تترك إلا الحقد و الضغينة في القلوب إلى يومنا هذا، و لعل هذه الضغينة هي التي قوت و حفزت الرجل الشرقي و دفعت به إلى الغرب ليثأر من الرجل الأبيض الذي نهبه و إستولى على أرضه في يوم من الأيام، فصب كل حقه على المرأة الغربية التي تمثل شرفه و عرضه، و لعل هذا ما لاحظناه مع الأبطال العرب، فمع العلم أنهم كانوا مفتونين بجمال المرأة الغربية و بالحرية الغربية، إلا أنهم لم يضيعوا و يفوتوا فرصة الإنتقام و الثأر.

المطلب الأول: الإنتقام بالحب "الحي اللاتيني، موسم الهجرة إلى الشمال"

إن بطل الحي اللاتيني شاب مسكين أمضى و ضيع كل وقته في مطاردة النساء الغربيات، فلم يأخذ منهن إلا الصفعة المؤلمة، فكل صفعة كانت أقوى خيبة و ألما من الأولى، إلى أن استيقظ و استفاق من آخر صفعة، و تذكر أن له مشروعاً يجب عليه أن ينفذه. و يثأر به من الرجل الغربي الذي آذاه سابقاً، من خلال المرأة الغربية اللعوب، و من هنا بدأ بطل الحي اللاتيني حسابه و انتقامه من تلك الفتيات الغربيات

اللواتي جعلنه أضحوكة و مهزلة، لكنهن لم يعلمن أن سخريتهن منه لم تزده إلا شراسة و حقدا، فكان رد فعل بطلنا الشرقي عنيفا جدا.

يصف جورج طرابيشي رد فعل البطل بعد خيبته و فشله الجنسي مع النساء فيقول: " و لكن ماذا كان رد بطلنا على ذلك الإحباط؟ لم يكن ردا، بل رد فعل، و بالتحديد رد فعل شرقي، فهو سينقل نفسه أولا من قفص الإتهام إلى منصة الإدعاء، و سيشهر ثانيا سلاح "الشرف" الشرقي ليندد بليليان و مارغريت لأنهما استسلمتا له منذ اللقاء الأول"¹، فراح يتساءل " أي إحساس أيقظته في جسمه و نفسه هاتان المرأتان اللتان استسلمتا له منذ اللقاء الأول؟ هل أحس لإحداهما بأية عاطفة، هل إهتز في قلبه لهما وتر"²، و فتاة السينما فتاة غير محترمة لأنها غريبة "لماذا الآن فتاة أخلفت موعدها ، ينبغي أن أخضع لهذا الشعور اليائس، و هل هن جديرات بالإحترام، كل أولئك الفتيات الفرنسيات اللواتي يسقن هذه الحياة الفارغة العابثة....."³.

فهؤلاء الفتيات أصبحن في نظره مجرد مومسات قذرات ، لذلك أراد أن يظهر نفسه من هذه القذارة و الوحل الذي تلتخ به ، و لم يجد حلا غير أن يتذكر كلام أمه الذي سيظهره و يشعره بالإرتياح⁴ ، فقد كانت دوما تحذره من بنات باريس و شرهن، و

¹ - جورج طرابيشي، شرق و غرب، رجولة و أنوثة، المرجع السابق، ص 81.

² - سهيل إدريس، الحي اللاتيني، المصدر السابق، ص 71.

³ - المصدر نفسه، ص 37، 38.

⁴ - ينظر جورج أزوط، سهيل إدريس في قصصه و مواقفه، المرجع السابق، ص 98.

بكلامها إستعداد البطل ثقته بنفسه و برجولته و فحولته، " فتنقذه من عمليتي إخصاء تعرض لهما، واحدة جنسية مع "مارغريت"، و ثانية ثقافية مع ليليان"¹.

إن الرسالة التي تلقاها بطل الحي اللاتيني من أمه كانت سلاحه، سلاح الشرق الذي سيخوض حربا مع الغرب، و هنا سيظهر الحقد الدفين الذي يكنه البطل للغرب، فهو لن يشفي غليله إلا الإنتقام من الغرب شر إنتقام من خلال فتاته الشقراء التي سخرت منه و من شرقه، فسينتقم منها على طريقته الشرقية، أي إستهلاك الرجل للمرأة جنسيا ثم يلفظها²، يقول البطل " إن قصارى ما ينبغي له أن يفعل هو أن يأخذها بين يديه، فيعصرها و يعصرها و يمتص كل حلاوتها، ثم يلفظها كما تلفظ النواة، و سيرى بعد ذلك، و سيشعر شعورا لا تردد فيه بأنها هي المسكينة التي تستحق الشفقة و العطف"³، و هذا الكلام هو خير دليل على أن صاحبنا دخل في مشروع الإنتقام، لكن من ستكون المرأة التي سيصب فيها كل هذا الحقد و الكراهية؟.

أكيد ليست فتاة السينما لأنها كانت مجرد شبح لم يلمح فيه إلا يدها، فلقاؤه بها كان مجرد لقاء عابر، كما أنها ليست فتاة الرصيف فهي مجرد امرأة ساقطة، ليست لها قيمة إجتماعية و لذلك فهي ليست جديرة بالإنتقام⁴ و ليست كذلك "مارغريت" فهي تمقت الرجال لأنانيتهم، و سداجة عقليتهم التي تصور لهم أن المرأة مجرد بضاعة للذة

¹ - المرجع نفسه، ص 98.

² - ينظر جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 90.

³ - سهيل إدريس، المصدر السابق، ص 38.

⁴ - ينظر جورج أزوط، المرجع السابق، ص 145.

تستهلك ثم ترمى كالسيجارة¹، كما أنها لن تكون "ليليان"، لأن ليليان لاعبة ماهرة، و على يدها ذاق الذل و الإستخفاف و الإستهزاء من رجولته و ثقافته، بالإضافة إلى السرقة أيضا². إنها بالتأكيد "جانين موننترو"، فتاة الألزاس الجميلة، العاشقة المخلصة، التي لم تسلم نفسها للبطل في المرة الأولى، بل كانت متريثة و حريصة في تعاملها معه، و لعل هذا ما شد البطل إليها، فإزداد إعجابا و ولعا بها، فعزم على الفوز بها، مع أنها فريسة صعبة المنال، لكن بفضل التجارب الفاشلة السابقة التي مر بها إكتسب خبرة ساعدته على الفوز بهذه المرأة التي سيحقق من خلالها مشروع إنتقامه³، خاصة عندما كشفت له عن سرها مع خطيبها هنري، فعرف البطل كيف يللم جرحها السابق، و يعيد ثقتها بالرجال حتى تحقق ضربته الهدف المرجو منها و ينجح مشروعه⁴.

إن الثقة التي منحتها "جانين موننترو" للبطل لم تكن في محلها، خاصة أنها تعاملت معه بحب و وفاء و سلمته نفسها و سرها بدون مقابل، لكن هو قابلها بالندالة لأن هدفه ليس الحب بل الإنتقام، فبعدما رھنت مصيرها بين يديه خذلها و "تمثلها في تلك اللحظة صخرة كبيرة تتدحرج في منحدر الأرض، لا يقودها غير خط الإنحدار حتى

¹ - ينظر جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 91.

² - ينظر جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 91.

³ - ينظر مصطفى فاسي، البطل المغترب في الرواية العربية، المرجع السابق، ص 153.

⁴ - ينظر جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 93.

تبلغ قعر الوادي"¹، وهذا بالضبط ما كان يسعى إليه البطل، فقد حقق هدفه المنشود و هو السقوط و الإنحدار، و به تصبح الفتاة مجرد ساقطة وضيعة²، و هاهي "جانين موننترو" تقول بعظمة لسانها " أي فتاة ضائعة سأكون"³، و الفتاة الضائعة "fille perdue" تعني بالفرنسية مومس⁴، و بالطبع بطلنا لا يبالي لمصيرها، بل يواصل مشروعه بكل برودة و شغف يقول البطل: " إنتهى الأمر و انفقأت الدملة"⁵، فقد وقعت الفريسة في المصيدة و البطل لن يرأف لحالها و لن يتراجع، فقد خطط و إنتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر أسابيع طويلة، " ففي هذا الإنفقاء دلالة على إنقضاء فترة زمنية لتعمل فيها الدملة و يختمرقيحها، و بديهي إنها ما كانت تعمل في ذهن جانين و إنما في ذهنه، فهو من كان ينتظر منذ أسابيع لحظة إنفقاءها، في حين أن "جانين" فوجئت بحديث السفر مفاجأة تامة"⁶.

لم تتقبل "جانين" فكرة سفره و بعده عنها، لذلك كانت تعزي نفسها بالرسائل المتتالية التي كانت تبعثها إليه، تعبر فيها به عن حبها و شوقها، و كانت الأمور تسير على ما يرام إلى أن أتته منها رسالة غيرت كل شيء جميل كان بينهما ، و فيها تخبره " جانين" بأنها حامل منه، و تسأله عن ينبغي عليها فعله ، و هنا سيدفع بها إلى

¹ - سهيل إدريس، المصدر السابق، ص 172.

² - ينظر جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 94.

³ - سهيل إدريس، المصدر السابق، ص 174.

⁴ - ينظر جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 94.

⁵ - سهيل إدريس، المصدر السابق، ص 174.

⁶ - جورج أزوط، المرجع السابق، ص 147.

الهاوية، و المنحدر التي كانت على وشك أن تسقط فيه، و ذلك من خلال رده الجارح القاسي الذي دل على نذالته و أنانيته و حقه¹، يقول البطل الشرقي في رسالته: "صديقتي جانين تلقيت رسالتك التي تبلغيني فيها أنك تنتظرين مولودا.... و قد دهشت حقا حين فهمت أنك لم تعلني هذا النبأ السعيد لجميع أصدقائك، و هم ليسوا قليلين، هؤلاء الأصدقاء الذين أعرف أنه كان لك مع بعضهم علاقات غير طاهرة"²، لذلك فهو يرفض بكل بساطة الاعتراف بأبوته لهذا الجنين الذي تحمله جانين في أحشائها لأنها لم تكن عذراء يوم عرفها، و هذا أمر لا يرضى به الرجل الشرقي³.

فالمراة الغربية تسقط " أمام أسطورة الشرف الجنسي و هالة غشاء البكارة و بصورة أدق تسقط أمام عقلية تكونت بصورة شبه نهائية في مجتمع شرقي أبوي، يضع الشرف الجنسي في رأس قيمه، و يربط هذا الشرف، رباط لا فكاك له بغشاء البكارة لدى المرأة"⁴، كما أن ظروفها الصعبة اضطرتها للعمل في مخزن، و هذا أمر مرفوض في المجتمع الشرقي، بالإضافة إلى أنها مسيحية و هذا لا يوافق دينه⁵، كما أنها أجنبية و ليس هذا فحسب بل فرنسية أيضا، و الفرنسيات وضيعات العالم⁶.

¹ - ينظر مصطفى فاسي، المرجع السابق، ص 153-154.

² - سهيل إدريس، المصدر السابق، ص 216-217.

³ - ينظر جورج أزوط، المرجع السابق، ص 110.

⁴ - المرجع نفسه، ص 109.

⁵ - ينظر جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 98.

⁶ - ينظر المرجع نفسه، ص 99.

إن كل هذه التساؤلات التي راودت البطل بخصوص "جانين" توحى و تدل على أن نية البطل و هدفه منذ البداية ليس الزواج من فتاة أجنبية، فأخر همه هو ذلك، فالفتاة الأجنبية عنده هي مجرد جسد وجد للمتعة و إرواء الظمأ و إذا ما إرتوى منها يتركها و يمضي في طريقه لأنها مجرد نزوة عابرة، أما الزواج فهو مشروع يستحق التفكير و التأمل فيه مليا، و المرأة الغربية لا ترقى إلى مستوى الزواج (فالزواج شرف) لذلك نجد الرجل الشرقي في الأخير يقف طائعا لتقاليد¹، و كدليل آخر كذلك حول رأي الرجل الشرقي في الزواج من امرأة غربية، رأي فؤاد صديق البطل عندما سئل عن إمكانية زواجه من فرنسواز فرد قائلا: "فكرت طويلا و لكنني إنتهيت إلى إلغاء هذه الفكرة، إننا مدعوون في المستقبل يا عزيزي إلى مواجهة كثير من قضايا القومية التي لا تعني أحدا سوانا، و أنا لا أعتقد أن زوجة أجنبية تستطيع أن تعين زوجها في معاناة مثل هذه القضايا، إنني أريد أن تكون زوجتي رفيقة حياتي فقط و لئن أنا تزوجت يوما، فلن أتزوج إلا فتاة عربية...."².

جانين موننترو فهمت رد البطل و تقبلته و واجهته بكل شجاعة "شكرا سأواجه مصيري بشجاعة- جانين"³ ، فهي لم تطلب منه غير الحب و " مستعدة لأن تقدم على جميع التضحيات ، و تواجه جميع المخاطر و لكنها كانت تنتظر منه الإشارة

¹ - ينظر جمعة طيبي، صورة المرأة الغربية في الرواية الجزائرية، المرجع السابق، ص 47.

² - سهيل إدريس، المصدر السابق، ص 145.

³ - المصدر نفسه، ص 223.

فحسب¹، لذلك قررت في النهاية الإجهاض و شق طريقها وحدها لتستقر في الأخير في أحد كهوف "سان جرمان" بعدما أصبحت فتاة رصيف، و ظلت متشبثة بموقفها هذا حتى عندما أفاق ضمير البطل و أراد أن يصحح و يكفر عن خطئه، و طلب منها الزواج، رفضت ذلك و تركته قائلة له في رسالة: "لا، لن أذهب معك، إن بوسعي الآن أن أتمثل نفسي إذا رافقتك.... سأعيق طموحك، سأكون أنا في السفح، و تكون أنت في القمة، فإمض قدما يا حبيبي، و لا تلتفت إلى ما وراءك، أما أنا فسأستمد دائما من حبي لك...."².

فهي على الرغم من المعاملة القاسية التي عاملها بها، إلا أنها ظلت وفية لحبه و صادقة بعواطفها معه و مخلصه له، و هذا دليل على حسن نيتها و نزاهتها و كرامتها. إن الحالة المزرية التي آلت إليها "جانين موننترو" في النهاية دليل على نجاح مشروع الإنتقام الذي يسعى إليه البطل، و هذا النجاح لا يمثله وحده كبطل في الرواية فقط، بل هو رمز لنجاح الشرق الذي يستيقظ، و أضحت جانين موننترو رمزا للغرب الذي يأفل³، فكأن البطل هنا رد الاعتبار لذاته و شرقه من خلال إستهلاك فتاة أوروبا الشقراء التي إختارها عمدا لتصوير طبيعة اللقاء بين الحضارتين الشرقية و الغربية، و الصراع الناشب بينهما ، فهو على الرغم من أنه قصد باريس التحرر من قيود تقاليد

¹ - المصدر نفسه، ص 221.

² - المصدر نفسه، ص 262.

³ - ينظر جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 109.

شرقه، لكنه في النهاية يقف أمام هذه التقاليد التي تمنع زواجه من "جانين موننترو" لأنها ليست شريفة و جديرة بالزواج به أمام مجتمعه الشرقي المحافظ¹.

لا يختلف الطيب صالح عن سهيل إدريس في طريقة الإنتقام بالحب أو (الجنس)، لكن الطيب صالح أو البطل الشرقي "مصطفى سعيد" كان أشد قسوة من سهيل إدريس، فمصطفى سعيد أراد أن يكون أسدا شرسا لحظة وصوله الى الغرب، فهمه الوحيد هو الهجوم على الغرب و الإنتقام منه شر إنتقام ، لأنه ضاق ذرعا من سيطرة الإنجليز و تجبره ، ففي اليوم الذي ولد فيه "مصطفى س" بدأت القوات الإنجليزية بقيادة ككتشنر غزوها للسودان² ، فإنقلبت الأوضاع رأسا على عقب ، و صار الكل يرضخ لسيطرة و رحمة اللورد ككتشنر: "حين جيء لككتشنر بمحمود ود أحمد و هو يرسف في الأغلال بعد أن هزمه في موقعه أبترا ، قال له: لماذا جئت بلدي تخرب و تنهب؟ الدخيل الأجنبي هو الذي قال ذلك لمالك الأرض، و صاحب الأرض طأطأ رأسه و لم يقل شيئا"³ ، و من هنا بالذات أقسم مصطفى سعيد على الإنتقام " إلى أن يرث المستضعفون الأرض و تسرح الجيوش ، و يرعى الحمل آمنا بجوار الذئب ،

¹ - ينظر د. إبراهيم السعافين، تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام 1870، 1967م، دار المناهل، بيروت، ط 2، 1987م، ص 446.

² - ينظر جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 144.

³ - الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، المصدر السابق، ص 100.

و يلعب الصبي كرة الماء مع التمساح في النهر إلى أن يأتي زمان السعادة و الحب هذا، سأظل أنا أعبر عن نفسي بهذه الطريقة الملتوية"¹.

لقد كان سلاح " مصطفى س " في البداية هو العلم لأنه أدرك "أن الخلاص من الإستعمار لا يكون بتمثل الحضارة التي منحت الرجل الأبيض تفوقه"²، فقد كان في قمة الذكاء و الدهاء، و ذكاؤه هذا هو الذي أوصله إلى القاهرة الواحة الثانية بعد السودان، ليواصل تعليمه الثانوي، و فيها إلتقى بأول امرأة أجنبية و هي "مسيز روبنسون"³.

و من القاهرة إلى المحطة الثالثة و الأخيرة لندن، و هنا سيبدأ بتنفيذ مشروعه الإنتقامي فيهتف بقوة، "إنني جئتكم غازيا، في نسائكم"⁴، مستعملا في ذلك سلاحين، السلاح الأول فحولته "الجنس"، فهو يرى أن الجنس هو " رمز للذكورة و القوة في الشرق"⁵، و ما عليه إلا أن يوظف هذه القوة الآن في تصفية حسابه مع الغرب عن طريق الجنس، أو عن طريق فتاته الإنجليزية التي تتحول هي و جسدها إلى فريسة⁶، تتمنى الخلاص و النفاذ من بين يدي الغازي المنتقم ، و هاهو يقول: " أنا الراكب الحقيقي و أنا كنت المركوب : أي أنني مستعمر لكم على طريقتي التي هي جنسية

¹ - المصدر نفسه، ص 60.

² - جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 149.

³ - ينظر جورج طرابيشي، المرجع نفسه، ص 150.

⁴ - المرجع نفسه، ص 153.

⁵ - حفناوي رشيد بعلي، الطيب صالح و الإبداع الكتابي، دار اليازوري، عمان، ط 1، 2015م، ص 62.

⁶ - ينظر المرجع نفسه، ص 61.

مثلما أنتم مستعمرون لي على طريقتم التي هي سياسية"¹، فهمه الوحيد هو إدخال المرأة إلى فراشه و غرس وتده، فهذا هو قمة الإنتصار عنده "كلما تسلق جبلا غرس في قمته وتده و ركز رايته"².

إعتقد "مصطفى س" إذن أن المرأة الغربية هي وسيلته في الإنتقام و النيل من الغرب، لذلك حضر صنارته الفتاكة لصيد الفتاة الشقراء و القضاء عليها، فتحول فراشه الى ساحة معركة عنيفة و هو ما يطلق عليها إسم "الحرب الحضارية" بين الشرق الذي يمثل الرجولة، و الغرب الذي يمثل الأنوثة المجروحة، أي " تحول فعل الحب إلى فعل إنتقام، و بدلا من أن يكون الليبيدو طاقة للحب كما عند فرويد، أو طاقة للحياة كما عند يونغ، تكشف عن أنه طاقة للكره و الموت و التدمير: فهو مبعوث تاناتوس (Thanatos)* و ليس رسول إيروس (EROS)*³.

لم يكن " مصطفى سعيد" فائق الذكاء في دراسته فقط، بل كان ذكيا في طريقة تعامله مع النساء، فسلحه الثاني في الإنتقام هو "توظيف سحر الشرق" كطعم لصيد نساء لندن، "فقد إقتنع مصطفى بأن سحر الشرق هو الذي أغوى المستعمر باغتصابه،

¹ - المرجع نفسه، ص 104-105.

² -جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 154.

*-تاناتوس: في الأساطير اليونانية هو إبن إلهة الليل نيكس، كان عبارة عن إله يمثل بروح لها أجنحة يجسد الموت.

*-إيروس: في الميثولوجيا اليونانية هو إله الحب و الرغبة و الجنس و عند أفلاطون هو قوة عظمى تحرك النفس إلى الخير.

³ -نجيب بوطالب، صورة الآخر العربي ناظرا و منظورا إليه، مركز دراسة الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2008م، ص 799.

فوظف هذا السلاح "سحر الشرق" ليعوي به النساء الأوروبيات"¹، لذلك أقام غرفة شرقية في لندن أنثها و بناها من: "الصندل و الند، و ريش النعام و تماثيل العاج.... و الرسوم لغابات النخيل على شطآن النيل.... و شمس تغرب على جبال البحر الأحمر، و قوافل الجمال.... على كثبان الرمال.... و فتيات عاريات...."²، ثم يتحول هو بعد ذلك الى أمير شرقي يرتدي عباءة و عقالا، فخور بذكورته³، و بغرفته الشرقية المزيفة التي هي وكر لأكاذيبه، و مصيدة لأعدائه، كما أنها حلبة للصراع بين الشرق (الغازي المنتقم)، و الغرب (الضحية الضعيفة)، و تأنيثها تأنيثا شرقيا كان عمدا، حتى يحس " مصطفى سعيد" بسيطرة الشرق على الغرب في هذه الغرفة.

لقد كانت الغرفة الشرقية سجنا للغربيات اللواتي سقطن ضحية على أيدي الجلاذ الشرقي، يقول "مصطفى س" عن هذه الغرفة: "كانت مقبرة تطل على حديقة، ستائرهما وردية، منتقاة بعناية، بها سجاد سندسي دافئ و السرير رحب، مخداته من ريش النعام و أضواء كهربائية صغيرة حمراء، زرقاء، بنفسجية، موضوعة في زاوية معينة، و على الجدران مرايا كثيرة،.... و عقاقير كيميائية و دهون ... و حبوب ، غرفة نومي تمثل غرفة العمليات في مستشفى"⁴، فكل هذا الديكور الشرقي المزيف ما هو إلا خدعة لجلب الفتاة الشقراء إليه، ثم قهرها و الأخذ بالثأر منها ، يقول " مصطفى س:" و في

¹ - مديحة عتيق، فصول في الأدب المقارن، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2011م، ص129.

² - الطيب صالح، المصدر السابق، ص 137.

³ - ينظر حفناوي رشيد بعلي، المرجع السابق، ص 79.

⁴ - الطيب صالح، المصدر السابق، ص 52 - 53 .

لندن أدخلتها بيتي، وكر الأكاذيب الفادحة، التي بنيتها عن عمد أكذوبة أكذوبة"¹، و بهذا الكلام يقدم لنا "مصطفى س" إعترافا صريحا بأن هذه الغرفة هي مصيدة للفتيات الغربيات، وفيها سقطت "شילהا غرينود"، "آن همند"، و "إزابيلا سيمور"، لأن أحشائهن تسممت بحقه الدفين للغرب، فلم يحتملن هذا العنف فقررن الإنتحار، إلا المرأة الأخيرة فكانت القوية بينهن و عرفت كيف تواجهه.

لم تكن "جين مورس" ضحية مثل الضحايا السابقات، فقد إنعكست و إنقلبت الأدوار معها، فبعدما كان مصطفى صيادا ماهرا لا تستعصي عليه أي فريسة، إنقلب إلى فريسة سهلة راضخة لأوامر " جين مورس" التي أوقعته في شباكها²، فجين مورس "إمرأة من معدن آخر جريئة وقحة تمرست بالواقع الأوروبي حتى تشربت بضراوته، فهي روحه العنيفة الشاردة التي لا تعرف رومانسية في العواطف و لا الخيالات"³، فهم لم يستطع أن يغريها و يدوخها برائحة الصندل، و يخدرها بسحر الشرق، بل هي التي دوخته و ألهمته بمقاومتها له، و إمتناعها عنه، لذلك ظل يطاردها ثلاثة أعوام "لبنث أطاردها ثلاثة اعوام، قوافلي ظمأى و ذات يوم قالت لي: أنت

¹ - المصدر نفسه، ص 137 .

² - ينظر جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 162.

³ - الطيب صالح، المصدر السابق، ص19.

ثور متوحش لا يفتر من الطراد....تزوجني"¹، تزوجها و كان أول رجل عربي يتزوج من انجليزية²، بعدما جرعته من مهاناتها القاسية.

لم تتغير معاملتها المهينة له بعد الزواج، فقد كانت تمتنع عنه أيضا، و عندما أرادت أن تسلم نفسها له كان لها مقابل و ثمن يقول: ظلت واقفة أمامي كشیطان رجم خلعت ثيابها و وقفت أمامي عارية، نيران الجحيم كلها تأججت في صدري، كان لابد من إطفاء النار تقدمت إليها مرتعش الأوصال، فأشارت إلى زهرية ثمينة قالت: تعطيني هذه و تأخذني أخذت الزهرية و أخذت تدوس الشظايا.... أشارت إلى مخطوط عربي نادر قالت تعطيني هذا أخذت المخطوط و مزقته، مشيت إليها و وضعت ذراعي حول خصرها.... فجأة أحسست بركلة عنيفة بركبتها بين فخذي...."³.

إن الثمن الذي تريده "جين مورس" مقابلا لها هو ثمن القيم الحضارية الشرقية " الزهرية الثمينة، المخطوط العربي النادر..." التي داست و أرادت أن تحطمها، فجين مورس هي رمز لأروبا الطاغية التي تأخذ كل شيء و لا تعطي أي شيء إلا "الركلة بالقدم"، فالحضارة الغربية "لا تسلم نفسها لطالبها الآتي من الشرق إلا إذا خلعته من تاريخه و قطعته عن ماضيه، و جردته من تراثه"⁴، و هذا ما لاحظناه مع مصطفى

¹ - المصدر نفسه، ص 146.

² - ينظر المصدر نفسه، ص 70.

³ - المصدر نفسه، ص 145.

⁴ - جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 164.

سعيد الذي مثل الشرقي المتخلي عن قيمه مقابل الحصول على اللذة و الشهوة، و كانت نتيجة هذا التنازل هو ضياع التراث و القيم و الفوز بالركلة فقط¹، و لعل هذا ما دفع بمصطفى سعيد في الأخير إلى قتلها، خاصة أنها كانت مجرد مومس خائنة "وضعت الخنجر بين نهديه و ضغطت الخنجر بصدري حتى غاب كله في صدرها..."².

إن المتتبع لأحداث هذه الرواية " موسم الهجرة إلى الشمال" يقف بالضبط عند هذه الفقرة التي توحى بأن مصطفى سعيد و جين مورس سيد خلان في علاقة حميمية جنسية. و أن الصراع بينهما سينتهي، يقول: "..... وجدتها مستلقية على السرير،... إبتسامتها مفعمة و على وجهها شيء مثل الحزن، في حالة تأهب عظيم للأخذ و العطاء، حن قلبي إليها أول ما رأيته، و أحسست بالدفء الشيطاني..."³، لكن سرعان ما يتفاجأ القارئ بالنهاية المأساوية (القتل) التي تدل على أن كلا منهما يعاني من أزمة و عقد نفسية: "فهو مصاب "بالسادية" يعذبها و يستلذ عذابها، في حين أن جين مورس هي الأخرى مصابة " بالمازوشية " تستلذ بتعذيب نفسها، تحبه في أعماقها و تمتنع أن تستسلم له . وعيها يدفعها إلى الإقبال عليه وتتجاوب معه و لا وعيها يذكرها بأنه إفريقي أسود لا يمكن أن يرضي غرورها فتشعر نحوه بالإحتقار و تتحداه فتفرض

¹ - ينظر حفناوي رشيد بعلي، المرجع السابق، ص 358.

² - الطيب صالح، المصدر السابق، ص 150، 152.

³ - المصدر نفسه، ص 149.

الدخول معه في علاقة جنسية إنسانية"¹، فمصطفى يريد أن يضرب عصفورين بحجر واحد، الأول هو أنه يريد مضاجعة جين مورس، و الثاني هو أنه يريد قتلها، فهو في صراع مع نفسه بين إرتكابه الجريمة (القتل) أو إمتلاك جين مورس².

يحلل "يوسف اليوسف" هذه الثنائية (القتل و الإمتلاك) فيقول: "إن ثنائية الميول بادية للعيان في برهة القتال، فهو يريد أن يقتلها و يضاجعها في آن معا- بل هو يدعم القتل بالجماع لأنه لا يستطيع في الحقيقة أن يتصرف تجاهها إلا تصرفا جنسيا - و حتى القتل نفسه يغدو عملية جنسية من حيث كونه يروي سادية - و لقد أفلح الكاتب حين عمد إلى الخنجر كوسيلة للقتل و لم يعتمد إلى المسدس... أهذا إقتراف جريمة أم إقتراف عشق؟ إن الخنجر لا يخدم وظيفة أداة الإجرام فحسب بل وظيفة إطفاء الغلظة أيضا - إنه خنجر و عضو ذكورة في آن معا"³.

و بقتلها تخلص مصطفى سعيد من داء العنف لأنه أخذ بثأره القديم في عقر دار المستعمر⁴، و يقول في ذلك "شيرلي ماكاروم shirlyMaakaroum" عن مصطفى سعيد: "كان يعتبر سيطرته على النساء بمثابة نوع من السيطرة على أوروبا نفسها، و ما

¹- فوزية الصفار، أزمة الأجيال العربية، دراسة في موسم الهجرة إلى الشمال، المرجع السابق، ص 128.

²- ينظر المرجع نفسه، ص 128.

³- يوسف اليوسف، مجلة المعرفة، مجلة ثقافية شهرية سورية، العدد 150، نقلا عن فوزية الصفار، المرجع نفسه، ص 128.

⁴- ينظر حفاوي رشيد بعلي، المرجع السابق، ص 75.

يعبر عن جانبه المظلم هو عدم إحساسه بالندم تجاه إنتحارهن....¹، فالمهم عند مصطفى سعيد هو الثأر و الإنتقام من الحضارة الغربية، و ما جين مورس و صديقاتها إلا وجه لأروبا الطاغية البشعة التي لا تكن إلا الكراهية للشرق العربي، و لا تنوي له إلا الدمار و الهلاك، فمصطفى مازال يتألم من جرح الماضي لوحده، و لم يتقاسمه معه أحد، لذلك فهو لن يكثرث و لن يتألم لألم هذه الفتاة الشقراء².

لقد تهيأ "مصطفى س" أنه أمسك بزمام الأمور عندما "حول العلاقات التاريخية من علاقات سياسية ظاهرة إلى علاقات فحولة قاهرة و أنوثة مقهورة"³، ليكتشف في النهاية أنه مثل دور الممتلك، لكنه لم يمتلك أي امرأة غربية، فايزابيلا سيمور التي ظن أنه إمتلكها و كان سببا في إنتحارها يبرئه زوجها في المحكمة، لأن سبب إنتحارها هو إكتئابها من مرض السرطان، أما والد "آن همند" فيخبرهم أن إبنته تعاني من مشاكل نفسية و هوسها هو الذي أدى بها إلى الإنتحار⁴، و ليس " مصطفى سعيد" الذي ظن أنه كان سببا في هلاكهن، فهو لم يكن غازيا بل مثل الدور فقط، و لم يكن حقيقة بل مجرد أكذوبة و وهم⁵، كان مآلها السجن لمدة سبع سنوات.

¹ - شيرلي ماكاروم journey of lights and darkness نقلا عن مديحة عتيق، فصول في الأدب المقارن، المرجع السابق، ص 133.

² - ينظر حسن عليان، العرب و الغرب في الرواية العربية، المرجع السابق، ص 240.

³ - مديحة عتيق، المرجع السابق، ص 135.

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص 130.

⁵ - ينظر جورج طرابيشي، شرق و غرب رجولة و أنوثة، المرجع السابق، ص 170.

إذن كل ما خطط له "مصطفى س" و هدف إلى تحقيقه باء بالفشل، فهو لم ينل في الأخير إلا السجن، مستسلما و راضيا بعقوبة و حكم الغرب له، أي أنه وقع أسيرا في يد الغرب مرة ثانية، فهو لم يتحرر من قيود الإستعمار، بل ذهب إليهم هذه المرة برجليه ليسجن و يقهر مرة ثانية و هو منهار مهزوم من طرف الرجل الأبيض الذي جرعه الذل و الهوان في بلده السودان، و تجرع منه مرة أخرى في لندن، لأن قوته و سلاحه غير كافيان لمواجهة الغرب الجائر، و مع العلم أن حياته كانت ممثلة بالنساء الغربيات إلا أنها بلا طعم، فهي مجرد روتين وهمي ممل ظن صاحبنا الشرقي "مصطفى سعيد" أنه يحقق من خلالها مشروعه في الإنتقام لكنه أخطأ، ليعود في النهاية إلى بلده السودان مهزوما، حاملا حزنه و قهره معه في قلبه¹.

و يبدأ حياته في السودان من الصفر لأنه كان مجرد أكذوبة و وهم، و يبقى مجرد وهم ضائع، يبحث عن ذاته و يظهر ذلك من خلال الغرفة الإنجليزية التي أعدها في السودان و التي كانت مخالفة و مغايرة للغرف الأخرى و لعلها "العلامة الفارقة الأولى و الوحيدة التي يلاحظها الراوي في محاولته معرفة حقيقة أمر مصطفى سعيد"² ، و حتى أثارها كان مختلفا " تصوروا ، مدفأة إنجليزية بكامل هيئتها و عدتها ، فوقها مظلة من النحاس و أمامها مربع مبلط بالرخام الأخضر و رف المدفأة من رخام أزرق ، و على جانبي المدفأة كرسيان فكتوريان مكسوان بقماش من الحرير

¹ - ينظر السعيد الورقي، إتجاهات الرواية العربية المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، الأزارطية، د.ط، 1998م، ص 293.

² - سامي سويدان، أبحاث في النص الروائي العربي، دار الآداب، بيروت، ط1، 2000م، ص 153.

المشجر...¹، فهو أثاث لندني و ربما أعدها مصطفى هكذا على الطريقة الإنجليزية ليتذكر لندن.

لقد أصبح مصطفى مسلوب الذات، و خير دليل على هذا " هو إنهزام الغرفة الشرقية في مقابل إنتصار الغرفة الإنجليزية أو الغربية، ففي الوقت الذي كان فيه مصطفى سعيد يسعى لغزو لندن عن طريق نقل الحضارة الشرقية من خلال هذه الغرفة إلى قلب لندن، إذا به يفعل العكس فيغزو هذه القرية السودانية النائبة، بإنشاء غرفة إنجليزية في قلبها"²، و لعل هذا التصرف يوحي بأن مصطفى س مهووس بحب لندن، و هو لم يدرك ذلك إلا عندما غادرها، فعقله و قلبه مازالا متعلقان بها، لذلك أنشأ هذه الغرفة الإنجليزية حتى لا يشعر بأنه إبتعد عن لندن و فارقها.

¹ - الطيب صالح، المصدر السابق، ص 130.

² - مصطفى فاسي، البطل المغترب في الرواية العربية المرجع السابق، ص 96.

المطلب الثاني: بين عطيل و مصطفى سعيد

لقد أعجب أدباؤنا العرب كثيرا بمسرحية شكسبير (عطيل) و تأثروا بها تأثرا كبيرا، و قد إتضح هذا التأثير من خلال نسجهم لروايات على منوال مسرحية عطيل، و من بين هذه الروايات التي إستحضرت هذه المسرحية رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للكاتب السوداني الطيب صالح و الذي رمى من خلالها إلى تصوير الصراع العنيف بين الحضارتين الشرقية و الغربية من خلال البطل الإفريقي الذي سعى جاهدا لإثبات ذاته المهمة التي داست عليها الحضارة الأوروبية، و قد إعترف و صرح الطيب صالح بذلك قائلا: « أنا لا أزعم أنني كتبت الرواية فقط لهذا الغرض، و لكن من ناحية الشكل كانت مثل أن يعارض شوقي ابن زيدون أو يعارض البوصيري أو البحتري، فأنا قلت: أكتب على نسق "عطيل" و عطيل مسرحية طبعا لشكسبير، و لكن أعطي بطل الرواية أساس أكثر حقيقة (أي إقناعا) من الأسباب التي ذكرها شكسبير في مسرحيته العظيمة "عطيل" »¹.

و لعل الدلائل في الرواية كثيرة على ذلك، من بينها تصريح مصطفى سعيد في المحكمة البريطانية قائلا: " أنا لست عطيلًا، أنا أكتبه"²، و هذا دليل آخر على أن الطيب صالح قد إطلع على المسرحية.

¹ - الطيب صالح، الحياة الثقافية، مجلة ثقافية تصدر عن وزارة الثقافة التونسية، عدد 1، جانفي 1979م، (لقاء مع الطيب صالح) نقلا عن بوجمعة الوالي، المؤثرات العربية و الأجنبية في رواية موسم الهجرة إلى الشمال، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 2002/2001م، ص 112.

² - الطيب صالح، المصدر السابق، ص 54 .

لقد جمعت "ديدمونة" (فتاة البندقية) و عطيل (الرجل المغربي) علاقة حب كبيرة صدمت الجميع، و تحدث ديدمونة بحبها عوائق مجتمعها و أهلها الذين حاولوا منع زواجهما، فقد سلمته نفسها بكل رضى و ثقة و طمأنينة لأنها لم تشك إطلاقا في إخلاصه لها¹، على عكس العلاقة التي جمعت بين مصطفى سعيد وجين مورس، فكلها توتر و حقد و إستغلال فلم ينسجما إطلاقا و أبدا²، لأن الحضارة الأوروبية حضارة شرسة لا تحمل في قلبها و لا ذرة حب و عطف للشرق، و جين مورس هي ابنة لهذه الحضارة العنيفة، لذلك صدت و واجهت مصطفى سعيد بكل قوة و حقد في كل لقاء لهما، يقول " مصطفى سعيد": «كنت أجدّها في كل حفل أذهب إليه، كأنها تتعمد أن تكون حيث اكون لتهينني، أردت أن أراقصها فقالت لي، لا أرقص معك و لو كنت الوحيد في العالم، صفعتها على خدها فركلنتي بساقها و عضتني بأسنان كأسنان لبؤة»³ .

إن هذا التصرف خير دليل على رفض الحضارة الغربية لهذا الدخيل الشرقي⁴، الذي إتخذ من الكذب وسيلة لإمتلاك المرأة الغربية و طعن الرجل الأبيض، لكنه ينصدم عندما يرى أن خصمه (جين مورس) ليست خصما سهلا ، فقد ذاق المر على

¹ - ينظر بوجمعة الوالي، المؤثرات العربية و الأجنبية في رواية موسم الهجرة إلى الشمال، المرجع السابق، ص 146.

² - ينظر مصطفى فاسي، المرجع السابق، ص 93.

³ - الطيب صالح، المصدر السابق، ص 144 .

⁴ - ينظر بوجمعة الوالي، المؤثرات العربية و الأجنبية في رواية موسم الهجرة إلى الشمال، المرجع السابق، ص 147.

يديها لتمنعها عنه، فهي "العنقاء التي إفتست الغول"¹، و أهانت رجولته و كبريائه لذلك لم يجد حلا إلا أن يتخلص منها و يقتلها، خاصة أن سبب مجيئة للغرب هو الإنتقام و الثأر، يوضح الكاتب أسباب الجريمة قائلا: "...مصطفى سعيد قتل لأسباب واضحة منذ البداية لأنه يحس بغربة في هذا المجتمع، و هو رافض لهذا المجتمع رغم أنه أحرز فيه قدرا كبيرا من النجاح، و كانت الغيرة هنا لأسباب إجتماعية قومية و ليست مجرد إحساس زوج بالشك تجاه زوجته"².

إذا كان مصطفى سعيد قد قتل "جين مورس" بسبب غيخته على المجتمع السوداني، فإن عطيل قد قتل ديدمونة زوجته الطاهرة المخلصة بسبب غيرة الزوج على الزوجة و شكه في إخلاصها، فهو لم يتحمل رؤيتها مع رجل آخر و هذا لحبه الشديد لها، على عكس الطيب صالح الذي جاء إلى الغرب في مهمة رسمية (الإنتقام)، لذلك كانت علاقته بحين مورس اللبؤة الشرسة علاقة مبنية على الكره و الدمار، و يظهر ذلك من خلال قوله: "و صرخت فيها: أنا أكرهك، أقسم أنني سأقتلك يوما ما....تألفت عيناها و نظرت إلي نظرة غريبةثم قالت بصوت فيه مناغة مصطنعة: أنا أيضا أكرهك حتى الموت"³.

¹ - الطيب صالح، المصدر السابق، ص144 .

² - الطيب صالح نقلا عن بوجمعة الوالي، المؤثرات الغربية و الأجنبية في رواية موسم الهجرة، المرجع السابق، ص 117.

³ - الطيب صالح، المصدر السابق، ص147 .

و بهذا القول يكون مصطفى سعيد قد صرح لجين مورس عن نيته و هدفه في القتل، ف كلا البطلان قتلا زوجتيهما لكن دافع القتل إختلف "فمصطفى سعيد "قتل بدافع الحقد و الكراهية و الرغبة في الإنتقام، لكن عطيل، كان قتله لـ "ديد مونة" بدافع الحب و بغرض تكريمه و تطهيره"¹.

إذا إختلف هدف و دافع القتل عند عطيل و مصطفى سعيد فإن طريقة القتل عندهما متشابهة، فكلاهما وظف وسيلة واحدة في قتل زوجتهما، فصورة جين مورس و هي على سرير النوم تنتظر الجراد القادم لقتلها، هي "صورة مكررة لـ ديدمونة قبيل قرار تنفيذ "عطيل" حكمه بقتلها، قبلها و هي نائمة- و غمر وجهها بالقبل، قبل الوداع، كان يرغب في أن تكون تلك القبل على جسد ينبض بالحياة"²، فمصطفى سعيد أعاد هذا المشهد بحذافره و قبل زوجته العدو قبل قتلها يقول: "لبثت تنتظر إلى حد الخنجر بخليط من الدهشة و الخوف و الشبق ثم أمسكت الخنجر و قبلته بلهفة. و فجأة أغضت عينيها و تمطت في السرير وضعت ملت عليها و قبلتها، وضعت حد الخنجر بين نهديها...."³، و ينبغي أن نشير هنا إلى أن جين مورس اللعوب كانت تعلم بأنها ستقتل و أن مآلها هو الموت لهذا تهيأت لذلك و إنتظرت مصطفى سعيد، أما "ديدمونة" الطاهرة الصادقة فلا تدري ما هي خطة و نوايا "عطيل"

¹ - بوجمعة الوالي، المؤثرات الغربية و الأجنبية في رواية موسم الهجرة، المرجع السابق، ص 122.

² - المرجع نفسه، ص 152.

³ - الطيب صالح، المصدر السابق، ص 150 .

إتجاهها، و ما هو مصيرها معه لأنها تعلم أنها لم تذنّب، لذلك فهي لا تستحق هذه
النهاية المأساوية.

و بعدما إكتشف "عطيل" حقيقة زوجته "ديد مونة" أنها بريئة من التهم و
الإشاعات التي نسبوها إليها، فضل الإنتحار ليظهر ذنبه و ليثبت لحبيبته ديدمونة
المغدور بها أنه لا يقل عنها وفاء و إخلاصاً¹، فقلبه و ضميره لا يسمحان له بالعيش
من بعدها ، لأنه لم ير منها إلا كل خير من صفاء القلب و طبيئته.

¹ - ينظر مصطفى فاسي، البطل المغترب في الرواية العربية، المرجع السابق، ص 93.

المطلب الثالث: الحب الخيالي و الإنتقام عند توفيق الحكيم

لم تكن المرأة التي إختارها "محسن" امرأة عادية، بل كانت امرأة خاصة لأن محسن كان رجلا خاصا، فمفهوم الرجولة عند محسن له معنى سام، فهو من أولئك الرجال "الذين لا تطيب لهم السكنى إلا داخل أنفسهم"¹، و حتى يصل إلى قمة الرجولة لابد له من "أن يحيا دائما وحده في الحياة"²، و هذا تمثلا بمقولة إبسن " أن الرجل القوي هو الرجل الوحيد"³، فقد إعتد الحكيم على هذه المقولة، فكانت منطلقه في الحياة، يقول عنها: " كان إيماني شديدا بهذه الكلمة و ما برحت أرى فيها دستوري الذي لا ينبغي أن أحيد عنه، فأنا كلما إنطويت على نفسي و إعتصمت ببرجها، أعطتني كل ما أريد من قوة و منعة"⁴، لذلك فحبيبته امرأة عليا مثله هو، لا وجود لها إلا في خياله الذي توجهها ملكة و أسكنها قصرا من قصوره الراقية " فإذا بها أكثر من امرأة، بل قل ملكة، و بالفعل إنها لملكة، و ملكة من عوالم ألف ليلة و ليلة"⁵.

إن الذي يسمعه يتحدث عنها قائلا: " أراها في شباكها تشرف على الناس بعينين من فيروز، و هم يمرون أمامها الواحد تلو الآخر، من كل جنس و من كل طبقة..."⁶ يتخيل أنها ملكة أو أميرة تطل من الشباك، لكن سيندهش بعد ذلك عندما يعلم أن

¹ - توفيق الحكيم، البرج العاجي، المجلد الاول، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1994 م، ص 799 .

² - المرجع نفسه، ص 799 .

³ - المرجع نفسه، ص 799 .

⁴ - المرجع نفسه، ص 799 .

⁵ - جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 22 .

⁶ - توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، المصدر السابق، ص 42.

الشباك الذي يتحدث هو شباك قطع التذاكر في مسرح باريس، و أن هذه الملكة ليست إلا بائعة تذاكر.

يتضح لنا إذن أن "محسن" يتعامل مع حلم سوزي ديبون، هذا الحلم الذي نسجه له خياله الواسع، فهو لا يعرف لا اسمها و لا أي شيء عنها¹، يقول: "كان ينفق أيامه في قهوة يحلم، و حبيبته على بعد خطوتين"²، ينتظر دخولها أو خروجها من باب الفردوس، و لعل هذا التعامل الخاص له تفسير واحد هو أن محسن يريد أن يميز حبيبته عن كل النساء، حتى عندما قرر التعامل معها على حقيقتها في الواقع و قدم لها هدية، كانت الهدية غريبة و مختلفة، لأنه شخص مختلف و هذا ما إعترف به محسن في رسالته لأندريه، يقول محسن: "ثم هناك شيء آخر أخالك لم تلتفت إليه، و هو طبيعتي التي تميل إلى عدم الأخذ بما يأخذ به الناس جميعا من أوضاع هربا من الوقوع في الإبتذال، و شغفا جنونيا بالتميز و الإغراب، ففي لبسي لا أرتدي كما يرتدي الآخرون و لا أدخن لأن التدخين عادة عامة لا أهدي إلى حبيبتي الأزهار الجميلة، و العطور اللطيفة، بل أهدي إليها ببغاء في قفص"³، لكن سرعان ما تنكسر الصورة التي رسمها محسن لفاتنته، و يصطدم بحقيقتها و شخصيتها المزيفة الكاذبة، فتبدأ الشتائم و يظهر محسن عدائته المألوفة لها و لكل النساء معها.

¹ - ينظر جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 22.

² - توفيق الحكيم، المصدر السابق، ص 51.

³ - توفيق الحكيم، زهرة العمر، دار الشروق، مصر، ط2، 2008م، ص 29.

إن سبب رفع "محسن" لسوزي إلى مستوى الملكة من غير أن يعرف عنها شيئاً ثم النزول بها إلى الأرض عندما يكشف حقيقتها بأنها مخادعة و خائنة يرجع إلى فكرة "الإنقام من المرأة التي يعاديهما توفيق الحكيم"¹، فقد رفعها "إلى العلو الشاهق ليأتي سقوطها أعظم دويًا و الهزيمة أشد إنكاراً"²، و يمكن أن نقول إن الحكيم أو محسن يعشق المرأة الصنمية التمثالية الموجودة في عالم الخيال فقط، لكنها عندما تتحول إلى مخلوق من لحم و دم يكرهها و يصبح عدواً لها، و هذا يعني أن هناك صورتين متناقضتين للمرأة في أدب الحكيم³.

كل شيء له وقت، و وقت الملكة سوزي إنتهى، لأن محسن أراد لهذا الحلم و هذا الخيال أن ينتهيا و يواجه الواقع المؤلم أحياناً، فقد مل من التحليق في السماء، فإنقلب فجأة إلى إنسان واقعي يعالج مشاكل الأرض⁴، يقول محسن: "إن سر تعاستنا هو أننا نعيش في هذه الحجرات المغلقة....إننا نجهل الواقع و طرائقه المباشرة.... لا شيء يكتسب بالخيال في هذه الحياة؟..."⁵، فالخيال هو وسيلة لجأ إليها محسن للإنقام و السخرية من المرأة الغربية لأنها عدوته اللدود.

¹ - مصطفى فاسي، المرجع السابق، ص 205.

² - جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 23.

³ - ينظر مصطفى فاسي، المرجع السابق، ص 206.

⁴ - ينظر جورج طرابيشي، لعبة الحلم و الواقع، دراسة في أدب توفيق الحكيم، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، ط1، 1972م، ص 42.

⁵ - توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، المصدر السابق، ص 88.

لقد عرف الحكيم بعداوته للمرأة في الواقع و قد جسد هذا في روايته "عصفور من الشرق"، مع العلم أنه بدأها بالحب و الرومانسية، لكن هذا الحب كان في الخيال فقط و كان له غاية و هو إسقاطها من أعالي السماء إلى أسفل الأرض، لذلك فالسؤال الذي يراود الكثيرين هو ما سر عداوته للمرأة في الحقيقة؟.

في حوار له (توفيق الحكيم) مع الكاتبة لوسي يعقوب حول أفكاره و آثاره، سئل الحكيم عن سر عداوته للمرأة فأجاب قائلا: " كل المسألة أنني وجدت أن المرأة مخلوق يريد أن يستأثر بكل شيء في حياته.... لذا فإن عداوتي لهذا المخلوق لن تتقطع ما دمت أخشاه... إن عداوتي ليست إلا دفاعا عن نفسي...."¹، و يقول أيضا: " و لكن عقيدتي في المرأة مازالت كما هي لم تتغير أحبها و أخشاه و أتمنى البعد عنها يعني البعد عنها غنيمة فهي دائما شر و أعيش بالمثل الذي يقول: "إبعد عن الشر و غن له"².

إن اللافت للانتباه في هذه الرواية "عصفور من الشرق" هو أن البطل "محسن" أثناء زيارته باريس في أيامه الأولى كان منبها بالمدينة الأوروبية و بفنونها الراقية، لكن سرعان ما تبددت هذه الصورة التي كونها محسن عن أوروبا بعدما إكتشف أن كل

¹ - توفيق الحكيم نقلا عن لوسي يعقوب، عصفور الشرق، توفيق الحكيم، دار المصرية اللبنانية، القاهرة ط1، 1994م، ص 88.

² - المرجع نفسه، ص 107.

شيء مزيف فيها¹، فها هو إيفان يقول عنها: "إن مدينتها الخلابة ليست إلا بهرجاء، و إن علمها الحديث كله ليس من حيث القيمة العملية غير لعب قدمت للناس بعض الراحة و لكنها أخرجت البشرية و سلبتها طبيعتها الحقيقية و شاعريتها و صفاء روحها"²، كما أنها مومس عاهرة³، " لقد فهم الشرق أن فتاته ليست إلا غانية خليعة، لا قلب لها و لا ضمير، و ليست لها أي قيمة روحية و لا خلقية، و أن مآلها السقوط، ممزقة الجسد"⁴.

و لعل جريمة أوروبا الكبرى، هي تلك التي إقترفتها بحق الشرق "بعلمها" "فتاها"، عندما نقلت إليه عدوى أنوثتها المادية، فسممت بذلك منبع الرجولة و الروحية عنده⁵، و لذلك لم يعد هناك شرق بل شرق متفرد " نعم اليوم لا يوجد شرق! إنما هي غابة على أشجارها قردة، تلبس زي الغرب...."⁶.

و حتى يحافظ "محسن" على رجولته خاصة أن لها معنى خاصا عنده قرر قطع علاقته "بسوزي ديبون" حتى لا يتلوث بها و تبقى رجولته طاهرة و نقية، فكانت علاقته خفيفة بسوزي "الغرب"، لم تتجاوز الأسبوعين و هذا هو حال العصفور على كل حال،

¹ - ينظر باديس فوغالي، دراسة في القصة و الرواية، عالم الكتب و الحديث للنشر، الأردن، ط1، 2010م، ص 154.

² - توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، المصدر السابق، ص 155 .

³ - ينظر جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 41.

⁴ - توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، المصدر السابق، ص 162 .

⁵ - ينظر جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 43.

⁶ - المصدر نفسه، ص 174.

فهو دائما خفيف الظل يبحث عن الترحال¹، و الأمان لكي يبني عشه في هناء و طمأنينة،
لذلك نجد محسن يعود في الأخير ليعيش في الشرق بين أهله و أصحابه.

¹ - ينظر جورج طرابيشي، شرق و غرب، رجولة و أنوثة، المرجع السابق، ص 45.

المطلب الرابع: غياب الإنتقام في الرواية المغاربية

لم يكثرث البشير لما يجري في وطنه و لأبناء وطنه من قمع و نهب و تكتيل، بل كان كل همه هو البحث عن لذاته و الإستمتاع بهذه الحياة الجديدة السعيدة قدر الإمكان، في حين كان أبناء وطنه يتجرعون كل أنواع الذل و التعذيب، فقاوموا المحتل الغازي بكل قوة و بسالة، و فكروا في الوسيلة التي تخلصهم من ذلك المستعمر إلى الأبد¹، و صمدوا في وجهه لأن المهم عندهم هو إسترجاع السيادة الوطنية و المحافظة على معالمها، على عكسه هو تماماً فقد باع وطنه مقابل حياة مزيفة زائلة، فهو لا يحمل أي ذرة للغيرة على وطنه، و لا تهمه إلا مصلحته، كيف لا! و قد تنكر لإبنه و لم يكثرث لموت والده.

إن الظروف المزرية الصعبة التي عانى منها أبناء الوطن (الجزائر) و الأخبار السيئة التي كان يسمعها عنهم كانت تستدعي من البشير أن يتحرك و يبادر في المساعدة حتى و لو من بعيد و يتخذ موقفا من عدوه و ينتقم منه، و هنا كان سيتشكل الصراع بين الحضارتين، حضارة جزائرية تدافع عن معالمها و هويتها و أصالتها و حضارة غربية تريد إغراء و قمع الآخر، إلا أننا للأسف الشديد لم نجد أي شيء يدل

¹ - ينظر د. محمد مصايف، الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية و الإلتزام، الدار العربية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1983م، ص 287.

على وجود الصراع و روح الإنتقام عند البطل¹، بل فضل أن يبقى طرفا حياديا ساذجا.

إذا كان البطل (البشير) لا يحمل أي ضغينة لفرنسا و لا يفكر في الإنتقام منها، ففرنسواز كانت تسعى للإنتقام من الجزائر و أبناءها، لذلك جمعت كل المعلومات التي تخص البطل و كشفت سره، تقول له فرنسواز " لكن لا تحسب نفسك في نجاة مني أنا أعرف أنك لا تدعى جاك و إنما تدعى البشير، و أنك لست فرنسا و إنما جزائري، هل إعتقدت أن هذا سيخفى علي؟ إنك أبله إذا كنت تعتقد هذا..."²، فقد تحرت فرنسواز عن البشير جيدا حتى تعرف نقاط ضعفه و تضرب ضربتها فهي لم تتسى موت زوجها الفرنسي في الجزائر فقد " هجرها زوجها متناسيا كل ما فعلت لأجله و جاء هنا إلى الجزائر بعد أن تطوع في جيش المستعمر فقد سقط قتيلا بعد أن ألقى المجاهدون عليه القبض و عندما سمعت زوجته تأثرت كثيرا لهذا المصاب و الإخوة لا يعلمون ماذا تدبر هذه السيدة ضد البشير و ضد الجزائريين بصفة عامة، فهي و لا شك تود الإنتقام لزوجها، و ستفعل كل شيء للوصول إلى هذه البغية و تحقيق هذا الهدف"³.

لقد حبكت فرنسواز حبالها و نسجت خطتها بكل دقة و براعة، و هي لن تهدأ و ترتاح حتى تنتقم من عدوها، و مادامت الفرصة تسمح بالإنتقام فهي لن تتراجع، فهي

¹ - ينظر المرجع نفسه، ص 303.

² - عرعار محمد العالي، ما لاتذروه الرياح، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ط 2، 1982م، ص 205.

³ - المصدر نفسه، ص 154-155.

لم تكتشف إسمه و أصله فقط، بل إكتشفت حتى مرضه من أول مرة رآته فيها و لم تخبره بذلك حتى تتلذذ بتعذيبه و هنا سيكون إنقامها حتى تراه يعاني على فراش الموت تعترف فرنسواز للبطل قائلة: ".... إني أعرف كل شيء، إذا كنت تظن أن وجودك في هذا البيت يخفى علي، فأعلمك أنك مخطئ بل لقد عرفت أنك ستأتي إلى هذا المكان قبل أن تفكر أنت، أو تحاول المجيء نعم لقد كنت أنتظر مجيئك إلى هذا المكان مدة طويلة لقد كنت أعرف أنك مريض بداء السل كنت أريد أن أجرب كيف يعمرى العاشق و يتيه في حب عشيقته، و هو لا يعرف أن هذه الأخيرة تستلذ عذابه و تعيش على آلامه إذا كان هو يذبل و يضمحل فهي تنتعش و تقوىلقد تركتك تتعذب كثيرا إلى أن وصلت إلى حافة القبر ..."¹.

إن العلاقة التي جمعت بين فرنسواز (السادية) و البشير علاقة نفسية مرضية جسدت بذلك العلاقة السادية التي تجمع الغازي المستعمر (فرنسا)، بالمستعمر (الجزائر)، حيث تلذذت فرنسا بتعذيب الجزائر سنين طويلة و هي لن تقصر إن وجدت الفرصة مناسبة الآن، ففرنسواز هي امرأة ماهرة داهية إبنة لفرنسا المتجبرة ، إستطاعت أن تلعب دور الحبيبة على البشير و تنتقم منه دون أن يشعر بخداعها و مكرها ، حتى إعترفت له هي بذلك لأنها حققت غايتها و هدفها (الإنقام) ، و لسذاجته و غبائه

¹ - المصدر نفسه، ص 202.

إكتشف لعبتها متأخرا يقول: "أنا لم أكتشف إلى حد الآن فرنسواز الحقيقية، كنت أعرف امرأة أخرى، و الآن لقد فهمت كل شيء"¹.

إن فهم البطل لشخصية فرنسواز الحقيقية هو إن دل على شيء فهو يدل على فهم البطل لحقيقة و طبيعة الحضارة الفرنسية المزيفة المغرية، لذلك رفض رفضا تاما عرض فرنسواز بأن يتزوجا و هذا دليل على فشل مشروع الحوار بين الطرفين، "و إنفصال البشير عن فرسواز مرادف تماما لإنفصال الجزائر نهائيا عن فرنسا"².

إن مرض البشير إذا كان فرصة و سببا في استيقاظه من غفلته و سذاجته فهو " لم يدخل إلى المستشفى إلا لينفصل عن فرنسواز التي كانت تشكل بالنسبة إليه جدارا سميكاً يمنعه من رؤية الحقيقة"³، و بفضل هذا الإنفصال إنكشفت كل الحقائق أمامه و كان مرضه هذا بداية لتحوله و بداية لتأسيس مشروع جديد، مشروع يكون البطل "البشير" شخص جديد و يحاول أن يصحح كل أخطائه و يصلح كل علاقاته مع أبناء وطنه فهو نادم على كل ما قام به و يتمنى الرجوع إلى وطنه في أقرب وقت، ففرنسا التي كان منبهرا بها لم تعد تعنيه، فهي سبب هلاكه و ضياعه و ما عليه الآن إلا أن يبتعد عنها، يقول محدثا نفسه " ماذا ستفعل يا البشير لتتال العفو، و تعود كما كنت؟ من سيعينك و يساعدك ليجعلك تعود الى بلادك و أهلك و تطلب منهم العفو و

¹ - المصدر نفسه، ص 193.

² - د. محمد مصايف، الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية و الإلتزام، المرجع السابق، ص 297.

³ - المرجع نفسه، ص 300.

الرحمة من سيساعدك في هذه البلاد العاهرة التي أغوتك برهة من الزمنو خلقت في ذهنك صورا خاطئة أوصلتك إلى الهلاك؟ إنك منبؤ من أهالك....¹.

ما إن إستعاد البشير قليلا من عافيته حتى عاد إلى وطنه، و قلبه يخفق من الخوف للقاء أبناء وطنه و رد فعلهم، و ما إن وصل و التقى بأخيه العباسي حتى تتكر له العباسي و ترك البيت، و لم يكن العباسي الوحيد الذي عامله هذه المعاملة القاسية بل كل أبناء بلده عاتبوه و قاطعوه، يقول أحد الفلاحين: (يا لهذا الفتى الغريب، إنه على حافة القبر، إن الداء ينخره و العذاب يهلكه و لكنه يستحق ذلك، لأنه هو السبب في كل شيء..... إنه هو الرجل الذي ترك أخاه، و باع بلاده دون خزي، و إرتد عن دينه دون خشية،.... لقد عاقبه الله على فعلته ...²، لكن البشير صمم على أن يعود بأخيه إلى البيت و يستسمحه على فعلته تلك، فأمضى الأيام و الليالي يبحث عنه و المرض ينخر جسمه، لكنه لم يبالي المهم عنده أن يجد أخاه، و بالفعل هذا ما حصل إلتقى الأخوان و عاد البشير برفقة أخيه إلى البيت و الفرحة لا تسعه، لأنه حن لرؤية عائلته و أبناء وطنه التي فرقت بينهم فرنسا و مغرياتها، وبإلتئام شمل العائلة عادت المياه إلى مجاريها، و تحسنت صحة البشير و أمضى كل وقته في فلاحه الأرض.

¹ - محمد العالي عرعار، المصدر السابق، ص 198.

² - المصدر نفسه، ص 241.

يبدو إذا أن فكرة الإنتقام لم تكن واردة إطلاقا في ذهن الرجل المغربي، فكل همه هو التمتع بحريته و البحث عن لقمة عيشه، و قد تجلى ذلك بوضوح أكثر في رواية "المرأة و الورد"، حيث لاحظنا أن البطل لم يتردد و لو للحظة في الهروب من مجتمعه المغربي الجائر الذي لا ينظر إليه إلا بنظرة فوقية، فإستبدله بمجتمع آخر (غربي) يحقق له رغباته و طموحاته، لأن المهم عند البطل "محمد" هو أن يحيا بإحترام و يشعر بذاته، فكيف له أن يحيا بإحترام و جيبه فارغ في المغرب، يعيش فقيرا مهموما، فالحل إذن هو الغرب، الغرب هو الذي سيكون مصدر رزقه و سعادته فللمادة (المال) دور كبير في حياة الانسان، فهي التي ترفعك في أعين الناس و تجعلك تعيش هنيئا مرتاحا، و هي التي تسقطك و تجعلك تعيش ذليلا مهموما، فالمال هو مصدر الكرامة و الإحترام يقول البطل: "الجيب هو الذي يقرر مصيري، و إذا لم أباغ الجيب هو الكرامة و هو الإحترام، هو الوضعية و هو المعنوية عندما فتشت جيبني لم أجد أنه يستطيع أن يعطيني كرامة أكثر، كرامتي إذن محدودة"¹.

لقد ظن البطل "محمد" أنه سيتخلص نهائيا من حياة الفقر و الطبقة التي عاشها في المغرب، و سيعيش عيشة الرخاء و الرفاهية في الغرب، لكن ظنه هذا لم يكن في محله، فالفقر لم يفارقه في اسبانيا أيضا بل ظل يتبعه يقول البطل بعد أن أحس بالجوع و لم يجد المال الكافي الذي يشبع جوعه: " الشيء الأساسي و الضروري حتى في

¹ - محمد زفزاف، المرأة و الورد، الشركة الوطنية للناشرين المتحدين الرباط، د.ط، د.ت، ص 34.

أدنى مراحل الإنسان الحيوانية هو أن آكل و أشرب لم آكل كبشا صحيح، لكني أكلت سردينا ...¹.

إن هذا الوضع هو الذي دفع بالبطل إلى قبول عرض "تهريب المخدرات" مع صديقيه آلان و جورج، خاصة بعد أن أغرياه بحياة النعيم التي سيعيشها إذا نجحت العملية، فهو سيودع الفقر نهائيا إذا قبل بعرضهم، فلم يتردد البطل بالقبول لكنه فشل في أول موعد مع تاجر المخدرات، و هذا ما جعل "جورج" يوبخه على غبائه و سذاجته، و فشله هذا هو إن دل على شيء فهو يدل على أن البطل ليس له أي علاقة بعالم المخدرات، و لكن الفقر هو الذي أدى به إلى هذه التهلكة، فهو صاحب ضمير و مبادئ و يظهر ذلك من خلال المحكمة التي نصبها في خياله ليحاسب و يعاتب نفسه على الجريمة التي سيقترفها في حق الناس²، و ينتهي في الأخير إلى القول بأن الفقر هو السبب في فعلته تلك " أنا أكثر من جائع، من يعطيني قطعة خبز أين العمل"³، و هو بهذا الكلام يريد إدانة الواقع غير السوي الذي يجعل مثقفا يضطر الى ممارسة التهريب - و أي تهريب - لكي تعيش⁴.

إن الطبقيّة و العنصرية ليست موجودة في الوطن العربي فحسب، بل حتى في المجتمعات الغربية، فكل مجتمع و له فساده و عيوبه الخفية التي لا يكتشفها الإنسان

¹ - المصدر نفسه، ص 79.

² - ينظر مصطفى فاسي، البطل المغترب في الرواية العربية، المرجع السابق، ص 395.

³ - محمد زفزاف، المصدر السابق، ص 98.

⁴ - مصطفى فاسي، المرجع السابق، ص 397.

إلا عندما يقترب منها و هذا ما لاحظناه مع البطل "محمد" في إسبانيا، فقد ذاق المر حتى
يجمع المال بأي وسيلة، و لهذا فالرواية المغربية هنا تعكس سوداوية الحياة
الاجتماعية و صعوبة حصول الفرد على قوته في وقتنا الحالي¹.

¹ - ينظر سعيد علوش، الرواية و الإيديولوجيا في المغرب العربي، دار الكلمة للنشر، بيروت، ط 1، 1981م، ص 103.

المبحث الثاني: الحوار بين الشرق و الغرب

نقصد بالحوار هنا " إجراء علاقة مباشرة بين طرفين أو أكثر يقوم على التعبير و التحليل و تبادل الأفكار و المعلومات و الحجج و البراهين لغايات الإقناع و التأثير، و لعل المفهوم الأساسي للحوار هو التبادل السلمي للأفكار و الآراء و المعلومات"¹، و في هذا المبحث بالتحديد نريد أن ندرس نسبة نجاح أو فشل الحوار بين الشرق و الغرب و أسباب كل منهما، و ذلك من خلال الدور الذي جسده أبطالنا العرب مع المرأة الغربية أولاً، ثم إسقاط تلك النتائج على الواقع المعاش و مقارنتها.

المطلب الأول: صورة الرجل الشرقي عند الغربيين

لطالما إعتبر الغربيون الرجل الشرقي مجرد إنسان همجي متخلف، بعيد كل البعد عن المدينة و سلوكها المتحضر، فحياة البدو و الخيم و الجمال التي عاشها في الصحراء، أوحى للغربي بأنه رجل شرقي متوحش، جاهل و إنفعالي زيادة عن اللزوم، المهم عنده هو الصراع و العنف، لكن ذلك الغربي لم يتساءل عن سبب هذا الإنفعال، فإنفعاله لم يكن بلا سبب، بل له عدة مبررات جعلته يتوتر، من بينها ظلم و قهر الإستعمار الأوروبي له، و هذا أهم عامل عنف الرجل الشرقي و جعله إنساناً متوحشاً، كما يصفونه هم، يحمل السيف و يهب إلى أراضي الغرب ليقتلهم بلا رحمة أو شفقة².

¹ - د. أحمد عارف أرحيل الكفارنة، معوقات الحوار بين الشرق و الغرب، مجلة دفاتر السياسة و القانون، العدد الثالث عشر، جوان 2015م، جامعة البلقاء التطبيقية، المملكة الأردنية الهاشمية، ص 288.

² - ينظر جورج ازوط سهيل ادريس في قصصه و مواقفه المرجع السابق، ص 119 .

كما وصف الغربي الإنسان الشرقي بأنه إنسان لامبالي، و هذا بسبب التصرفات المستهثرة التي يقوم بها بعض الشباب العرب في فرنسا، فهو يتجمعون في الأماكن العامة و يتكلمون كلاما تافها و غير لائق عن الفتيات بدون إحترام و مراعاة أحاسيس الناس هناك، و لعل هذا ما أدى إلى إبتعاد الغربيين عنهم و تحاشيهم، و حتى فؤاد ابن بلدهم ينفر من جلساتهم¹، يقول: "كان هو في الحق، ينفر من لقاء هؤلاء المواطنين و يتجنبهم، و يعتقد أن من الخير أن يعيش في غير أجوائهم، فإن في أحاديثهم هذا كثيرا، و في وقتهم ساعات مهدورة"²، و بسبب هؤلاء الشباب التافهين تكونت صورة خاطئة عن العرب جميعا، تقول فرنسواز لفؤاد بعدما سألتها هل كانوا يسببون أي إزعاج بأصواتهم:

" لا ليس في ذلك إزعاج، كل ما سيقولونه إن هؤلاء العرب لا يتعلمون الكلام في مدارس الشرق، و إنما يتعلمون الصراخ و الزعاق!"³، و لهذا سمي العرب بالبربر أي الهمجيين، و هذه الهمجية جعلت كل الغربيين يتحاشونهم تفاديا للمشاكل معهم، "فالبشير" مثلا بطل رواية "ملا تذروه الرياح" كان نموذجا حيا للشباب المستهتر اللامبالي في فرنسا و هذا بسبب تصرفاته الطائشة ، فقد بلغت به الوقاحة أن يتحرش بفتاة تجلس مع صديقها دون أن يبدي أي إحترام له و للآخرين ، فلم تتمالك الفتاة

¹ - ينظر المرجع نفسه، ص 120.

² - سهيل إدريس، الحي اللاتيني، المصدر السابق، ص 81 .

³ - المصدر نفسه، ص 167 .

نفسها و شتمته قائلة: "يا لك من رجل وقح هل لا تستحي من فعلتك هذه"¹، لكن البشير لم يبالي لكلامها بل إستمر في إزعاجه للآخرين " ثم رفع الزجاجه عاليا و هشمها على طرف الطاولة فتناثرت قطع الزجاج في كل جهة و تطايرت قطرات الخمر على ثياب الناس المجاورين فهب هؤلاء واقفين مبتعدين متصايحين"²، و بهذا التصرف السيء فقد و خسر البشير كل أصدقائه الفرنسيين لأنهم كرهوا صحبتته لهم يقول أحدهم: "أعتقد يا جماعة أنه من الأفضل لنا أن نخرج، و لا ننتظر جاك (البشير)، فأنتم تعرفون أنه يسبب لنا المضايقات، و يخلق لنا المتاعب"³.

يحتاط الإنسان الغربي في تعامله مع الرجل الشرقي، لأن هذا ما علمه إياه مجتمعه الأوروبي، الحيطه و الحذر من الشرقي المتوحش، تؤكد فرنسواز هذا الكلام بعدما سألها البطل، يقول: "قولي الحق يا فرنسواز: أصحيح أن الفتاة الفرنسية إجمالاً تخشى من الشرقي؟ نعم صحيح! لست أتملقكما إذا قلت إن هذا أمر مؤسف حقاً، على أن الخطأ ليس هو خطأ الفتاة الفرنسية، هكذا علموها في بعض مجتمعاتهم"⁴، و تستطرد فرنسواز قائلة: "لقد علموا الفتاة الفرنسية، في بعض مجتمعاتهم، أن تخشى هذا الشرقي الساكن في الصحراء، القائم في مجتمع متأخر، لابد أنه متوحش"⁵.

¹ - عرعار محمد العالي، ما لاتذروه الرياح، المصدر السابق، ص 93.

² - المصدر نفسه، ص 93.

³ - المصدر نفسه، ص 94.

⁴ - سهيل إدريس، المصدر السابق، ص 156.

⁵ - المصدر نفسه، ص 167.

إذا هو الحقد، و هي دونية و تعالي المجتمعات الغربية التي زرعت أفكارا سوداء وحشية في عقول أفرادها إتجاه الرجل الشرقي، فشوهت كل صورة العرب، هي مؤلفات المستشرقين التي لفقت هذه الأفكار و الصور الخاطئة عن الرجل الشرقي فنقلتها إلى ذهن القارئ الغربي الذي أصبح يتفادى الإحتكاك بالرجل الشرقي خوفا من همجيته و عنفه، فهدف المستشرق ليس تصوير الصحراء الشاسعة الجميلة، و إغراء القارئ الغربي بجمالها، بل تخويفه منها و من أفرادها: "فلوبير نفسه، هذا الذي حنت جانين إلى الشرق بتأثير ما كتبه، ألم يكن حريصا على تصوير نواحي التأخر و الحيوانية في حياة أهل الشرق؟"¹، فحسب ظنهم أن الصحراء هي حياة التخلف و الحيوانية، لذلك لابد لهم الإحتراس من الرجل الشرقي ثعلب الصحراء.

هذه إذن كانت إستراتيجية الغرب في خلق التوتر بين المعسكرين الشرقي و الغربي، فالغرب أصبح يهاب الشرقي، و إذا قام أي شخص بسلوك غير متحضر و كان الفاعل رجلا أجنبيا يتهم به الرجل الشرقي و ينسب إليه هذا التصرف المتوحش، يحكي بطل الحي اللاتيني: "كان يوما مع فؤاد يحتسيان قهوتهما بهدوء، و إذا بضحكة مجلجلة تدوي بها القاعة، و تظل متتابعة لحظات، و إن هي إلا لحظة حتى تناهى إلى سمعنا صوت نسائي يقول بلهجة عصبية و بالفرنسية: أي متوحش هذا ! لابد أنه عربي!"².

¹ - المصدر نفسه، ص 96.

² - المصدر نفسه، ص 80.

حتى سوزي صديقة "محسن" تتساءل و تفكر مليا في سلوك محسن الغريب، فهو لم يشكرها عندما دفعت عنه الحساب، و هذا ما جعلها تقول: "أهو شرقي متوحش، لا يعرف الآداب و اللياقة؟!....."¹.

فالإنسان الغربي كون صورته عن الإنسان الشرقي و من الصعب أن نمحو هذه الصورة، فمعالمها مازالت ظاهرة و موجودة إلى يومنا هذا بدليل ما نسمعه و ما نراه من إتهامات لنا نحن المسلمين في أننا إرهابيين، و هذه الأفكار زرعها الغربيون في ذهن أفرادهم من جهة، و زرعها بعض المفسدين الذين يريدون تشويه صورة الإسلام، فما شاهدناه مؤخرا حول القنبلة التي وضعت في باريس، وضعتها امرأة ترتدي حجابا و تحمل سلاحا، ثم في آخر لحظة رفعت النقاب و كشفت عن وجهها، و هي أصلا ليست محجبة، فلماذا قامت بهذا التصرف؟. أليس لتشويه صورة الإسلام و المسلمين، و تكريه الغرب في المسلمات المحجبات، فأصبح كل غربي يمر على امرأة محجبة يمقتها و يعيرها، و بمجرد أن تقول اليوم من الإرهابي الذي قام بهذا الفعل (القتل أو التفجير)، آه، إنه مسلم من الجزائر لا لا، هو من سورياالخ، فحسبنا الله و نعم الوكيل في الذين يحاولون تشويه صورة ديننا الحنيف "الإسلام".

نظرة إحتقار و إستعلاء ينظر بها الإنسان الغربي للرجل الشرقي و يواجهه بها، فالبروفسور "ماكسول فستركين" لم يخفي حقه و بغضه لمصطفى سعيد قائلا له: "أنت يا مستر سعيد خير مثال على أن مهمتنا في إفريقيا عديمة الجدوى ، فأنت بعد كل

¹ - توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، المصدر السابق، ص 82.

المجهودات التي بذلناها في تثقيفك كأنتك تخرج من الغابة لأول مرة"¹، و هذا ما قاله أحد القضاة في محكمة الأولديلي: "إنك يا مستر سعيد رغم تفوقك العلمي رجل غبي إن في تكوينك الروحي بقعة مظلمة، إنك قد بددت أنبل طاقة يمنحها الله للناس، طاقة الحب"². فمع العلم أن مصطفى س كان رجلا متعلما مثقفا إلا أنه في نظر الغرب إنسان متخلف لا يريد أن يعترف لهذا (الأسود الوحشي) بتفوقه و تحضره فلا بد لهم من نبذه و تحطيمه³، فإعترافهم له بتفوقه و تحضره هو إقرار للحضارة الشرقية كلها، لأن مصطفى هو وجه الحضارة الشرقية، "فهو وجه حضاري قبل أن يكون شخصا واقعيا، و ليس لقاءه مع إنكلترا لقاء بمجتمع، بل لقاء قارة بقارة و ثقافة بثقافة ..."⁴.

حتى "شيلة غرينود" التي عشقت سحر الشرق و فتنت بلونه الأسود، تصارحه عن حقيقة مشاعرها و مشاعر والديها إتجاه الرجل الأسود تقول له: "أمي ستجن و أبي سيقتلني إذا علما أنني أحب رجلا أسود و لكنني لا أبالي"⁵، فهل عدم مبالاة شيلة غرينود برأي و موقف والديها من علاقتها بمصطفى يعني أنها ستنتهي الخلاف الناشب بين الشرق و الغرب و عقدهما من بعضهما البعض؟، لا. لا تظن ذلك، "فشيلة غرينود" مثل أوروبا إستغلالية، لذلك ستستغل "شيلة" فحولة " مصطفى س" و تتخذها

¹ - الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، المصدر السابق، ص 99.

² - المصدر نفسه، ص 70 .

³ - ينظر فوزية الصفار، أزمة الأجيال العربية، المرجع السابق، ص 111.

⁴ - الطيب صالح، المصدر السابق، ص 28.

⁵ - المصدر نفسه، ص 132.

وسيلة لإشباع شبقها الجنسي و عندما تشبع منه ستعود و تحتقره مرة أخرى، " ستشعر
إتجاهه بنوع من الإحتقار لمجرد أن الرجل الأبيض حكمه فترة من الزمن"¹.

يقول "فرانس وفانون" في كتابه بشرة سوداء و أفنعة بيضاء"، واصفا نظرة إحتقار
الغربي للشرقي: "إن الزنجي بصرف النظر عن مستواه العلمي و الثقافي هو في نظر
الفرنسي زنجي قبل كل شيء، و من ثم فهو في مرتبة أقل فيردد: عندما أتحدث إلى من
يحبونني يقولون إنهم يحبونني على الرغم من لوني، و حينما أتحدث إلى من يكرهونني
يعتذرون بأنهم لا يكرهونني بسبب لوني، و في كلتا الحالتين تجدوني حبيس الحلقة اللعينة
إياها"². فمهما فعل الأسود فهو لن يغير نظرة الغربي له، حتى و إن كان أحسن منه،
فالعربي له مهمة نحو الشرقي هي تجريحه و تدميره، فجين مورس المتمردة لا تضع أي
إعتبار لمشاعر "مصطفى س" و تعيره ببشاعته لتهين كرامته تقول: "أول ما لقيت مصطفى
تحدثه بالنظر من أعلى صلاقتها الأوروبية، ثم لقيته ثانية فهجمت "أنت بشع لم أر في حياتي
وجها بشعا كوجهك"، و اصابته في صميم كبريائه القومية...."³، و هذه أكبر إهانة للرجل الأسود
و لقارته السوداء كلها، هو عنف و حقد التاريخ الذي يدفع الغربي لهذا الإحتقار و الإستعلاء
ليضعفه و يبقى دائما تحت سلطته.

¹ - فوزية الصغار، المرجع السابق، ص 140.

² - المرجع نفسه، ص 109.

³ - الطيب صالح، المصدر السابق، ص 19.

فالصورة التي كونها الإنسان الغربي عن الشرقي هي صورة بدائية للإنسان القديم و لا يريد أن يراه بغير هذه الصورة¹: "الإنسانية في مرحلة الميلاد بلا وعي، و لا إرادة، و لا عقل. مجرد كائن عضوي، أشبه بالكائنات الطبيعية الجامدة أو الحية على أكثر تقدير. و ليس به فكر أو علم، إنسانية مجرد مثل الأحجار، و هو موطن السحر و الخرافات و الأوهام،....، و كل ما فيه تخلف في الملبس و المسكن و المأكل و المشرب، و نواحي العمران: كثافته السكانية إحدى مظاهر تخلفه نسل وفير، و كوارث طبيعية من الفيضانات تحصد الألوف، لا يعرف حرية الأفراد، بل دكتاتورية الحكام على ما هو معروف في الإستبداد الشرقي"²، هذه هي الصورة التي يريد أن يرانا عليها الغرب الأوروبي المستبد حتى نبقي تحت سيطرته و رحمته.

¹ - ينظر حسن عليان، العرب و الغرب في الرواية العربية، المرجع السابق، ص 251.

² - المرجع نفسه، ص 252.

المطلب الثاني: بين الشرق و الغرب (الروحانية و المادية)

عالج توفيق الحكيم صراع الشرق و الغرب من خلال ثنائية (المادة و الروح) و قد جسد هاتين الثنائيتين كل من "محسن" الشرقي الرومانسي الحالم، و "إيفان" الغربي الشيوعي، و قد كان هذا الأخير (إيفان) رافضا لقوانين و مبادئ الثورة البرولتارية، لذلك حزم أمتعته و إنتقل إلى فرنسا، معتقدا أنه سيجد ما إفتقده في دولته، لكن سرعان ما خاب أمله و إنكسر لأن فرنسا لا تختلف عن بلده، فقرر أن يتوجه هذه المرة إلى الشرق (الروحاني) ليحصل على راحة نفسه¹.

حوار شيق دار بين محسن الشرقي و الغربي إيفان، في أول لقاء جمعهما ببعضهما البعض، حول أفكار كارل ماكس في كتابه (رأس المال)²، فدخل كل منهما في نقاش حاد و طويل حول مادية أوروبا (الغرب)، و روحانية الشرق، فلم يتمالك إيفان نفسه، و تهجم على أوروبا و علمها الحديث، و ما توصلت إليه من صناعة و تريت الإنسان و جعلته يعيش قلقا، و ما أنتجه من أدب رديء لا يليق بمستوى القراءة الحديثة، و لعل سبب رداءة هذه النصوص راجع إلى كثرة الطلب حول القراءة التي أصبحت عادة كالسجائر أو الأفيون ، فالطلب كثر و المستوى قل ، على عكس ما كانت عليه القراءة قديما فجودتها كانت في قلتها³، ثم يضرب لنا "إيفان" مثال عن المثقفين الغربيين الذي يدعون الإيمان ، و ما إيمانهم إلا لعبة أدبية ملفقة ، و من بين

¹ - ينظر المرجع نفسه، ص 190.

² - ينظر مصطفى فاسي، البطل المغترب في الرواية العربية، المرجع السابق، ص 201.

³ - ينظر توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ص 158.

هؤلاء الأديب الفرنسي "جان كوكتو" الذي جرب الأفيون ثم عاد إلى الإيمان فأنكر "إيفان" إيمانه لأنه ليس إيمانا صادقا يقول: "إن أوروبا كلها الآن ليست إلا رجلا مفكرا قلقا حائرا يتعاطى الأفيون، إن "جاك كوكتو" هو كل أوروبا في أزمتها الحاضرة"¹.

ما يحمله "إيفان" من حقد و كراهية لأوروبا يحملها محسن أيضا، لذلك "إيفان" لم يتعب و لم يتوقف عن توجيه نقده لأوروبا، بل واصل نقده اللاذع لأوروبا و مساوئ ماديتها قائلا: ".... إن علمها الحديث كله، و هو وحده الذي تتيه به البشرية في مختلف تاريخهاإن السكك الحديدية و الطيارات قد أعطتنا السرعة و توفير الوقت و لكن ما فائدة ذلك؟ و لماذا السرعة؟ كأنما قد هبطت علينا شياطين تلهب ظهورنا بالسياط من الذي إستفاد من هذه السرعة الملعونة غير قبضة من النهمين، جمعوا في أيديهم الثروات و سموا بالرأسماليين"²، ثم يضيف قائلا: "فكل شيء في هذه المدينة الحاضرة يتآمر على قتل الفضائل الإنسانية العليا مصيبة المدينة الأوروبية نزلت منذ إستقرار الصناعة الكبرى هذه الصناعة التي شطرت المجتمع الأوروبي إلى شطرين لم تبقى له حتى تلك اللذة الفنية القديمة و ما الفرق بينه و بين الآلة"³، فغاية الحكيم من هذه الإستشهادات الكثيرة التي ذكرها على

¹ - المصدر نفسه، ص 164.

² - المصدر نفسه، ص 155-156.

³ - المصدر نفسه، ص 157-158.

لسان "إيفان" هو الكشف عن التعاسة و المأساة التي يعاني منها الإنسان الحديث في ظل المادية الغربية¹.

رد جورج طرابيشي على كلام و إستشهادات الحكيم بقوله: " إنه يقلب المعايير جميعا ويجعل من أعظم إنجاز و أروع فتح في تاريخ البشرية إطلاقا، أي الصناعة الحديثة، آفة الآفات و مصدر الشرور و الآثام جميعا، و الواقع أن الهجوم على الصناعة الكبرى قد لا يعدو أن يكون سذاجة صوفية إذا صدر عن قلم كاتب غربي و برسم قارئ غربي، أما على لسان كاتب شرقي و برسم قارئ و بتعبير أدق على لسان كاتب من مجتمع متخلف برسم قراء هذا المجتمع عينه، فإن الحديث حتى عن خيانة قومية و تضليل قومي يصبح جائزا، و في هذا الحال تتقلب السذاجة الصوفية إلى دعوة إمبريالية الإلهام و الواقع إلى تأييد تخلف العالم المتخلف إذا إن الحكيم في إنتقاده للمظاهر المذكورة أنفا إنما يدعو إلى شلل الحياة و العودة بها إلى الورا للهيام في الصحراء القاحلة أما أنا و أنت و بقية الآدميين الوداعين فقد خسرنا تلك الرحلات الطويلة على ظهور الجياد أو الإبل"².

إن زيف الحضارة الغربية و أنانيتها جعل إيفان الشيوعي ينبذها و يمقتها هي و ماديتها، و ينتصر للشرق الروحاني الطاهر، فعندما أحس ببرودة الموت ، لم يتمنى إلا شيئا واحد هو الذهاب إلى الشرق حيث سيجد راحة نفسه و إطمئنائها ، يقول إيفان

¹ - ينظر سالم المعوش، صورة الغرب في الرواية العربية، المرجع السابق، ص 361.

² - المرجع نفسه، ص 362.

لمحسن عندما أحس بقرب أجله¹: "دعني، أيها الشاب، سنذهب إلى الشرق، أريد أن أرى جبل الزيتون، و أن أشرب من ماء النيل، و ماء الفرات، و ما زمزم"²، فروح إيفان كلها معلقة بروح الشرق، لأنه لم يعلم أن كل شيء تغير في الشرق، و أن الشرق لم يبقى شرقا كما كان ، فلا شيء يبقى على حاله، إلى أن يوقظه محسن من أحلامه الشرقية فيقول: "مهلا مهلا أيضا الصديق! إن النبع الذي تريد أن تراه (الشرق) و تلك الأنهار التي تريد أن تشرب منها: قد تسممت كلها! إن الفتاة الشقراء (أوروبا) يوم حقنت فخذها بالمورفين السام لم تترك أبويها (آسيا و إفريقيا) سالمين، لقد قضي الأمر، و لم يعد هناك نبع صاف، فإن الزهد قد ذهب كذلك من الشرق، و رجال الدين أفسق من زملائهم في الغرب"³.

و عن هذا الموضوع بالذات (روحانية الشرق) سئل توفيق الحكيم فرد قائلا: "الحكيم: فكرة الشرق شرق و الغرب غرب هذه ليست صحيحة، تصور البعض أن الشرق كان ومازال روحيا فقط، و أن الغرب كان و مازال ماديا فقط، تصور يتجاهل الحقيقة، و قد ذكرت هذه الحقيقة في كتابي من "البرج العاجي" حين قلت ما نصه: يذكر أن كاتباً شرقياً راعه إفتقار بلاده إلى ما عند الغرب من أسباب القوة فقال: "أنا الشرق، عندي فلسفات فمن يبيعني بها طائرات ! هذه الكلمة خطأ كلها ، فليس عند الشرق اليوم فلسفات ، و أن الشرق يوم كانت موجودة في أرضه ، فكر في إختراع

¹ - ينظر باديس فوغالي، دراسات في القصة و الرواية، المرجع السابق، ص 152.

² - توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، المصدر السابق، ص 171 .

³ - المصدر نفسه، ص 172 .

الطائرات عباس بن فرناس، بل إن الفلسفة يوم إنتقلت إلى الغرب، إنتقلت معها بذرة روح الإختراع التي أنبتت الطائرات"¹.

لا يمكن أن ننكر فضل و إيجابيات الحضارة الغربية علينا، و مدى إستفادتنا من وسائلها العلمية و مخترعاتها الحديثة، كما لا يمكن أن ننسى القهر الذي سببته لنا وسائلها الحربية، فأوروبا سخرت تكنولوجيتها و وسائلها لقهر و إستعباد الشعوب الضعيفة²، يقول أرسلان في ذلك: "إن الحروب بين الدول قائمة متتابعة و الإختراعات التي تفتخر بها المدينة مصروفة إلى استئصال البشر"³، و يشاطره الريحاني الرأي في مادية الغرب المدمرة فيقول: "هذه مدينة أوروبا اليوم، مدينة كهرباء و بخار، مدينة تجارة و إستغلال، مدينة حروب و إستئثار، ليس فيها للضمير و الذمة أثر من الآثار، مدينة جذورها حب الذات و الاستئثار و ثمارها اليأس و الإنتحار، لا تقولوا بالغت، فإن كلامي من الإختبار، لا من المجلات و الأسفار"⁴.

فالغرب لا تهمه إلا مصلحته حتى و لو كانت على حساب مصلحة الآخر و هلاكه، و لا يهتمه لا التمسك بالأخلاق و لا غيرها، المهم عنده هو تفوقه ، فشعاره المادة ثم المادة ، يقول "كرد علي" * : " لا يستغرب أحد ما يشاهد من غارات الدول

¹ - توفيق الحكيم البرج العاجي المرجع السابق ص 819 - 820 .

² - ينظر سالم المعوش، المرجع السابق، ص 362.

³ - أرسلان، حاضر العالم الاسلامي، نقلا عن نازك سابا بارد، الرحالون العرب و حضارة الغرب، المرجع السابق، ص 372.

⁴ - الريحاني، القوميات، نقلا عن نازك سابا يارد، المرجع نفسه، ص 375.

* - كرد علي محمد ولد في دمشق 1876م، مفكر سوري و من رجال الفكر و الأدب، توفي 1953م.

المستعمرة مادمنّا موقنين أنّ المدينة الحديثة هي إبنة المادة، و الإنصاف يقل في أهل
المادة، و هم يحتقرون في سبيلها المثل العليا و الأخلاق الفاضلة، و تقبل أذهانهم كل وسيلة
ما دامت الغاية جمع المال¹ و أيده أرسلان في قوله هذا: " كل مدنية أوروبية
تقريباً هي مستغرقة في خدمة الحواس، و لسان حالها ينادي المادة، المادة"².

¹ - كرد علي، الاسلام و الحضارة العربية نقلاً عن نازك سابا يارد، المرجع نفسه، ص 373.

² - أرسلان، الإرتسامات اللطاف عن نازك سابا يارد، المرجع نفسه، ص 373.

المطلب الثالث: فشل الحوار بين الشرق والغرب (فشل الأبطال)

إن ذهاب المثقف العربي أو البطل العربي إلى الغرب للإنتقام، لم يأت بأي نتيجة، فكل المشاريع الإنتقامية التي خطط لها الأبطال الشرقيون باءت بالفشل، و لعل سبب هذا الفشل الذريع هو تصورهم و فهمهم الخاطئ للغرب، فمصطفى سعيد و غيره من الأبطال العرب لم يهيئوا أنفسهم جيدا لمواجهة الغرب، فكان سلاحهم الوحيد هو فحولتهم، و هي وسيلة لا تميز حضارتهم الشرقية المحافظة، متخذين في ذلك المرأة وسيلة للإنتقام من الرجل الغربي، فقد ظن مصطفى سعيد مثلاً أن تلك المغامرات و العلاقات الجنسية التي أقامها مع المرأة الغربية هي بداية الحرب مع الغرب، لكنه صدم في النهاية بالهزائم المتتالية التي تلقاها من قبلهن، فغزو الرجل الغربي في عقر داره لا يعني هزيمته، لأن المرأة الغربية لا تملك أصلاً شرفاً تتأسف على فقدانه¹.

فهم " ليس عندهم شيء من النخوة و الغيرة، يمشي الرجل مع إمرأته و يلقاه آخر، فيأخذ المرأة و يعتزل بها، و يتحدث إليها، و الزوج واقف بعيداً ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طولت مع المتحدث تركها و مضى"².

عادة ما يستخدم الجنس ليفيد التناسل، لكن مصطفى لم يستخدمه لذلك بل لغرض آخر، فقد أصبح الجنس عنده "دافعاً لإستمرار الحياة ، ليس بمعنى التناسل و

¹ - ينظر الى حفاوي رشيد بعلي، الطيب صالح و الابداع الكتابي، المرجع السابق ص 139 - 140.

² - د. غسان السيد، صورة الغرب في الأدب العربي، رواية فياض نموذجاً لخيري الذهبي، مجلة جامعة دمشق، المجلد 24، العدد الثالث+ الرابع، 2008م، ص 100.

إنما بمعنى إستمرار الصراع الذي يدفع بالحياة إلى الأمام....¹، فكل حقد " مصطفى س " و نغمته على الغرب أخرجه من خلال الجنس ظنا منه أنه يثأر من الغربي و يتفوق عليه، لكن سرعان ما يقف في منتصف الطريق مكسورا مهزوما، لأن السلاح الذي وظفه (الفحولة) لم يكن السلاح السليم المناسب للغزو " فنكسة مصطفى سعيد مردها إلى خرافة سيادة "الفحولة" التي يتوهمها المجتمع العربي، انها الوسيلة المتكافئة التي تمنح له القدرة لا على المواجهة فحسب، بل على الإنتصار على الخصم"²، و البطل الشرقي في رواية " موسم الهجرة إلى الشمال" بطل تائر متلهف الثأر، " أراد أن يغزو الغرب جنسيا كما غزاه الغرب ثقافيا"³، لكن محاولته هذه فشلت فإنكسرت رجولته أمام المرأة الغربية التي ظن أنها صيد سهل.

إن لجوء الأدباء العرب إلى عمليتي " تأنيث الغرب و تذكر الشرق" ما هي إلا لعبة وهمية إتخذها الروائي وسيلة لتعزيز ثقته بنفسه و دعمها، على أنه الذكر الأقوى الذي يسيطر على الأنثى الغربية (الغرب)، لكن الوهم شيء و الواقع شيء، فسرعان ما ينصدم بهذه الأنثى الغربية التي كشرت عهن أنيابها و مخالبتها و إفتروسته، لأنها دائما مستعدة للمواجهة و القتل، فلم يكن له حل في النهاية إلا الخضوع و الإستسلام لأوامرها⁴، منهزما، مطأطأ الرأس، و لعل سبب هذا الإنهزام راجع إلى سذاجة خطته و

¹ - بوجمعة الوالي، الصراع الحضاري في الرواية العربية، المصدر السابق، ص 76.

² - المرجع نفسه، ص 110.

³ - المرجع نفسه، ص 110.

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص 95.

سلاحه، فالأدباء توهموا أن "إتصالهم بالأنثى الأوروبية و توحدتها معهم - جنسيا- كافيا لكسر حاجز المفارقة الحضارية فيما بين الحضارتين، العربية و الأوروبية و إعادة التوازن النفسي إلى شخصيتهم، إلا أن التجربة بينت إرتداء "لبوس الفحولة" و إتخاذ الجنس لغة بين الذات و الآخر، يؤدي إلى طريق مسدود"¹.

نتيجة هذه المواجهة مع الغرب هي نتيجة سلبية، لم يجن منها البطل الشرقي إلا الذل و الإنكسار و الخيبة (مصطفى س)، أو العزلة و التقوقع (محسن عصفور من الشرق)²، فشدوا رحالهم عائدين إلى أوطانهم لأنهم لم يتحملوا هزيمتهم و خيبتهم، هكذا عاد مصطفى سعيد إلى بلده متعبا و محطما، فبدأ حياته من الصفر، فهو "ليس من اهل البلد، لكنه غريب جاء منذ خمسة أعوام، إشتري مزرعة و بنى بيتا و تزوج بنت محمود، رجلا في حاله لا يعلمون عنه الكثير"³، و على الرغم من انه إنسان مثقف و يحمل شهادات عالية، إلا أنه تنكر لها في بلده السودان و لم يظهرها إطلاقا، فالمهم عنده هو راحة باله و طمأنينتها، لذلك إختار مهنة أخرى بسيطة هي الفلاحة و هذا حتى لا يجهد تشغيل فكره في أمور أخرى ذاق المر منها.

لقد أمضى "مصطفى س" كل وقته بين البيت و الفلاحة و المسجد " يحضر صلاة الجمعة في المسجد بانتظام ، و يسارع بذراعه و قدحه في الأفراح و

¹ - المرجع نفسه، ص 96، 97.

² - ينظر المرجع نفسه، ص 95.

³ - الطيب صالح، موسم الهجرة الى الشمال، المصدر السابق، ص 30 .

الأقراح....¹، إلى أن يأتي اليوم الذي يقرر فيه الإنتحار غرقا في النهر، بعد أن يترك وصية للراوي يوصيه فيها بولديه و زوجته " إنني أترك زوجتي و ولدي و كل مالي من متاع الدنيا في ذمتك لا أدري متى أذهب يا صديقي، و لكني أحس أن ساعة الرحيل قد أزفت فوداعا"²، و هذه الرسالة هي خير دليل على أن "مصطفى سعيد" قد هيا نفسه للرحيل و الموت لأنه يؤس من الحياة أو هو خائف منها و مما سيراه منها مرة أخرى، فهو لن يتحمل إنكسار وخيبة أخرى.

إذن هذه الروايات أثبتت و بينت لنا أنه من الصعب إقامة حوار و صلة بين الشرق و الغرب، و هذا الأمر أكده أيضا " فيلمراستيورتكاكونورثروب" في كتابه "نقد نوثرورب" للحضارة الغربية و موقفه من إلتقاء الغرب و الشرق"، و قد رد أسباب فشل الحوار و التقاهم بينهما إلى:

*أن الحضارة الغربية حضارة متقدمة و إيمانها بتفوقها هو الذي جعلها تفرض سيطرتها وجباروتها على الحضار الضعيفة³، أي أن الحضارة الغربية حضارة مغرورة طاغية ظالمة، تنظر نظرة إستعلاء إلى غيرها، فبمجرد أنها إمتلكت القوة أرادت أن تدوس على الضعيف، ولم تجد إلا الشرق لتمارس عليه هذه القوة و السلطة، و على كل حال هذا الأمر نعيشه حاليا مع أمريكا و سياستها القمعية التي تسعى إلى " سلب

¹ - المصدر نفسه، ص 33 .

² - المصدر نفسه، ص 78 - 79 .

³ - ينظر فيلمراستيورتكاكونورثروب نقلا عن وفاء عبد الحليم محمود، نقد نوثرورب للحضارة الغربية، المرجع السابق، ص

هوية الشرق و تحطيم قيمه الأخلاقية و الدينية، و التأكيد على التبعية و سلب كل الخيرات و الثروات و جعل الشرق مجرد تابع"¹.

*الموروث و الذاكرة التاريخية: يرجع سر فشل الحوار بين الحضارتين الشرقية و الغربية إلى تلك الحروب التي جمعت بين الطرفين سابقا و بقيت إلى اليوم راسخة في الذاكرة البشرية التي هي دائما متخوفة من الآخر و حاقدة عليه².

*إن سبب الاختلاف بين الحضارتين هو المنهجية العلمية المعتمدة، فكل منهما له منهجية خاصة به، فالفكر الشرقي مثلا يقوم و يعتمد على التأمل، أما الفكر الغربي فأساس منهجيته هو التجربة.

*إفتقاد كل من الحضارتين الشرقية و الغربية إلى لغة تسهل عليهم الحوار و التفاهم³.

*لقد كان لأحداث الحادي عشر من سبتمبر 2002م في الولايات المتحدة الأمريكية دور كبير في تفجير صراع جديد بين الشرق و الغرب، مما أدى أيضا إلى تكوين صورة سلبية مشوهة عن المسلمين بصفة عامة⁴. فمنذ ذلك الهجوم على الولايات المتحدة و الضربات العسكرية ضد أفغانستان تحول مشهد الرعب لتصادم الحضارات واقعا و حقيقة . ومهما كانت الحقيقة التي نكتشفها وراء ذلك الهجوم فأي

¹ - المرجع نفسه، ص 82.

² - ينظر د. أحمد عارف أرحيل الكفارنة، معوقات الحوار بين الشرق و الغرب، المرجع السابق، ص 294.

³ - ينظر فيلمرستيتورتكاكونورثروب نقلا عن وفاء عبد الحليم محمود، المرجع السابق، ص 82.

⁴ - ينظر د. أحمد عارف أرحيل الكفارنة، المرجع السابق، ص 296.

دوامة جديدة للعنف تؤدي إلى انهيار الانسانية في عهد جديد من الظلام و العتمة. ومن الضروري أيضا أكثر من أي وقت مضى في هذه الحالة أن نحدد من جديد أسس العقل و المبادئ العلمية التي تجعل من " حوار الثقافات " ممكنا إلى أعلى مستوى.¹

*إن دعوة الغرب إلى العناية بحقوق الإنسان و في نفس الوقت أمروا بالظلم و التجبر و التعدي على حقوق الناس، سبب خلا في عملية التواصل و التفاهم بين الشرق و الغرب.

*إن الربط بين الشرق و الغرب و تمكينهما من الحوار مع بعضهما البعض، هو حلم مستحيل،" فالتمزقات التي يمر بها عالمنا المعاصر الآن و مخزون الأسلحة البيولوجية و النووية، يجعل الإنسان في حالة فزع و خوف، بل و يجعل الشرق ينظر إلى الغرب بعين الإشمئزاز"²، فإلى متى تبقى هاتان الحضارتان متصارعتان، لابد من إيجاد حلول لخلق الحوار و التفاهم بين الشرق و الغرب، فإلى ماذا يحتاج الحوار كي يتم بطريقة إيجابية سلمية بين الطرفين؟.

لطالما كان الحوار رمزا و شعارا للتواصل بين الأمم، فبالحوار تطرح الأفكار و الآراء للنقاش و المعالجة، ومن ثم إيجاد الحلول لكلا الطرفين المتجادلين أو المتصارعين، لأن هدف الحوار هو التخفيف من حدة الصراع و الدعوة إلى التسامح و

¹ . Helga zep, appel a participer à une correspondance international pour un « dialogue des cultures » la rouché , présidente de l'institut schiller le 15 Octobre 2001, www.solidarité-et-progresse.org/jaque-cheminade-contre-choc-désivilisations.htm → 11 :42, page 3.

² - فيلمر ستيورت كاكو نورثروب ، المرجع السابق، ص 83.

التصالح بين الشعوب و الأمم بشرط أن يكون للطرفين قابلية للتسامح و التفاهم، و كذا التخلي عن الإستعلاء، و يمكن هنا أن ندرج بعض الحلول والتي تمكن من خلق حوار إيجابي بين الحضارتين:

*حتى يتم هذا الحوار مع الطرف الآخر الغربي لابد لنا من المعرفة الجيدة له، من عادات و قيم و دين و كل ما يتعلق بإقليمه¹ ، و إنصاف و إعطاء كل ذي حق حقه، و هذا الإنصاف ما نراه مع أشقائنا الفلسطينيين، فالغرب الأمريكي مثلاً إلى الآن مازال يغض النظر عن جرائم المعسكر الصهيوني في فلسطين المقهورة، فأين هو التفاهم و الإلمام بظروف هذه الأقاليم المظلومة²، و لعل هذا بالضبط ما تقطن له نورثروب فدعا إلى : " فحص المشكلات الأوسع نطاقاً مع الإلمام بالتفاصيل المحلية، التي يسمح الوقت باكتسابها، لذلك فإن العلاج كما يقدمه نورثروب يتضمن الجمع بين خبرة المتخصص المحلي و المتخصص العالمي، الذي يواجه الإنتباه إلى الصراعات و العلاقات المتبادلة، و قبل أن يتحقق ذلك لابد من توافر الخبرة و تطويرها و إذا تحقق ذلك فإننا نتجه إلى الإيديولوجيات الغربية للتعرف عليها"³.

* لوسائل الإعلام دور كبير في خلق حوار فعال سلمي بين الحضارتين ، لذلك لابد على الإعلام من ان يخفف من تضخيم الأحداث و زرع الحقد و الخوف بين

¹ - ينظر فيلمرستوريتكاكونورثروب نقلاً عن وفاء عبد الحليم محمود، المرجع السابق، ص 83.

² - ينظر المرجع نفسه، ص 52.

³ - المرجع نفسه، ص 53.

الطرفين¹، لأن الإعلام المعاصر أصبح يخدم المصالح الشخصية لكل دولة، فبه يثور الشعب و به يهدأ، و مادام الإعلام له كل هذه القدرة العجيبة في السيطرة على الشعب لابد من أن يوظف ليكون واسطة للصلح بين الشعوب.

*لكي يسود التفاهم بين الحضارتين و يتم الحوار بينهما لابد للغرب أن يتنازل قليلا و يتواضع لفهم الشرق فهما صحيحا و يترك على جنب تلك النزاع القومية و الدينية و يتعامل معه بطريقة موضوعية، نبني من خلالها مستقبل حضاري زاهر، آمن، فنتراح من الحروب و أهوالها².

*يجب على كل حضارة أن تحترم خصوصية الحضارة الأخرى، و أن تتخلص الحضارة الغربية من فكرة التحكم في الآخر و إبقائه تابعا لها³.

هذا هو حال الإنسان أو البشرية جمعاء، دائما في صراع مع نفسها أو مع الآخر، فالعملاق (الغرب) يدوس على الشرق، و القوي يأكل الضعيف من أجل الحصول على الثروات و الخيرات التي تقنى و تزول، فأساس الصراع هو طمع و جشع الغرب و غروره بتفوقه، لذلك فهو لا يعطي أي فرصة للشرق كي يتحاور معه لأنه هو الأقوى، فمكانته لا تسمح له كي يتجادل مع الشرق، و لعل هذا ما لاحظناه في الروايات العربية مع الأبطال العرب، الذين عادوا خائبين إلى أوطانهم، فأوروبا داست على كرامتهم و لم تمنحهم حتى شرف الإنتقام (مصطفى سعيد) لأنها مستعدة للمواجهة في أي لحظة حتى و لو كانت المواجهة و الهجوم على غفلة فهي دائما

¹ - ينظر. أحمد عارف أرحيل الكفارنة، المرجع السابق، ص 305.

² - ينظر فيلمرستينورتكاكونورثروب نقلا عن وفاء عبد الحليم محمود، المرجع السابق، ص 84.

³ - ينظر د. أحمد عارف أرحيل الكفارنة، المرجع السابق، ص 305.

مهيأة لذلك، حتى الحوار لم تقبله منهم، فبطل "الحي اللاتيني" مثلاً عندما أراد أن يصحح خطأه بالزواج من جانين مونثرو و الإعتراف بجنيته منها، و هو يعني بهذا (تزوج الحضارتين الشرقية و الغربية) لم تقبل عرضه بالزواج، و هذا يعني رفض الحضارة الغربية تزواجها و إتصالها بالحضارة الشرقية.

إن هذه المرأة الغربية التي ظن الأبطال العرب أنها ستكون سبيلهم و وسيلتهم في الإنتقام من الغرب، خيبت أملهم و طعنهم في ظهرهم، فالخنجر دائماً معها لتطعن عدوها، فلا تترك له اي فرصة للفوز و الإنتقام على الغرب، و هذه الطعنة هي التي ردت البطل مكسوراً إلى وطنه، لكنه على الرغم من ذلك ظل يحن إلى جو الغرب (مصطفى س و الغرفة اللندنية)، أي أن المثقف العربي لعب دورين، الشخصية الأولى، هي شخصية الشرقي المنتقم لحضارته، و الشخصية الثانية هي شخصية الرجل الباحث و المتهلف لحياة و حياة الغرب، ففي هذه الروايات إذن: "تجسيدا واعيا لموقف التردد بين الحضارتين، فالشرق في وجدانه غائر حتى الجذور التي تمد قلبه بشرايين الحياة و الغرب في ذهنه ماثل حتى النخاع، فهو الذي يمد عقله بأسباب الوجود"¹.

¹ - باديس فوغالي، دراسات في القصة و الرواية، المرجع السابق، ص 156-157.

خاتمة

لكل بداية نهاية، و رحلتنا البحثية مع النصوص الروائية تنتهي هنا لتكلل بأهم النتائج

التي توصلنا إليها من خلال الفصول الثلاثة المدروسة، و هي كما يلي:

* يعد علم الصورة أو الصورية، من أحدث المجالات في الأدب المقارن " imagologie " و أكثرها إهتماماً بالعلاقات بين الشعوب و تواصلها الثقافي، كونها تسعى إلى دراسة صورة البلد الأجنبي و تجلياتها في الأعمال الأدبية، مما يساعد على توضيح و كشف الغموض عن تلك الصور الخاطئة التي تقدمها الأمم لغيرها نتيجة سوء الفهم و قلة الإطلاع، أو أحياناً بغية تشويه الآخر عمداً لزرع الفتن و توليد العداء بين الشعوب، وهنا يأتي دور علم الصورة في إجلاء ذلك الغموض الذي ولده ربما حقد دفين اعطى و رسم صورة مشوهة عن الآخر.

* إن الصورة التي يرسمها الأديب لمجتمع أجنبي لا تعبر عن هموم ذلك المجتمع و مشكلاته فالأديب هنا يكون آخر همه هو مشكلات شعب آخر و إنما تعبر أولاً عن مشكلات الأديب نفسه و مشكلات قومه في مواجهة الآخر، لذلك فالصورة ما هي الا وسيلة يرى من خلالها المجتمع مرآة أعماقه فيها من قبح و جمال، تخلف و تقدم، فتحاول الذات بفضلها أن تتدارك الوضع و تحسن من مستواها لتتنافس الآخر و تواكبه.

* تستند الذات في تشكيلها لصورة الآخر و بلورته إلى عنصرين أساسيين هما "المخيال الجماعي" الذي هو عبارة عن كل ما علق بذهن الشعوب خلال فترة أو مرحلة زمنية معينة ثم تطور مع التاريخ، ثم الى عنصر "الوعي" اي وعي الذات للآخر و حسن إدراكه.

* إن اللقاء بين الشرق و الغرب أخذ مسارين مختلفين عبر التاريخ، الأول كان لقاء صدامي عنيف دام لفترات طويلة و قد ظهر ذلك من خلال الحروب الصليبية، أما الثاني فقد كان لقاء ثقافي سلمي له غايات خفية تخدم المشاريع الغربية.

* إن الموقع الإستراتيجي و الثروات التي يتمتع بهما الشرق جعلاه محط أنظار الغربيين، لذلك إن أول ما حرك الحروب الصليبية هو أطماع مادية و معنوية سعى الغرب لتحقيقها في الشرق.

* بعد مائتي عام من الصراع عاد الصليبيون أدراجهم منهزمين، مستفيدين من تلك الهزيمة على عكس الشرق الذي لم يستقد و لم يجن شيئا من إنتصاره.

* إن الأوضاع المزرية التي كانت تعاني منها أوروبا آنذاك حتمت على المرأة الأوروبية المشاركة أيضا في الحروب الصليبية و قد قامت بعدة أدوار منها المرأة المحاربة، المتزوجة الحاكمة، و قد تميزت بالقوة و الشجاعة و الحنكة كما تميزت بالغنج.

* إتضح لي بأن الإستشراق الذي إعتبره البعض جسرا للإتصال و التبادل الفكري بين الشرق و الغرب ما هو إلا إستراتيجية سياسية خططت لها القوى الأوروبية لتحقيق مصالحها السياسية قبل الثقافية في الشرق، و بالتالي فإن العداء و الخلاف بين الشرق والغرب لم ينته بل إتخذ الصراع بينهما لونا آخر.

* ما لوحظ في هذا الإستشراق أنه قدم و أنتج صورا نمطية مشوهة عن العرب فقد أظهر الشرقيون و العرب سذجا، غافلين محرومين من الحيوية و القدرة على المبادرة ،و لعل هذا ما يخلق و يولد حقدا و صراعا جديدا بين الطرفين فيما بعد.

* لقد كان للحملة الفرنسية على مصر فضل في تنوير عقول المصريين، ففتحت أمامهم آفاق جديدة كلها حلم بالتطور و التغيير، و هذا بفضل الوسائل التكنولوجية الجديدة التي

جلبتها معها، لأن الآخر الفرنسي المتمثل في العتاد العسكري و العلمي، و في المصاحبات الثقافية و الاجتماعية و السياسية للحملة الفرنسية كان بمنزلة المرأة التي رأى بواسطتها الوعي القومي حقيقة ما وصل إليه عالمه، و أدرك على نحو صادم أوضاع هذا العالم في علاقات تراتبه الجامد، و إنغلاقه الخامل فوعى تخلفه مصدوما، مقابل إدراكه تقدم الآخر الذي هزمه بما لا طاقة له به من علم، و مخترعات و عتاد و علماء و أوضاع و علاقات لا تعرف التقليد المتحجر و الإنغلاق الجاهل.

* إن حملة نابليون بوناپرت لم تكن نعمة بقدر ما كانت نقمة، فالمحتل الغازي لا تهمه ثقافتنا و تطورنا بقدر ما يهتم إلغاء هويتنا و تدميرنا و تشتيتنا، لذلك إعتبرها الكثير فترة مظلمة و مؤلمة هدفها نهب خيرات مصر و الإستيلاء عليها.

* إن سبب سقوط و فشل النهضة العربية هو تدخل الأيادي الخارجية (الإستعمار) لقطع طريق التقدم امامنا .

* تحقيق النهضة العربية مرتبط بشروط ثلاثة هي: سقوط الغرب، التحرر من تقديس التراث، و حضور "الأنا" حضورا واعيا.

* تحقيق النهضة العربية يكون بتحقيق الوحدة العربية، لذلك علينا أن نتحد جميعا لنبني معا حضارتنا و مستقبلنا.

* بين البحث أن النهضة الأوروبية هي التي منحت المرأة الأوروبية الحرية الكاملة، فقد أوجدت النهضة عصرا للمرأة، و هيأت لها مجالا جديدا و أهمية جديدة لتلائم قدراتها.

* إن الظلم و الإستبداد و الحرمان الموجود بالشرق جعل الرجل الشرقي يحزم أمتعته و يقصد أوروبا بحثا عن الحرية و المتعة، لأن الغرب هو فضاء مفتوح متحرر لا مكان فيه للقمع و الكبت، فهناك سيد راحته و استقلاليته و هنا يمكن أن نقول إن الغرب صار البيئة

البديلة لكل شاب عربي.

* إن المرأة الغربية أو الفتاة الشقراء كانت هاجس كل رجل عربي يقصد الغرب، و قد رد أحمد زكي سبب السفر إلى بلاد الغرب و الغاية منه هي أن نمتع النواظر برؤية الوجوه النواظر، و اللحاظ الفواتر، و الثغور البواسم، و الخدود النواعم، و القدود المياسة، و الخصور النحيلة، و كأن باريس أو الغرب كله هو عاصمة أو مركزا للأنثى الشقراء المتحررة.

* عبر الروائيين العرب عن صورة المرأة الغربية بصفات سلبية كثيرة تتراوح بين التعجرف، و التسلط، و الأنانية، و الخداع و المكر، و الإستغلال، لكن هذا لا يعني أننا سنسقط كل هذه الصفات السلبية على كل النساء الغربيات، لأن هناك فئة من النساء الغربيات يتميزن بصفات إيجابية حسنة كالوفاء و الإخلاص، العمل و الثقافة، عزة النفس و النزاهة.

* تطرح الرواية العربية الصراع القائم بين الشرق و الغرب، و الحقد الدفين الذي ولده الإستعمار في وقت مضى، فآن الآوان للرجل الشرقي أن ينتقم و يأخذ بثأره من الرجل الغربي في عقر داره.

* أوضح البحث أن الرجل (البطل الشرقي) وظف فحولته سلاحا في إنتقامه من الغرب من خلال فتاته الشقراء التي كانت صيدا سهل المنال بالنسبة له مستخدما في ذلك سحر الشرق كطعم لصيدها.

* المرأة الغربية هي رمز ووجه لأروبا الطاغية التي تريد أن تلغي قيمنا و هويتنا الشرقية وقد ظهر ذلك مع جين مورس التي طلبت ثمن القيم الشرقية الحضارية مقابلا لها فداست عليها و أرادت أن تحطمها.

* إن وقوف الذات الروائية أمام الغرب الحضاري أول مرة جعلها تشعر بالإنبهار و الإندهاش لعظمة هذه الحضارة الراقية، لكن سرعان ما تتبدد هذه الصورة التي كونها الروائي

عندما يكتشف البطل الشرقي (محسن) أن كل شيء مزيف فيها و أن ماديتها أفسدت البشرية.

* إذا غاب الإنتقام عند البطل المغاربي فإن المرأة الغربية لم تقوت فرصة الإنتقام عليها، و هذا ما لاحظناه مع فرنسواز و البشير في رواية ما (لا تذروه الرياح) فقد جمعتهم العلاقة السادية التي تجمع الغازي المستعمر (فرنسا) بالمستعمر (الجزائر).

* بين البحث أن الغرب ينظر إلى الرجل الشرقي نظرة إحتقار و إستعلاء، فهو في نظره مجرد رجل همجي متخلف، و متوحش، لا يستحق إلا الضرب و الإهانة فمصطفى سعيد مثلاً مع أنه رجل فائق الذكاء و متعلم إلا أن الغرب لم يعترف بتفوقه بل نبذوه و حطموه لأن إعترافهم له بتفوقه و تحضره هو إعتراف للحضارة الشرقية كلها.

* إن المشاريع الإنتقامية التي خطط لها الأبطال الشرقيون باءت بالفشل، لأن هذه المواجهة كان لابد لها من تحضير مسبق و أسلحة ووسائل تساعد و تدعم هذه المواجهة، و هذا ما إفتقده البطل الشرقي، فهو لم يجد سلاح إلا فحولته التي عززت ثقته بنفسه على أنه الذكر الأقوى الذي يسيطر و يهزم الأنثى الغربية (الغرب) لكنه ينصدم بها عندما تكشر عن أنيابها و مخالبتها و تواجهه بكل قوة فلا يجد حلاً في النهاية إلا أن يعود الى وطنه منهزماً مطأطأ الرأس .

لا يسعني في الأخير إلا أن أقول أن صورة المرأة الغربية في الرواية العربية لم تعرف الثبات و كانت في تغير دائم و ربما يكون هذا راجع لطبيعة الآخر، ووجهة نظر الكاتب الخاصة به، و الظروف المحيطة بها، فكل هذه الأمور لها دور كبير في رسم صورة عن المرأة الغربية، كما ينبغي أن نشير إلى أن هذا التصادم و هذا الإنهزام أمام الآخر ما هو إلا بداية جديدة ناجحة للأنا في المستقبل، لأنها رأت نقاط ضعفها في مرآة الآخر فسعت و

عزمت على مجارة حدائته، كما ستسعى لخلق حوار إيجابي أساسه التبادل و الفهم الصحيح بينهما.

و في الختام آمل أن هذه الدراسة قد أجابت على الأسئلة التي كانت تشغلنا منذ البداية و هي أسئلة متشعبة أساسها اللقاء بين الشرق و الغرب قديما و حديثا و موقع المرأة الغربية في هذا الصراع.

قائمة المصادر

و المراجع

قائمة المصادر و المراجع

أولاً- المصادر

- 1- إدريس (سهيل). الحي اللاتيني، دار الآداب، بيروت، ط 15، 2007 م.
- 2- الحكيم (توفيق). عصفور من الشرق، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، د.ط، د.ت.
- 3- زفزاف (محمد). المرأة و الوردة، الشركة الوطنية للناشرين المتحدين، الرباط، دط، دت.
- 4- صالح (الطيب). موسم الهجرة إلى الشمال، دار الجنوب للنشر، تونس، دط، 2004 م.
- 5- عرعار (محمد العالي)، ما لاتذروه الرياح، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ط2، 1982 م .

ثانياً: المراجع العربية

- 6- أزوط (جورج). سهيل إدريس في قصصه و مواقفه، دار الآداب، بيروت ط1 1982 م
- 7- إبراهيم (عبد الله). المطابقة و الاختلاف بحث في نقد المركزية الثقافية، دار الفارس للتوزيع و النشر، الأردن، ط1، 2004 م.
- 8- بلحاج (زهرة). الغرب في فكر هشام شرابي، دار الفارابي، بيروت، ط1 ، 2004 م .
- 9- بوطالب (محمد نجيب). صورة الآخر ناظرا و منظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، 2008

- 10- جبري (عبد المنعم عبد الله). المرأة عبر التاريخ البشري، دار الصفحات للطباعة و النشر، دمشق، دط، دت .
- 11- الجبوري (عادل). الإسلام و الغرب قراءات معاصرة، دار النهضة للطباعة و النشر، ط1، 2003 م .
- 12- الجابري (محمد عابد). الخطاب العربي المعاصر دراسة تحليلية نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط5، 1994 م .
- 13- الجابري (محمد عابد) إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط5، 2005 م.
- 14- الجابري (محمد عابد). المشروع النهضوي العربي، مراجعة نقدية مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ط1، 1996 م .
- 15- الحكيم (توفيق). تحت شمس الفكر، دار مصر للطباعة، دط، دت.
- 16- الحكيم (توفيق). البرج العاجي، المؤلفات الكاملة المجلد الأول، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1994 م .
- 17- الحكيم (توفيق). زهرة العمر، دار الشروق، مصر، ط2، 2008 م .
- 18- الحنفي (حسن). مقدمة في علم الإستغراب، مجد المؤسسة الجامعية للنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ط3، 2006 م.
- 19 - لحمداني (حميد). في التنظير و الممارسة، دراسات في الرواية المغربية، دار قرطبة للطباعة و النشر، الدار البيضاء، ط1، 1986 م .
- 20- حراز السيد (رجب). عصر النهضة، دراسة في الحضارة الأوروبية الحديثة، دار النهضة العربية، القاهرة، دط، دت .
- 21- حفاوي بعلي (رشيد). الطيب صالح و الإبداع الكتابي، دار اليازوري، عمان، ط1، 2015 م .

- 22- حجازي (سمير). ثقافة العرب و ثقافة الغرب في قراءة العصر، مؤسسة طيبة للنشر، القاهرة، ط1، 2005 م.
- 23- الحسن (عيسى). موسوعة الحضارات (تاريخ، لغات، أعلام، قيم حضارية عادات و تقاليد، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 2009 م.
- 24- حنون (عبد المجيد). صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، دت.
- 25- حمود (ماجدة). مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 2000 م.
- 26- درويش (أحمد). نظرية الأدب المقارن و تجلياتها في الأدب العربي، دار غريب للطباعة، القاهرة، ط1، 2002 م .
- 27- دراقي (زوبير). محاضرات في الأدب المقارن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، دت .
- 28- رجب (محمد). فلسفة المرأة، دار المعارف، مصر، ط1، 1994 م .
- 29- الزبيدي (مفيد). تاريخ الحروب الصليبية، دار أسامة للنشر، الأردن، عمان، ط1، 2011 م.
- 30 - السعافين (ابراهيم)، تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام 1870-1967 م، دار المناهل، بيروت، ط2، 1987 م.
- 31- الساموك (سعدون محمود). الوجيز في علم الإستشراق، دار المناهج، عمان، الأردن، ط1، 2003 م .
- 32- سمير (أمين). التمرکز الأوروبي (نظرية الثقافة)، موفم للنشر، ط1، 1992 م .
- 33 - سويدان (سامي). أبحاث في النص الروائي العربي، دار الآداب، بيروت، ط1، 2008 م.

- 34- سابا يارد (نازك). الرحالون العرب و حضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، مؤسسة نوفل للنشر، بيروت، ط1، 1979 م .
- 35 - شكري (غالي). أزمة الجنس في القصة العربية، الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر، دط، 1971 م.
- 36- شكري (محمد فؤاد). الحملة الفرنسية و خروج الفرنسيين من مصر، دار الفكر العربي، دط، دت.
- 37- الصلابي (علي محمد محمد). الجذور التاريخية للحروب الصليبية، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ط1، 2008 م .
- 38- الصفار (فوزية). أزمة الأجيال العربية دراسة في " موسم الهجرة الى الشمال" للطيب صالح، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر، دط، 1980 م.
- 39- طرابيشي (جورج). شرق و غرب، رجولة و أنوثة، دار الطليعة، بيروت، د.ط، د.ت.
- 40- طرابيشي (جورج). لعبة الحلم و الواقع، دراسة في أدب توفيق الحكيم، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، ط1، 1972 م.
- 41- العريف بياتريكس (أسماء). الآخر في المخيال مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، دط، دت.
- 42- عطية (حسين محمد). دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، دط، 2002 م.
- 43- عبد الوهاب (حسن حسن). مقالات و بحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، دار المعرفة، الأزاريطة، دط، 1979 م.
- 44- عليان (حسن). العرب و الغرب في الرواية العربية، دار مجدلاوي للنشر، عمان، ط1، 2004 م.

- 45 - عبد الفتاح عاشور (سعيد). الحركة الصليبية، الجزء الأول، مكتبة الأنجلو
مصرية، مصر، ط1، 1963 م.
- 46- علوش (سعيد). الرواية و الإيديولوجيا في المغرب العربي، دار الكلمة للنشر،
بيروت، ط1، 1981 م.
- 47- عبده قاسم (عبده). ماهية الحروب الصليبية، دار روتا برنيت للطباعة، دط،
1993 م.
- 48- عتيق (مديحة). فصول في الأدب المقارن، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2011
م.
- 49- عبد الحليم محمود (وفاء). نقد نورثروب للحضارة العربية و موقفه من التقاء الشرق
و الغرب، دار الآفاق لدنيا للطباعة، الإسكندرية، دط، دت.
- 50- غنيمي هلال (محمد). الأدب المقارن، نهضة مصر، ط3، 2003 م.
- 51- الفتح (أبي عبد الله محمد بن محمد بن حامد). في الفتح القدسي، دار المنار، دط، دت
.
- 52- فوغالي (باديس). دراسة في القصة و الرواية، عالم الكتب و الحديث للنشر،
الأردن، ط1، 2010 م.
- 53- فاسي (مصطفى). البطل المغترب في الرواية العربية، موفم للنشر، الجزائر،
دط، 2008 م .
- 54- القادري بوتشيش (إبراهيم). بين أخلاقيات العرب و ذهنيات الغرب، رؤية للنشر و
الطباعة، القاهرة، ط1، 2005 م .
- 55- المعوش (سالم). صورة الغرب في الرواية العربية، مؤسسة الرحاب الحديثة،
بيروت، ط1، 1998 م.
- 56- المسيري (عبد الوهاب). دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مكتبة الشروق
الدولية، ط1، 2006 م.

- 57- موسى (فاطمة). في الرواية العربية المعاصرة ،مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، دط، دت .
- 58- ميخائيل (إبراهيم أسعد). شخصيتي كيف أعرفها؟، دار الآفاق الجديدة، لبنان، ط3، 1987 م.
- 59- المبارك (محمد)، بين الثقافتين الغربية و الإسلامية، دار الفكر، دط، 1980 م .
- 60- مصايف (محمد). الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقع و الإلتزام، الدار العربية للكتاب، الجزائر، دط، 1983 م.
- 61- نسيم يوسف (جورج). دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية للنشر، دط، 1983 م.
- 62- الورقي (السعيد). إتجاهات الرواية العربية المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، دط، 1998 م.
- 63- يعقوب (لوسي). عصفور الشرق توفيق الحكيم، دار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1949 م.

ثالثا: المراجع الأجنبية المترجمة

- 64- إدوارد (سعيد). ترجمة محمد عناني، الإستشراق المفاهيم الغربية للشرق، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006 م.
- 65- بن نبي (مالك). ترجمة عمر كامل مسقاوي و عبد الصبور شاهين، شروط النهضة، دار الفكر، ط3، 1996 م.
- 66- باركر (أرنست). ترجمة السيد الباز العريني، الحروب الصليبية، دار النهضة، بيروت، ط2، دت.

- 67-فوك (يوهان). ترجمة عمر لطفي، العالم تاريخ حركة الإستشراق، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط2، 2001 م.
- 68-هنري باجو (دانييل). ترجمة غسان السيد، الأدب العام المقارن، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 1997 م .
- 69-ياروسلاف (سيزار) و جوزيف، ترجمة جوزيف نسيم يوسف، دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب، د ط، دت.

رابعاً: الأطروحات الجامعية

- 70-بوعبد الله (جميلة). القيم و الإيديولوجيا في "رواية الحي اللاتيني" من البنية العميقة إلى البنية السطحية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2000 - 2001 م.
- 71-سوفلان (أمنية)، صورة الجزائر في الأدب الفرنسي، دي موباسان و ألبير كامو نموذجاً، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2008 - 2009 م .
- 72-شتوح (قنية) تأثير سارتر في أدب سهيل إدريس، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1984- 1985م.
- 73-طبيبي (جمعة). صورة المرأة الغربية في الرواية الجزائرية، دكتوراه العلوم، الجزائر، 2015، 2016 م.
- 74-عطاشي (عيسى)، صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2005 م .
- 75-مباركي (جمال). الغرب في الرواية العربية الحديثة، رسالة دكتوراه العلوم، باتنة، 2008، 2009 م.

- 76-مبخوتة (رعاش). صورة الجزائر في روايات "ألبير كامو"، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2007-2008 م.
- 77-مزوني (زهرة صورة). اليهودي في الشعر العربي، رسالة ماجستير، الجزائر، 2000-2001 م.
- 78-الوالي (بوجمعة). الصراع الحضاري في الرواية العربية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1993 م.
- 79-الوالي (بوجمعة)، المؤثرات العربية و الأجنبية في "رواية موسم الهجرة الى الشمال"أطروحة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 2001، 2002 م.

خامسا: المجلات و الدوريات

- 80- أرحيل الكفارنة (أحمد عارف)، معوقات الحوار بين الشرق و الغرب، مجلة دفاتر السياسة و القانون، جامعة البلقاء التطبيقية، المملكة الأردنية الهاشمية ،العدد الثالث عشر، 2015 م .
- 81-حويلي (نبيل). حكايات ألف ليلة و ليلة بعيون غربية، دراسة نقدية اناسية، مجلة إشكالات في اللغة و الأدب ،منشورات المركز الجامعي لتامنغست، الجزائر، العدد الثاني، 2013 م.
- 82-السيد (غسان). صورة الغرب في الأدب العربي، رواية فياض نموذجاً لخيري الذهبي، مجلة جامعة دمشق، المجلد 24 العدد الثالث + الرابع 2008 م.
- 83-سيف الدين (أحمد) صورة المرأة الأوروبية في روايات شكيب الجابري، مجلة دمشق، المجلد 18 العدد الأول، 2002 م.
- 84-طاهر (بهاء). تقابل الحضارات بين الآن و الآخر في رواية "واحة الغروب"، مجلة إضاءات نقدية، جامعة طهران، إيران، العدد الثالث و العشرون، 2016 م.

- 85-قحطان زعير (عدنان). المخيال الإجتماعي و تمثلاته في مهارات التمثيل المسرحي، مجلة لارك للفلسفة و اللسانيات و العلوم الإجتماعية، كلية الفنون الجميلة، جامعة واسط، العراق، العدد الخامس و العشرين، 2017 م.
- 86-قاسمي (ليلا). صورة الذات و الآخر في رواية "سوشون" مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران، إيران، العدد التاسع عشر، 2014 م .
- 87-مكاكي (محمد). صور من عناية الإستشراق المعاصر بالأدب العربي، الأدب النسوي انموذجا، مجلة إشكالات في اللغة و الأدب، منشورات المركز الجامعي لتامنغست، الجزائر، العدد الثاني، 2013 م .

سادسا: المجلات الأجنبية

88-El hanafy ahmed mohamed limage de lautre a travers la lampe a huile egyptien a paris de yehia hakki etude analytique et compare universite dalazhar –le caire-egypte –nor sud –juin 2017 .n09 .

89-Namvar bahman les stereotypes a travers le prisme de limagologie recherche en langue et littérature francaise revue de la faculte des lettres a nnee n07 .

سابعا: المواقع الالكترونية

90-[www.solidarite](http://www.solidarite.org) et progres .org jaque –cheminade –contre –choc-des civilisations .htm 11 42.

ثامنا: المعاجم و القواميس

- 91- البستاني (بطرس). قطر المحيط قاموس لغوي ميسر، أطلس البلاد العربية و القارات، مكتبة ناشرون، ط2، 1995 م .

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

		مقدمة
14	علم الصورة مفهومها أنواعها و أهدافها	مدخل
	الصراع بين الشرق والغرب و العلاقة بينهما	الفصل الأول
	إرتباط وتفاعل عدائي بين الشرق و الغرب	المبحث الأول
34	مفهوم الشرق و الغرب و العلاقة بينهما	المطلب الأول
42	الحروب الصليبية	المطلب الثاني
55	المرأة الأوروبية في المجتمع الصليبي	المطلب الثالث
	إرتباط و تفاعل ثقافي بين الشرق و الغرب	المبحث الثاني
60	الإستشراق	المطلب الأول
72	الحملة الفرنسية و دورها في النهضة العربية	المطلب الثاني
	صورة المرأة الغربية في الرواية العربية	الفصل الثاني
	الغرب مركز للحرية و الجنس	المبحث الأول
91	تعارض القيم بين الشرق و الغرب إزاء الجنس	المطلب الأول
98	تعطش الرجل الشرقي و المغربي للحرية و الجنس	المطلب الثاني
	صورة المرأة الغربية	المبحث الثاني
117	المرأة و حرية ممارسة الجنس	المطلب الأول
127	المرأة الغربية الإستغلالية الخائنة	المطلب الثاني
136	المرأة الغربية و سحر الشرق	المطلب الثالث
142	نشاط المرأة الغربية العمل	المطلب الرابع
147	المرأة المثقفة	المطلب الخامس
154	بين المرأة الشرقية و المرأة الغربية	المطلب السادس

	مشروع الإنتقام	الفصل الثالث
	مشروع الإنتقام و أسلحته	المبحث الأول
163	الإنتقام بالحب الحي اللاتيني موسم الهجرة إلى الشمال	المطلب الأول
182	بين عطيل و مصطفى سعيد	المطلب الثاني
187	الحب الخيالي و الإنتقام عند توفيق الحكيم	المطلب الثالث
193	غياب الإنتقام في الرواية المغاربية	المطلب الرابع
	الحوار بين الشرق و الغرب	المبحث الثاني
201	صورة الرجل الشرقي عند الغربيين	المطلب الأول
209	بين الشرق و الغرب المادية و الروحية	المطلب الثاني
215	فشل الحوار بين الشرق و الغرب فشل الأبطال	المطلب الثالث
225		خاتمة
232		قائمة المصادر و المراجع
242		فهرس الموضوعات

Résumé:

la confrontation de l'autre exige de le connaître. Cette connaissance n'est pas faite de loin mais par le contact direct, c'est pour quoi le romancier arabe a préconisé de s'embarquer dans l'aventure et de s'approprier à partir pour l'occident pour que la description de la relation entre nous et autrui soit proche de la réalité et non pas une simple image émanant de l'imaginaire seulement. La présente recherche ouvre à l'analyse la nature de la présence de la femme occidentale dans le roman arabe, cette femme blonde qui était l'image de l'occident et symbole de la nature de la rencontre civilisationnelle entre l'Orient et l'occident, cette rencontre a toujours été qualifiée d'hostile ; d'ici on verra comment les sentiments hostiles du romancier arabe tremblent, et comment il exploitera sa rancœur profonde envers l'occident qui l'a colonisé auparavant et il le colonise encore mais avec d'autres diverses et modernes méthodes, alors il œuvre pour se venger de lui sur son propre terrain et la femme occidentale est son moyen de vengeance ; le présent objet a suscité des questions entre autres :

*Comment se manifeste l'image de la femme occidentale dans le récit du romancier arabe ? À partir de cette question substantielle il émane un ensemble de questions, voire :

*pourquoi le livre a-t-il utilisé la femme à titre de symbole pour s'exprimer en matière de l'occident ? est-ce que car c'est la femme occidentale qui est capable de représenter toutes les valeurs de la société occidentale ? ou elle a été utilisée comme outil de vengeance de l'occident ?

*quel est le secret de l'émigration de la majorité des auteurs à l'occident, est-ce que cela est dû à l'émerveillement de l'occident et de sa civilisation ou à la vengeance à son encontre ?

*Comment l'arabe conçoit l'occident ? et quelles sont les conditions du contact de l'orient avec l'occident ? nous nous sommes parvenus à répondre à ces questions modèles et choisies à savoir: le quartier latin de souheil idriss , saison de l'immigration au nord de tayeb salah , l'oiseux de l'orient de toufik el hakim , ce que le vent ne peut emporter de arar mohamed el ali , la femme et la rose de mohamed zefaf , en sus nous avons repartir la recherche en trois chapitres : en commençant par le préambule et en achevant par la conclusion , et parmi les plus importants résultats on est parvenu à :

Le contact entre l'orient et l'occident a pris deux trajectoires diverses dans l'histoire , la première consistait au contact conflictuel violent ayant duré pendant longtemps , ce la se manifeste par les croisades , quant à la deuxième elle consistait au contact culturel pacifique ayant des objectifs occultes en faveur des projets occidentaux .

*l'injustice , le despotisme , la privation , en orient on poussé l'homme de l'orient à faire ses bagages et s'orienter vers l'europe en quête de la liberté et de la plaisance , car l'occident est un espace ouvert et émancipé où la répression , le refoulement n'existent pas , là il trouvera son quiétude et son indépendance (liberté) à ce stade , on peut dire que l'occident est devenu l'environnement alternatif pour le jeune arabe.

* les romanciers arabes ont tracé l'image de la femme occidentale par maintes adjectifs négatifs variant entre l'arrogance , l'autoritarisme , l'égoïsme , la duperie , la tromperie et l'exploitation , en revanche , ce l ne signifie point que les qualités négatives se projettent à toutes les femmes occidentales , car il y a une catégorie d'elles qui se caractérisent par des qualités positives comme la loyauté et la fidélité , le travail , la culture , l'amour –propre et la probité.

*Le roman arabe démontre le conflit entre l'orient et l'occident , la rancœur profonde que la colonisations a fait naître dans le temps , il est grand temps que l'homme oriental se venge de l' homme occidental dans son propre terrain.

*la recherche précise que l'homme (héros oriental) a utilisé sa virilité comme arme pour se venger de l'occident à travers sa jeune blonde qui était facilement accessible pour lui , en utilisant , pour ce faire , l'enchantement oriental comme appât pour l'avoir.

*les projets de vengeance que les héros de l'orient ont envisagés ont voué à l'échec car cette confrontation devait être impérativement préparée au préalable , avec des armes et des moyens qui l'assistent et la consolident , chose que le héros de l'orient n'avait pas , il n'a pas trouvé d'arme que sa virilité qui a consolidé sa confiance en soi-même d'être le mâle le plus fort , qui domine et vainc la femelle occidentale (l'occident) , cependant , il sera choqué lorsqu'elle l'affronte de toutes ses forces et il ne trouvera pas une solution à la fin que de retourner à son pays battu et infructueux .

Enfin , l'image de la femme occidentale dans le roman arabe a connu l'inaltération , la variation constante , peut être que ce la est dû à la nature de l'autre , au point de vue de l'auteur , aux conditions qui les prévalent , tous ces éléments jouent un rôle important pour tracer l'image de la femme occidentale.

